سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي

المعهد الإسلامي

بين الأصالة والتطوير

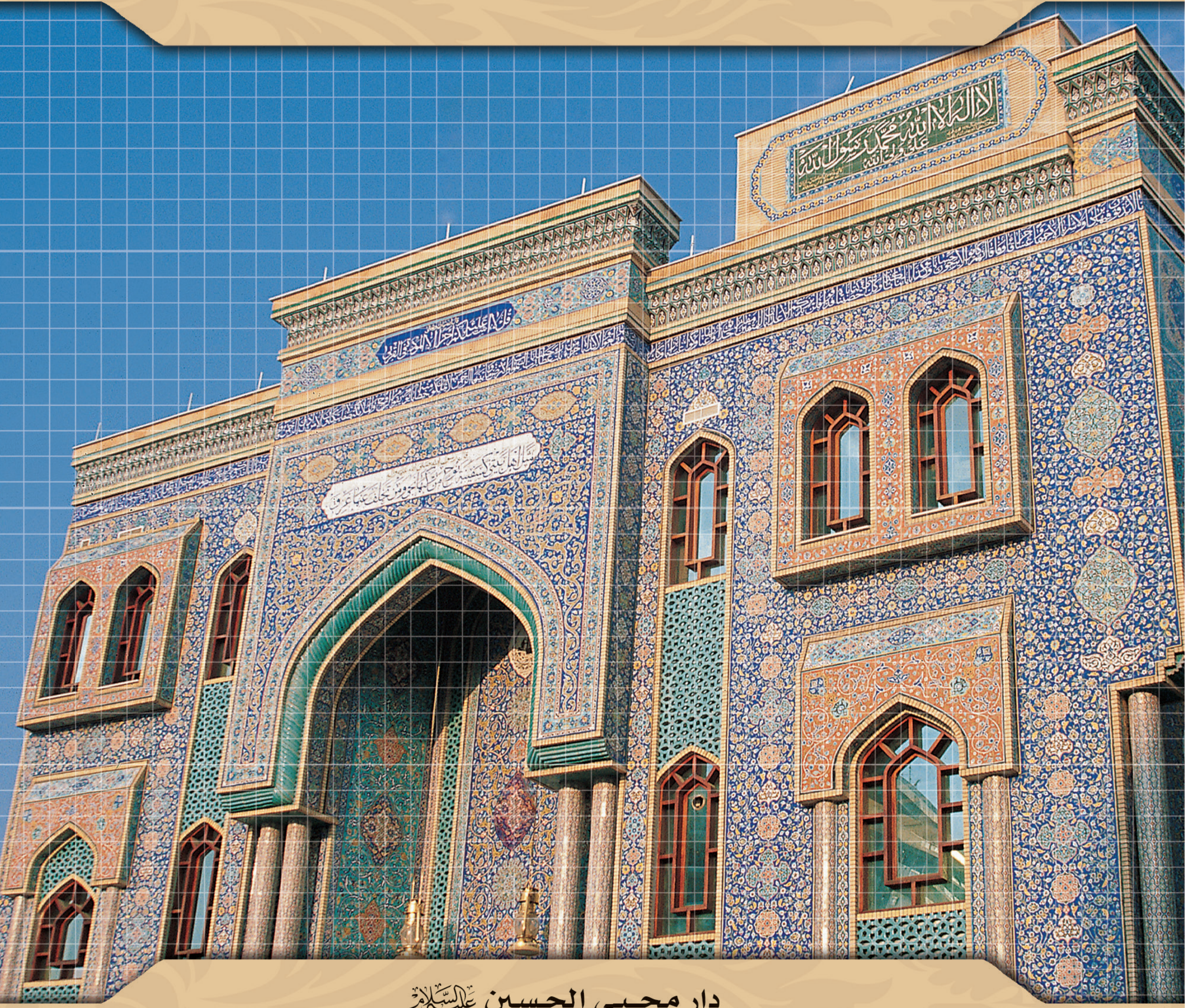

دار محبي الحسين عليه السلام

المعهد الإسلامي

بين الأصالة والتطوير

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي

المعهد الإسلامي

بين الأصالة والتطوير

دار محبي الحسين عليه السلام.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

شابك: ٩٧٨-٩٦٤-٤٢٧-١٢٠-٥

تعريف الكتاب

❊ **الكتاب**: المعهد الإسلامي.. بين الأصالة والتطوير.

❊ **المؤلف**: المرجع الديني آية اللّٰه العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).

❊ **الطبعة**: الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م. (٣٠٤ صفحة).

❊ **الناشر**: دار محبي الحسين عليه السلام.

طهران - شارع ناصر خسرو - زقاق حاج نايب - رقم ٢٥.

الهاتف: ٠٢١ - ٣٣٩٠٧١٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ الخَلْقِ أجمعين، محمَّدٍ وآله الطَّيِّبين الطَّاهرين

كلمة الناشر

لماذا لم يتطور الفقه كثيرًا؟. لماذا أغلق البعض باب الإجتهاد؟. وحتى الذين لم يقفلوه نظريًا، لماذا تراهم لم يتوغّلوا فيه بعيدًا؟[1].

هذه التساؤلات أثارها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) في العام ١٤١١هـ، في المجلد الثاني من موسوعته العلمية: (التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده). ومن يقرأ الأعمال الفقهية والعلمية والفكرية لسماحته، يلاحظ بوضوح أن من أبرز الهموم التي كانت -ولا تزال- تشغل بال المرجع المدرسي هو: تشخيص ونقد أسباب التخلف في الأمة بشكل عام، وتسليط الضوء على عوامل التقدم.

حيث يرى سماحته أنّ تسريع عجلة التغيير والتقدم في الأمة ترتبط -بشكل جذري- بحركة التطوير في الحوزات العلمية التي يُفترض فيها قيادة مسيرة الأمة إلى الأمام معنويًا. وبعودة الجامعات إلى أحضان الدين، والتي يُراد لها أن تدير حياة الأمة ماديًا.

ففي مقدمة كتاب (المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه) كتب سماحته: «حين تفقد الأمة شخصيّتها، فليس بينها وبين نهايتها إلا خطوة واحدة.. ويضيف: إنّ شخصيّة

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص٣٤.

الأمة هي روحها الجماعية التي يستوحي منها كل فرد من أبنائها العزيمة والأمل..»(١).

«ولكن إذا ضاعت شخصيّة الأمة، ولم يعد يشعر أبناؤها بالروح الواحدة التي تجمعهم، فإنّ كل واحد سيتخذ طريقًا مختلفًا، وسيشعر الجميع بالضعف، والعجز، والهزيمة»(٢).

ورغم ما تعيشه الأمة -منذ حقب ثلاث- من صحوة إسلامية متنامية، إلا أنّ الغزو الشرس الذي تواجهه من الثقافات الغريبة والدخيلة، لا يزال يشكل تهديدًا جديًّا لها بضياع شخصيّتها المتميِّزة. ولابد من العمل الجاد لإعادة شخصية الأمة وهويتها.

يقول المرجع المدرسي: «إنّ المسلمين يبحثون اليوم عن هوية، إنّهم يبحثون -في فراغ- عن شيء يتشبّثون به، ولكنهم لا يجدوه ما داموا بعيدين عن دينهم وتراثهم. وإذا عادوا إلى الإسلام -كدين وتاريخ- فسوف يجدونه أكثر من مجرّد هويّة، إنه الكنز الحقيقي الذي لا ينفذ»(٣).

ورغم أنّ هذه الكلمات كُتبت قبل عقود مضت، ورغم أن المسلمين اقتربوا أكثر مما مضى من هذا الكنز، إلا أن الواقع يشهد بأن هناك مسافة لا تزال تفصل بين المسلمين وبين هويتهم وشخصيتهم. فمن الذي يستخرج (كنوز الإسلام) ويعيدها للأمة لكي تصوغ حياتها وتواصل مسيرتها إنطلاقًا من ذلك؟.

يجيب سماحة المرجع المدرسي: «هناك طائفتان، هما: رجال الدين حين يصبحون رجال علم. ورجال العلم حين يصبحون رجال دين»(٤).

وهذا هو بيت القصيد في رؤية سماحة المرجع المدرسي حول دور الحوزات

(١) المنطق الإسلامي.. أصوله ومناهجه، ص٥.
(٢) المنطق الاسلامي.. أصوله ومناهجه، ص٦.
(٣) المنطق الاسلامي.. أصوله ومناهجه، ص٧.
(٤) المنطق الاسلامي.. أصوله ومناهجه، ص٨.

العلمية وضرورة تطوير مناهجها -سواء من حيث المحتوى أو من حيث الأسلوب- لتستطيع الإضطلاع بمهامها الكبرى في توجيه الأمة لسلوك مسارات صحيحة في الحياة المعاصرة، وكذلك رؤيته حول دور الجامعات العلمية وضرورة عودتها إلى الدين، لتؤدّي دورها في إدارة شؤون الأمة في إطار هويتها الإسلامية، وشخصيّتها القيمية الأصيلة.

وبمناسبة سعينا لإعادة طبع ونشر كتاب (المعهد الاسلامي بين الأصالة والتطوير) الذي يتحدث فيه سماحة السيد المرجع (حفظه الله تعالى) عن مسائل كثيرة تتعلق بالحوزات العلمية وضرورة تطويرها، نسعى هنا لتسليط الضوءعلى رؤية سماحته عن تطوير الحوزات للوصول بها إلى ما يتناسب مع دورها الكبير ومسؤوليتها التاريخية.

في إحدى كتاباته يتساءل سماحته عن أسباب الإنكفاء الذاتي الذي ابتُلِيَت به الحوزات، يقول: «الإسلام دين العلم، والمعاهد الدينية (الحوزات) هي التي خرَّجت كبار علماء المسلمين في مختلف الإختصاصات. فلماذا إنكفأت هذه المعاهد اليوم على ذاتها، وزعمت أنّ مسؤوليتها تنحصر في إعادة صياغة أفكارها دون أي إنفتاح على أفكار العالَم من حولها؟.

لماذا لم تطعِّم الحوزات الدينية مناهجها بالجديد الجيّد من مناهج العلوم الحديثة. أو -لا أقل- لماذا لم تطوِّر هي مناهجها بما يتناسب مع تقدّم العصر؟»[1].

ثم يشير سماحته إلى صعوبة عملية التطوير وخطورته في الوقت ذاته. إذ إن من أهم مخاطر هذه العملية هو أن يتحقق التطوير على حساب الأصالة وفصل الحوزات عن جذورها القيمية، وبالتالي إغراقها في متطلبات ومتغيّرات العصر بعيدًا عن أصالتها. وفي هذه الحالة تأتي عملية التطوير مشوّهة، وسيكون الخطر أكبر من الإنكفاء على الذات. يقول المرجع المدرسي: «بلى، العملية هذه ليست بسيطة، إذ التطوير -أيًّا كان- يرتبط إرتباطًا وثيقًا بالحدود الغامضة والدقيقة التي

---

(١) التشريع الاسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١١.

تفصل بين الأصالة والتقليد، بين ما يجب أن يبقى وما يجب أن يُطوّر. وبالتالي، بين القضايا المتعلِّقة بالقيم الثابتة التي لا يجوز التنازل عنها تحت أيّ ضغط، وبين التقاليد التي لصقت بها في غفلة من الوعي، أو القضايا التي كانت صالحة في يوم، ثم أصبحت من مخلفات العصور الأولى.

وليس من حقّ كلّ من هبَّ ودبّ أن يعيِّن هذه الحدود الدقيقة، لأنّ تعيينها بحاجة إلى معرفة شاملة بالعصر ومتغيراته من جهة، وبالدين -القيم الثابتة منه، والمواضيع المتغيرة- من جهة أخرى.

ثم لحسّاسيّة هذه القضايا يختلف فيها الناس إختلافًا كبيرًا، فالأمر الذي هو -في رأي أحد المفكرين- من صميم الدين فاذا تغيّر أطبقت السماوات على الارض، إنّه بالذات تقليد أعمى -في رأي جماعة أخرى- ويخالف الدين، والدين بريء منه. مثلًا: محل المرأة، هل هو البيت فقط، أم رحاب الحياة كلها؟.

فريق من الناس لا يكفّون عن الصراخ بأنّ الله، والرسول، والمسلمون، يقولون إنّ المرأة يجب ألاّ تخرج من حدود البيت. بينما فريق آخر، يقولون بكل ثقة وقناعة: إنّ الإسلام يفرض على المرأة الاحتشام، ثم يوجب عليها أنْ تساهم في بناء الحياة، ابتداءً من البيت وانتهاءً بالاصلاح السياسي.

هؤلاء واولئك، يقدمون معًا شواهد وأدلّة عديدة، وجذر المشكلة أن الدين إختلط عندنا بالتقاليد، و«**الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ**»[(١)]، يُفسَّر تفسيرات شتّى، وفي هذا الجو قد يتطرف الذين يريدون التطوير، فيتجاوزون حدود الأصالة، ويتمردون على الماضي بخيره وشره، بقيمه الصالحة وتقاليده البالية، ويكفرون -بالتالي- حتى بالشخصية المتميزة للأمة»[(٢)].

(١) نهج البلاغة، (٧٧) ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس.
(٢) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٢.

فهل يعني هذا التحذير الذي يطلقه المرجع المدرسي، غلق الأبواب في وجه التطوير حفاظًا على الأصالة؟. وهل يصبح الإنغلاق على الذات، والتَّسمُّر في الماضي -بكل جوانبه ومستوياته- هو القَدَر المكتوب على الحوزات الدينية، رغم النتيجة الخطيرة التي تترتب على ذلك من العزلة والإبتعاد عن الأخذ بأزمّة الحياة المعاصرة وتوجيه الأمة نحو ذرى التقدم؟.

يعود سماحته ليوضّح رؤيته حول هذه النقطة بالقول: «ولكن بالرغم من ذلك لابد أنْ نقتحم هذا الميدان الخطر، ونتجاوز العقبات، ونعطي للأمر الأولوية، عوضًا عن القضايا الجانبية، ونصرف من أجله الطاقات الهائلة (المادية والمعنوية) التي تُصرف في إعادة صياغة الافكار الماضية بقوالب جديدة، وحتى إعادة طباعتها بذات الأساليب»(١).

ولكننا قد نواجه فريقًا من الناس يبرّر عدم قيامه بالتطوير، وإلتصاقه بالماضي، بالقول بأنّ الإسلام يعارض التطوير، بينما يرى سماحة المرجع المدرسي -وهو المعروف في الأوساط العلمية، باطّلاعه الواسع على التراث، وتدبّراته العميقة في القرآن الكريم، ودرايته الدقيقة للسنّة الشريفة، وتمسّكه بالأصالة إلى جانب التطوير- يرى أن الاسلام، ليس لا يعارض التطوير فحسب، بل إنّ مناهجه تدفع المؤمنين بهذا الإتجاه، وتفتح أمامهم أبواب التغيير وآفاق التطوير في إطار الأصالة والقيم. يقول سماحته بهذا الصدد تحت عنوان: (الإسلام دين التطوّر): «وإنما لم يبيِّن الله سبحانه في القرآن الكريم إلا أحكامًا قليلة، وركّز في بقية آياته على منظومة من القيم التي أراد ترسيخها في وعي الأمة بشكل كامل، إنما فعل ذلك ليفتح أمام الأمة أبواب التطوّر.

والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتب لنا أسفارًا مطوّلة في التشريع، إنما بيَّن أصول العلم والحكمة، ورسَّخ قيم القرآن بتشريعاته الرشيدة، ثم وجَّه الأمة إلى خلفائه المعصومين عليهم السلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ**

---

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٢-١٣.

بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ. مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا..»[(١)].

وخلفاء الرسول ﷺ لم يؤلِّفوا كتبًا مطوّلة في الأحكام الفقهية، إنما قالوا: «**عَلَيْنَا إِلْقَاءُ الْأُصُولِ، وَعَلَيْكُمُ التَّفْرِيعُ**»[(٢)]، ووجّهوا الأمة من بعدهم إلى الفقهاء، وقالوا: «**وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا**»[(٣)].

ولكن السؤال: هل نحن طوّرنا -حسب مسؤوليتنا الدينية- الأحكام وفق متغيّرات العصر، أم تمسّكنا بالجانب الثابت من الشريعة وضخّمناه وأعدنا صياغته من جيل إلى جيل. أما المتغيرات فتركناها لاجتهادات الناس؟»[(٤)].

ولكي نعرف بالضبط ما هو المقصود بالتطوير في المحتوى، وماهي الموضوعات التي تتطلّب التغيير والتطوير، يطرح سماحة المرجع المدرسي مجموعة من الأسئلة تتعلّق بأهم جوانب حياة الأمة.. تلك الجوانب التي ظلّت مغفولة في الحوزات رغم تعطّش الأمة لإجابات واضحة وتفصيلية تُوازِن بين الحفاظ على الأصالة (القيم) وبين الإستجابة لمتطلبات الحياة المعاصرة.

وكنماذج لمجالات التطوير، يتساءل سماحة المرجع المدرسي: «ماهو الاقتصاد الاسلامي؟ وكيف ينبغي أن يتم توزيع الثروة؟. كيف يجب أن ننمي ثروة بلادنا؟. ماهي القوانين التي تنظِّم علاقة العامل بربّ العمل؟. وهل يجب أن يشارك العمّال في الارباح؟ وكم؟. ولماذا؟. وهل للعمال ضمان إجتماعي؟.

ماهو حكم الدين في الأراضي؟ فهل يجوز تقسيمها على الفلاحين إذا اقتضت الضرورة لاستقلال بلادنا الاقتصادي؟ ومتى تكون حالة الضرورة؟ وهل نحن الآن في تلك الحالة؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٨٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٦٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٤٠.

(٤) التشريع الاسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٤.

ما هي أنظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ماهي الوسائل السليمة التي يجب إتباعها اليوم؟ هل يجوز الاصلاح السياسي المسلَّح، أم يجب أن يكون مجرَّد عملٍ صامت؟ أم عصيان مدني؟.

كيف يجب مقاومة الاحتلال؟. وماهي عناصر النجاح فيها؟.

كيف يجب أنْ يُبنى المجتمع؟. وكيف نوجد فيه الديناميكية؟. كيف نجعله مجتمعًا متقدمًا؟ كيف نحافظ على القيم التي تسود عليه؟.

ماهي تفاصيل البرنامج الاخلاقي الذي يجب أن يتقيَّد به الانسان المؤمن؟. هل هي المرونة أو التصلّب؟. ومتى المرونة، ومتى التصلّب؟. وهل هي الانعزال أم الانفتاح؟. ومتى هذا، ومتى ذاك؟.

إنّ مئات الأسئلة العريضة حائرة اليوم، وتتطلب أجوبة صحيحة وواقعية وواضحة، فانّى لنا بذلك؟»[1].

وهكذا يرى سماحة المرجع المدرسي -وهو ذو تجربة عريقة في تأسيس وتوجيه عدد من المعاهد والحوزات الدينية، وتخريج المئات من العلماء ورجال الدين الناشطين في مختلف مجالات العمل الإجتماعي الديني- يَرى أنّ مسؤولية عالِم الدين والفقيه لا تنحصر في إعادة دراسة وبحث الكتب والدراسات القديمة فقط والإكتفاء بذلك. ولا تتوقف عند دراسة الإفتراضات غير الواقعية وإبداء الرأي الشرعي حولها، بل إنّ مسؤولية الفقيه تتعدّى ذلك للإهتمام بالقضايا اليومية الملحّة، وجعلها محور الدراسة، وإبداء الرأي الشرعي الثابت الواضح المحدّد في قضايا الناس ومشاكل الأمة.

يقول سماحته بهذا الصدد: «لو لم تصبح القضايا اليومية الملحّة هي محور الدراسة، ولم نعالجها بشجاعة وحكمة، والتضحية بكثير من التقاليد التي أصبحت

---

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٤-١٥.

عند البعض من المقدّسات، فإنَّ حسابنا سيكون عسيرًا أمام الله، ثم أمام التاريخ، وإنَّ مسؤوليتنا ليست في إعادة الكتابة لمشاكل مَنْ قبلنا وإعادة الحلِّ لها.

ليس من الصحيح بيان الافتراضات: إذا كان هكذا فهكذا، وإنْ كان كذلك فهذا. علينا أن نعطي رأيًا ثابتًا، وواضحًا ومحدّدًا، ونقول: لأنّ الأمر هكذا فالحكم هكذا، وكفى.

وهذا -بالطبع- بحاجة إلى علمٍ واسع، لا بالكتب، بل بالحياة بكل تفاصيلها. إنّ هذه -وليست غيرها- هي مسؤوليّة الفقيه.

وإلاّ، فكان يكفينا أن نعيد طباعة كتاب فقهي قديم مرةً كل عام ونطبِّقه. إننا لا نحتاج إلى نسخ أخرى للكتب الفقهية، بل إلى دراسة فقهية لمشاكل العصر ثم حلّها، على ضوء الفقه الإسلامي الغني.

إنّ المغالاة في التحذّر قد يسبِّب في إخراج الناس من الدين رأسًا، ولذلك يصبح في بعض الأوقات أشدّ ضررًا من اللامبالاة في الدين، ولذلك كره الله عمل المارقين المغضوب عليهم، كما لم يرض عن القاسطين الضالّين»[1].

ثم يشير سماحته إلى نماذج من العلماء والكوادر التي تحتاجها الأمة. إذ لو تربّى العالِم ودرس وتخرَّج بعيدًا عن هموم الأمة ومشاكل الناس، لبقي معزولًا عنهم، وبذلك ظلّ بعيدًا عن أداء رسالته المطلوبة وتحمُّل مسؤوليّته التي جعلها الله في عنقه.

يقول المرجع المدرسي -عن لسان الأمة-: «إننا بحاجة إلى من يعرف السياسة، ويعرف الدين، ويعطينا رؤية دينية تجاه مشاكلنا السياسية.

وبحاجة إلى من يعرف الاقتصاد، ويعرف بصائر الدين فيه، ووفق تلك البصائر يحلّ لنا قضايانا ومشاكلنا الاقتصادية.

---

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٥-١٦.

وبحاجة إلى من يعرف الثقافة الحديثة وتياراتها في التربية، وعلم النفس -بفروعه العديدة- والأدب، والفن، ثم يعطينا نتيجة بحوثه. آنئذ طالبونا بتطبيق الإسلام ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾[١].

ثم يضيف سماحته: وبالطبع لو لم تتغيَّر مناهج الدراسة، واهتمامات الدارسين، ومحاور حلقات المناقشة في المجاميع الدينية، لا يستطيع علماء الدين القيام بهذه المهام الجسام»[٢].

وردًا على فئةٍ من الناس ترى أنّ الإسلام دين لا يواكب التطوّر في الحياة، ولذلك تستنكر -هذه الفئة- الدعوة للتطوير في المناهج والأساليب، وتزعم أنّ الإسلام دين التكاليف الشخصية، فلا يجب تحميله أكثر من ذلك، ودعوا الناس يطوّروا حياتهم كيفما يشاؤون. ردًا على تخرّصات هذه الفئة -المنهزمة نفسيًّا- يقول سماحة المرجع المدرسي: «التطوّر الذي نعيشه اليوم لا يشبه مامرّت به البشرية سابقًا، فكيف نتحداه؟. هل للاسلام -هذه الرسالة الالهية التي لا يخلقها الزمن- إجابات شافية عن الاسئلة التي تطرحها تحديات العصر؟.

مِن الناس من ينكر خلود الإسلام، أو يزعم أنّ الإسلام محدود بالشؤون الشخصية، وهكذا لا يكلِّف هؤلاء -كما أولئك- أنفسهم عناء الإجابة عن هذه الاسئلة، ويقولون: دعوا العقل البشري يعالج مشاكل المسلمين، ولا تحمِّلوا الدين أكثر مما يحتمل.

ولكننا نعتقد -ونبرهن على ما نعتقد- أنّ الإسلام رسالة التحديات المضاعفة. إنه شاطئ الخلاص لمن تعصف به أمواج الفتن. وإذا لم ينفع الإسلام البشر -وبالذات المؤمنين به- من خطر هذه الامواج العاتية، فمِنْأيّ خطر يعصمهم أو ينجيهم؟.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨١.

(٢) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص١٦.

القرآن هدى من الضلال، وأيّ ضلال أكبر من مشاكل البشرية اليوم؟. القرآن نور الله في ظلمات الارض، أولسنا نحن المسلمين تلفّنا الظلمات المتراكمة؟.

الذين هجروا القرآن في مثل هذه الايام، قد خسروا طريق النجاة وضيّعوا خشبة الخلاص، ألا إنّ ذلك لهو الخسران المبين.ولكن كيف؟.

هل يمكن أن نستفيد من كتاب ربنا هدى لواقعنا المظلم من دون أنْ نطوِّر أساليب فهمنا ومناهج إستنباطنا منه، ونحاول أن نستوحي منه بصائر جديدة وأحكامًا للوقائع الحادثة؟»[1].

***

بعد هذا المشوار الخاطف مع بعض جوانب رؤية سماحة المرجع المدرسي (دام ظله)، حول ضرورة التطوير بالنسبة للمعاهد والحوزات الدينية، نعود لطرح الأسئلة الثلاث التي إفتتحنا بها المقال:

لماذا لم يتطوّر الفقه كثيرًا؟.

لماذا أغلق البعض باب الإجتهاد؟.

وحتى الذين لم يقفلوا باب الإجتهاد نظريًّا، لماذا تراهم لم يتوغلوا فيه بعيدًا؟.

في الإجابة على هذه الأسئلة، يعيد سماحة المرجع المدرسي سبب ذلك إلى تراجع الروح في الأمة، إذ إن هذا التراجع ينعكس على كل الجوانب والمؤسسات داخل الأمة. لنستمع لسماحته: «للأمة -أيّة أمة- روح عامة، فاذا كانت عالية تعيش عنفوان الانطلاق، إنعكست على سائر أبعاد حياتها، ففي السياسة تتطلع إلى الفتوحات، وفي الاقتصاد إلى التقدم والابداع، وفي الاجتماع إلى التعاون والوحدة، وفي التشريع إلى سنّ القوانين المناسبة لكل تلك الابعاد.

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص٣٠.

وإذا تراجعت روح الامة إنعكست على أنشطتها، ودخلت في نفق الجمود والتخلف. وحين كانت الأمة الإسلامية في عنفوان شبابها، تقدمت في كل الاتجاهات، ولكنها إنكفأت على نفسها عندما دخلت خريف عمرها، وأحاطت بها سلبيات الشيخوخة المبكرة. وإذ عادت اليوم إلى فصل الربيع، وتجددت حياتها، وانبعث فيها روح التحدي، فإنّ المؤمَّل أن تتقدم -مرة أخرى- في كل الاتجاهات، ومنها بالطبع حقل التشريع»[1].

***

إلاّ أنّ سماحة السيد المرجع (حفظه الله) لم يقتصر على بلورة مسألة تطوير الحوزات نظريا فقط، بل بادر عمليا -ومنذ اكثر من اربعة عقود مضت- بتطبيق نظرياته التغييرية التي تدعو إلى التطوير في إطار التمسك بالأصالة:

١- فقد بدأ سماحته دعوته للتغيير والتطوير في الحوزة العلمية منذ اواخر حقبة الستينات، وذلك في الحوزة العلمية في كربلاء المقدسة، وواصل إهتمامه هذا في المهاجر (الكويت، وإيران، وسوريا)، ثم بعد عودته إلى الوطن.

٢- وقرن سماحته هذه الدعوة بخطوات عملية في عدة اتجاهات، حيث بدأ بتأسيس دورات وحلقات دراسية حوزوية في كربلاء المقدسة، ثم في مدرسة الرسول الأعظم ﷺ في الكويت، ثم تأسيس حوزة الإمام القائم في طهران، ومشهد، والسيدة زينب (سوريا) وذلك في إطار مشروعه التغييري. إلى جانب ذلك كتب سماحته عددًا من الكتب العلمية لتكون منهجًا دراسيًا في الحوزة، مثل: الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، والمنطق الإسلامي، والعرفان الإسلامي، وموسوعة التشريع الإسلامي.

٣- يؤكد سماحته على تفجير كفاءات طالب العلم وصقل مواهبه وطاقاته العلمية، إذ ليس مقبولًا تخريج علماء دين يحملون كما هائلًا من المعلومات

(١) التشريع الإسلامي.. مناهجه ومقاصده، ج٢، ص٣٤.

فقط، بل لابد أن يكونوا قادرين أيضًا على القيام بأدوار تربوية وادارية وتوجيهية في أوساط المجتمع، لذلك فإن تدريس الكتابة والخطابة والإعلام يُعدّ من الأمور المهمة التي يركز عليها سماحته في الحوزة العلمية.

٤- يرى سماحته أن التركيز الأول في البرامج الحوزوية ينبغي أن يكون على القرآن والسنة والسيرة، لكي يكون طالب العلم أقرب إلى روح الشريعة وقيم الرسالة منه إلى كم هائل من المعلومات المستقاة من كتب الفقه والأصول.

٥- كما يؤكد سماحته رعاه الله على ضرورة النزول للساحة الإجتماعية والسياسية منذ بداية الدراسة الحوزوية، وذلك في مناسبات التبليغ (شهري رمضان المبارك ومحرم الحرام) وفترات العطلة، والمناسبات الدينية والإجتماعية المختلفة. فالطالب الحوزوي لا يقتصر على الدراسة النظرية فقط، بل يبدأ مع الدراسة بالعمل التبليغي والإرشادي والتوجيهي في حدود إمكانياته وطاقاته وتحت إشراف المدرسين والعلماء.

***

وفي الكتاب الذي بين يديك (المعهد الاسلامي بين الأصالة والتطوير) يتحدث سماحته عن منطلقات الحوزة العلمية واهدافها، كما ويبيّن القيم الاساسية التي يقوم صرح الحوزة عليها، ومن ثم يسلط الضوء على سمات الحوزة العلمية واخيرا عن ضرورة التغيير والتطوير اللذين يضعان الحوزة العلمية في مصاف مسؤولياتها العظيمة في توجيه المجتمع وقيادته لبناء الحياة الطيبة الكريمة.

مركز العصر للثقافة والنشر

المقدمة

لماذا الحديث عن المعاهد الإسلامية؟.

تأتي ضرورة ذلك من تعاظم تأثير هذه المعاهد في الحياة بعد أن تفاعلت أكثر من أي يوم مضى مع الظروف، وتصدت لقيادة الأمة في أكثر من بقعة.

وقد تميزت المعاهد الإسلامية التي تُسمى أيضًا بـ (الحوزات الدينية)، تميزت بالأصالة حيث تخصصت في فقه الشريعة الإسلامية والعلوم التي تتصل به.

وفي الظروف الصعبة التي مرت على الأمة بعد تعرضها لهجوم غربي شامل، وقف العلماء ومن ورائهم المعاهد الإسلامية يذودون عن حرمات الدين كالطود الشامخ، حتى إنحسر الهجوم وعادت الأمة إلى وعيها وشخصيتها.

وفي ذلك اليوم كانت الحاجة إلى الأصالة أكثر من الحاجة إلى الإنفتاح والتطوير، ولكن اليوم حيث قررت الأمة النهوض من سباتها ودخلت معركة التيار الحضاري، فإن على المعاهد الإسلامية أن تقوم بدورها الريادي في وضع البرنامج الرسالي الذي يواكب العصر واعطاء الزخم الحضاري الكافي لتنفيذ ذلك البرنامج.

وهكذا فإن الحاجة إلى التطوير والإنفتاح على مكاسب العصر تزداد للقيام

بهذا الدور. وهكذا كان على المعاهد الإسلامية أن تقوم بدورين متكاملين: دور المحافظة على حدود الشريعة وأصالة الأمة، ودور تطوير الحياة وتنمية المجتمع.

ومعروف مدى صعوبة الجمع بين هذين الدورين المختلفين ظاهرًا، إلا أن عظمة الإسلام المتجلية في عظمة كتاب الله والسنة الشريفة التي تفسره.. وأن ثراء تراث الأمة ومرونة برامج المعاهد الإسلامية، كل ذلك كفيل بتجاوز هذه الصعوبة بعد التوكل على الله سبحانه.

وهكذا نقدم للإخوة المؤمنين، وبالذات إلى طلبة العلوم الدينية هذه الأحاديث التي ألقيت بالأصل في حوزة الإمام القائم (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) خلال ما يزيد على عقد من الزمان، وتناولتُ فيها بعض الجوانب المتصلة برسالة المعاهد الإسلامية، وكيف ينبغي عليها المحافظة على الأصالة في الوقت الذي تنفتح على مكاسب العصر وتتصدى لمشاكله.

وقد قام الأخ الأستاذ سعد عمران مشكورًا بتحرير هذه الأحاديث. وقد كتبتُ سابقًا برنامجًا للمعاهد الإسلامية فوضعته في مدخل الكتاب إتمامًا للفائدة.

أسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب كل القراء، وينفع به المؤلف والإخوة الكرام في مكتبنا الذين ساهموا في إخراجه للطبع، إنه مجيب الدعوات.

محمد تقي المدرسي

شعبان ١٤١٣ هـ.

طهران

المدخل

- لكي تكون بيوتُ الفقهِ مهبطَ الملائكة
- تفصيلُ البرامج
- كلماتُ الختام

تمهيد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ.

وصلى الله على خاتم المرسلين، محمد الذي ابتعثه بالحق فجعله منارًا للهدى والعرفان، وعلى آله الميامين الذين اصطفاهم بعلمه وجعلهم الدعاة إلى سبيله. والسلام على النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين. والسلام على العلماء بالله، الفقهاء في الدين، الأمناء على الحلال والحرام، وعلى من اتبع نهج الهدى.

لقد اصطفى الله من عباده رسلًا، جعلهم حملة علمه، والدعاة إلى دينه، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]. ثم لم يترك العباد بعد الرسل سدى، بل ارتضى منهم خيرة خلقه، ليكونوا ورثة الأنبياء، وحجج الله من بعد الأئمة الأوصياء عليهم السلام؛ فجعلهم درجات تتسامى، حتى تعالى بعضهم إلى مستوى الحواريين والربانيين الذين قال فيهم سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾(١). وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

بينما سمى بعضهم إلى درجة الأحبار ذوي الفقه والاستنباط، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(٣)

وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(٤).

وقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٥).

ونال كثير منهم درجة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٦).

وهذه الدرجات التي فضَّل الله بعضها على بعض، هي تجليات لدرجات الإيمان واليقين والعلم والجهاد. ولأنها -في النهاية- ميراث الرسالة، فهي قمة التكامل الإنساني، وذروة عروج البشر إلى رحاب الرب العزيز.

والمعاهد الدينية التي يتربى فيها هؤلاء الرجال الكرام، لا جرم ترفع إلى القمة في مناهجها التربوية والتعليمية.. لأنها من البيوت التي أذن الله أن تُرفع،

(١) سورة الصف، آية: ١٤.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.
(٣) سورة المائدة، آية: ٤٤.
(٤) سورة النساء، آية: ٨٣.
(٥) سورة التوبة، آية: ١٢٢.
(٦) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

كما قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(١).

إنها بيوت العلم الإلهي، التي يتخذها عباد الله المصطفون معراجًا إلى معرفة الله، وتزكية النفس، وإثارة العقل، وتعلم المعارف الإلهية، والتفقه في الدين، لكي يختارهم الله لبلاغ رسالته، كما قال سبحانه: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢).

وهكذا نتبصر أبرز معالم هذه البيوت الرفيعة، وهو ذكر الله تعالى، ومن دونه لا فقه ولا دين. فأي دين هذا الذي لا إيمان فيه بالله، ولا ذكر لأسمائه الحسنى؟.

كلا؛ تلك البيوت التي يسودها ظلام الثقافات الجاهلية، لا ولن تصبح بيوت الله، وإن زُخْرِفت ببعض النقوش القرآنية، أو أُقْحِمَتْ فيها بعض الحروف والشعارات الفارغة.

إنما الدين صلة القلب بالرب، وعروج الروح إلى الرفيق الأعلى، ومعايشة النفس لحقائق الحياة الآخرة، وتبصر غرور الحياة الدنيا، واتقاء زبرجها.

وهكذا كانت مجالس العلماء روضة من رياض الجنة، وكذلك لابد أن تكون المعاهد الدينية حدائق الجنان، ومنازل القرب من الرحمن، وسفارات مملكة الله في الدنيا.. إذا دخلتها رأيت حلق الذكر، وانتشيت بعبق الإيمان فيها، وارتويت بنمير علوم القرآن، وفاضت على روحك قبل أذنك آيات الحقيقة.

أما حيث يعشعش شياطين الهوى والشهوات، وينفخ إبليس النفس الأمارة

---

(١) سورة النور، آية: ٣٦-٣٧.

(٢) سورة عبس، آية: ١٣- ١٦.

بالسوء، وتعصف رياح الرئاسات والأنانيات والخلافات الدنيوية، ويتنافس كلاب الدنيا على أدام أهل النار من التفاخر والتنابز بالألقاب، أو سوء الظن والغيبة والتهمة والتكفير والتفسيق والتشهير.. فكيف تعتبرها بيوت الله؟ وكيف ترجو لداخليها شعاعًا من نور الله وبصائر الوحي؟.

لكي تكون بيوت الفقه مهبط الملائكة

لابد أن تكون بيوت الفقه ومدارس القرآن، مهبطًا لملائكة الرحمة، وذلك بالسبل التالية:

ألف: حسن إنتخاب الطلبة، لكي لا يكون فيهم من يريد الدين للدنيا، ومن أجل ذلك تضع الحوزة المزيد من المصافي لإصطفاء الصالحين، كما تقلل فيها الإغراءات المادية التي تجذب طلاب الدنيا، ولا تمالي في سبيل إصلاح جو المعهد أحدًا أبدًا؛ لا في بداية اختيار الرجال، ولا في طرد من تبينت عنده ثغرات إيمانية أو أخلاقية.

باء: تكثيف البرامج الروحية؛ من صلوات الجماعة، والمجالس العامرة بتلاوة القرآن والدعاء والمواعظ، وبإحياء ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، والسعي إلى زيارة المراقد والمقابر، والتشرف بخدمة الربانيين، وإشاعة جو التواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشجيع صيام الأيام المستحبة، وإحياء ليالي الجمعة والأيام المباركة بما ورد فيها من أذكار وأدعية وأعمال مأثورة.

وليعلم القائمون على المعاهد، أن تزكية الناس أعظم أجرًا عند الله من

تعليمهم. فلتكن همة الأساتذة في تحويل قاعة الدرس إلى محفل الذكر، وزرع روح التقوى أثناء بيان الحقائق، وليكونوا قدوة حسنة في كل ذلك، وليستعيذوا بالله من كلمة نابية تخرج من أفواههم أثناء التدريس، أو تصرف قبيح، أو تكاسل عن إسداء النصح.. حتى في الأمثلة التي يختارونها للدروس ينبغي أن تزيد الطلبة ذكرًا بالله واليوم الآخر، وزهدًا في الدنيا وزبارجها الفانية.

جيم: لكي نتخذ من دروس الأخلاق والتفسير والحديث، وحتى الفقه والتاريخ الإسلامي منبرًا لذكر الله، ومشكاة لنور الإيمان، لابد أن نمزجها بالنصيحة والموعظة، ونبعدها عن جو الهزل والقشرية، ونجعل الطلبة يعايشون معانيها وحقائقها، ولا يدورون حول الكلمات الفارغة والنقوش والرسوم والمفاهيم المجردة. أو ليست حقيقة الدين الإيمان بالله، وإستشعار خوفه، والإجتهاد في سبيل مرضاته؟ أو ليس كل ذلك متوافرًا في الوحي وتفسيره وتجلياته؟.

إذًا كيف نجرد القرآن وكلمات حملته، وكتب فقهه، وتأريخ رجاله، من تلك الروح؟.

كلا؛ إن الله قد تجلى لعباده في كتابه. تعالوا نتلوه بطريقة نرى ذلك التجلي الأعظم. ولابد أن يسود محفل القيم، خشوع المتبتلين. وما أحلى مثل هذه البرامج عندما نختار لها ساعات متميزة مثل ما بين الطلوعين، أو نختار لها أماكن روحية كالمسجد لتكون القلوب أشد حساسية، أو نسبقها بشعائر إيمانية كالتطهر والصلاة وتلاوة معطرة للقرآن، وذكر للرسل والأئمة والفقهاء والشهداء؟.

وإذا رست قواعد التوحيد وأسس التقوى في بيوت الذكر، فإن صرح الأخلاق الكريمة يعلو بمتانة وتناغم وبلا تكلف.. وأصولها ثمانية:

١- الإجتهاد

الإجتهاد، وبذل كل الطاقة، واستفراغ كل الوسع. أوَ ليس من عرف الله إشتاق إلى قربه، ولم يجد في نفسه لذة أعظم من السعي إلى رضوانه بكل السبل؟.

أوَ ليس تسمو نفسه، وتعلو همته، وتنتابه الخشية من التقصير بخدمته، والتباطؤ عن بلوغ مرضاته؟.

إنه من فرط شوقه يحول أيامه أعوامًا، وساعاته شهورًا، ويطوي المراحل طيًّا سريعًا، حتى لا يفاجئه الأجل ولمّا يبلغ زاده من الدنيا. ألا تراه كيف يستجير بالله من إنقضاء مدته قبل التأهب والعدة؟. ألا تراه يكاد يذوب حسرة عندما يناجي ربه في الأسحار، ويقول: «**وَيَلِي كُلَّمَا كَبِرَ سِنِّي كَثُرَتْ ذُنُوبِي، وَيَلِي كُلَّمَا طَالَ عُمُرِي كَثُرَتْ مَعَاصِيَّ، فَكَمْ أَتُوبُ وَكَمْ أَعُودُ، أَمَا آنَ لِي أَنْ أَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبِّي. اللهُمَّ فَبِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»[١].

وهل يجد الضجر والكسل والهم والقلق طريقًا إلى قلب عامر بالذكر؟. وهل يشتغل مثله بتوافه الدنيا، ولغو الأعمال، ومراتع الأماني والآمال؟.

كلا؛ إنه يبحث عن أصفى الأعمال وأزكاها، ويختار لنفسه أقرب السبل إلى الله وأرضاها، حتى يستريح من فتنة الدنيا بلقاء ربه، ويستجيب لنداء مولاه أن ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٢].

ولولا روح الإجتهاد عند طلبة الفقه، لما بلغ أحدهم إلى معرفة الدين شأوًا، ولما سُمّيَ الفقهاء بالمجتهدين، وعبر عنهم القرآن الكريم بـ﴿الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٣]، لِما في استنباط الماء من بئر عميقة من جهد كبير.

وهكذا لا يجوز أن نكيف برامج المعاهد الفقهية بما يتناسب والكسالى من الطلبة؛ دعهم يفتشوا لأنفسهم عن عمل غير هذا، فإنهم لا يصلحون لعلم الدين. وكيف نرجو ممن لا يضحي بنومه أو شهوته، أن يضحي في الله غدًا بسمعته أو دمه؟.

---

(١) المزار، الشهيد الأول، ص٢٧٥.
(٢) سورة الفجر، آية: ٢٧-٣٠.
(٣) سورة النساء، آية: ٨٣.

٢- الجهاد

والجهاد في سبيل الله نافذة واسعة لإشعاع نور الهدى واليقين على أفئدة العارفين. أوَ لم تسمع قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[(١)]. ولعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إقتبس من هذه الآية الكريمة قوله: «**لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا، وَيَقِينَكُمْ شَكًّا، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا**»[(٢)]. وقوله عليه السلام: «.. **وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ**»[(٣)].

ومنذ الساعة الأولى لدخول طالب العلم في بيوت الذكر ومعاهد الفقه، لابد أن يضحى جنديًا في معسكر الحق، ومنتميًّا صادقًا لحزب الله، ومدافعًا مستميتًا عن قيم الدين.

ألا ترى كيف قرن الكتاب بين الفقه والجهاد، حتى أن طلاب الفقه كانوا يتخرجون من مدارس الجهاد، وينفرون مع الرسول إلى سوح المعارك؟.

والآية الوحيدة التي ذُكِرَت فيها كلمة (التفقه في الدين) جاءت في سياق سورة البراءة الجهادية، وذُكِر فيها النفر مع الرسول إلى الجهاد.

والجهاد مراتب، ومن عجز عن أولى مراتبه فهو عن آخرها أعجز؛ فلابد أن يتدرج طالب العلم في معارجه حتى يبلغ ذروته، ولعل الله يكرمه بالشهادة في نهاية المطاف.

ومن مراتب الجهاد: الإشتراك في بعثات التبليغ حتى ولو بصفة المساعد، والإشتراك في المشاريع الدينية كبناء المساجد، ومساعدة الفقراء، والمساهمة في حملات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأسيس هيئات الدعوة والتبليغ.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٧٤.
(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٦٦.

ومن تلك المراتب: إرتقاء منبر الوعظ، وكتابة المقالات، والمساهمة في البحوث المفيدة، وإقامة المشاريع.

ومنها: قيادة الجماعات العاملة، وخدمتهم بأية طريقة ممكنة.

ومنها: الإشتراك عمليًّا في محاربة الطغاة والمنحرفين.

إن برمجة هذه المراتب كفيلة بتقوية بنية الجهاد عند الطلبة، وتدريبهم عليها مرحلة مرحلة حتى يبلغوا ذروتها بتوفيق الله. ولا ننسى أن معاهد الفقه لابد أن تُعلِّم طلابها ما يستفيدون منه في الامور الجهادية، كالخطابة والأدب والحوار المؤثر، وأيضًا المعارف التي يحتاجها الناس في مواقع الجهاد، وكذلك التدريب الجسدي على ما ينفعهم في سوح الجهاد من قوة البنية وسلامة البدن.

٣- الروح الاجتماعية

وينساب من ذكر الله والإجتهاد في مرضاته والجهاد في سبيله، روح النظم والإجتماع، فلا تقوم في النفوس حواجز التفاخر والتدابر مما تبعث نحو التنابز بالألقاب والتهمة والإغتياب وإختلاق الفوارق المصطنعة من سوء الظن والتحزب للعنصر والأرض والتعصب للعشيرة والطائفة.

إن الأوامر والمناهي حدود الشريعة، ولابد من رعايتها، ولكنها الجانب الظاهر للدين، أما الباطن فهي شاكلة النفس وطراز الشخصية. فإذا كانت روح الإنسان تميل نحو الحياة التجمعية والإنبساط والعفوية، فإن سلوكه يستقيم مع مكارم الأخلاق ومعالي الآداب. أما إذا تعقدت نفسه، ونزعت نحو الفردية والذاتية والإنطواء والإنغلاق والتكلف والتصنع، فإن سلوكه يتصف بالرذائل والنفاق، وحب الشقاق والتمرد على النظام.

وهكذا يجتهد العلماء في تزكية نفوس الطلبة من تلك الفواحش الباطنة

التي تفرز الفواحش الظاهرة، من الكبر والحسد والغرور والعجب والأنانية واتباع الهوى، لأنها إن بقيت لا تنفع إصلاح مظاهر الفرد إلا زيادة في النفاق والرياء.

وبيوت الذكر ومعاهد الفقه تسقي شجرة الفضيلة عند أهلها بالقضاء على آفات الإجتماع وزرع النفوس بحب الآخرين واحترامهم واحترام آرائهم، وتعليم الطلبة آداب التعامل مع بعضهم، وسن التعاون فيما بينهم.

وقد تكون البرامج العملية مشجعة لذلك، مثل إقامة الصلوات جماعة، والإقامة في غرف مشتركة، وتناول الطعام على مائدة واحدة، وترتيب الرحلات المبرمجة بدقة بالغة، وما أشبه.

وحتى إذا أرادوا ممارسة الرياضة، إختاروا تلك الأنماط التي تنمي الروح الجمعية، بل إن تحميل البعض مسؤولية إخوته في حدود معقولة، قد ينمي الروح الجمعية، مثل إكرام دورة واحدة أو صف واحد إكرامًا جمعيًا إذا كان أغلب أهله متفوقين، وعتابهم أو عقابهم إذا كانوا كسالى.

وتشجيع المطالعة في المكتبة العامة، والمذاكرة والمباحثة في الدروس، وكتابة البحوث المشتركة، والقيام بالعمل المشترك، كإصدار المجلات والرحلات التبليغية.

وربما يكون مفيدًا في مراحل مبكرة من الدراسة تحديد أوقات النوم واليقظة، وسائر الأعمال الحياتية، لكي ترسِّخ الروح الجمعية في النفوس.

٤- التقيّد بالنظام

ومن أبرز معالم الحياة الاجتماعية، التقيد بالنظام الذي يعد من أسمى فضائل الإنسان المؤمن، كما يعتبر اليوم من سمات التقدم الحضاري.

ويبدأ النظام في المعاهد الفقهية بكثرة وتنوع البرامج التي تشمل كافة مناحي حياة الأفراد في الدراسة والمعاشرة والمطالعة وما أشبه.

ويتسع ليشمل تعليم الأفراد أسس النظام السليم، كالشورى، والطاعة، وطريقة التصويت، وانتخاب المسؤول، وآداب التعامل معه.

كما أنه يشمل أيضًا أنظمة لكافة الأمور؛ مثلًا نظامًا للمطالعة في المكتبة، نظامًا للطعام والرياضة، نظامًا للرحلات وما أشبه.

وإذا كانت هناك المزيد من التعاونيات والجمعيات، وفرق العمل، وفرق الرياضة التي يشترك فيها الفرد، كان ذلك أدعى لتربية الفرد على النظام.

وإذا كان الداعي إلى الطاعة، نابعًا من إيمان الفرد بالنظام، واشمئزازه من الفوضى، واحترامه لحقوق الآخرين، فإنه يساهم في تربيته على الإنضباط دائمًا. ولذلك ينبغي تجنب القهر والقسر على النظام، فتكون نتائجه عكسية.

والنظام في الحياة ينعكس على الفكر، فيكون الفرد منظمًا، والنفس مطمئنة، والوقت متسعًا، والحياة متكاملة، لا يضر جانب بآخر، ولا يتفاوت إهتمامٌ لحساب إهتمامٍ آخر.

٥- التفكّر والتدبر

المتفقه في الدين يغمر قلبه حب الله، وحب شرائعه، وخدمة عباد الله، فيندفع نحو التعلم بشوق بالغ يحدوه قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[(١)]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ مِنَ فَرَائِضِ الله**»[(٢)].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حَتَّى يَطَأَ عَلَيْهَا رِضًا بِهِ**»[(٣)]. وقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتُصَلِّي عَلَى طَالِبِ**

(١) بصائر الدرجات، ص٣.
(٢) بصائر الدرجات، ص٣.
(٣) عوالي اللآلي، ج١، ص١٠٦.

الْعِلْمِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْماءِ»[(١)].

من أجل ذلك يزهر في قلبه مصباح الهدى، ويتّقد فكره بنور المعرفة، وتُثار دفائن عقله، وتستيقظ مصادر وجدانه، وينعكس ذلك في أبعاد شتى:

أولًا: كثافة البرامج الذاتية التي تساهم في إنجاح البرامج المقررة، وبالخصوص برامج المطالعة والبحث والدراسة الميدانية.. وإنما نبغ العلماء الكبار بمثل هذه البرامج. وهكذا يتميز الفقهاء العظام عن سائر العلماء في شتى الحقول، لأنهم يعرفون كيف يدرسون بلا معلم، ويلتهمون مختلف المعارف بلا وسائل مساعدة.

وينبغي أن يولي الطلبة والأساتذة هذا الجانب إهتمامًا بالغًا منذ اللحظة الأولى للدراسة، حيث يعتمدون على البرامج الذاتية في التربية والتعليم.

ثانيًا: إعتماد منهج الإثارة والتفكر، لا منهج الحفظ والتقليد، وتنمية ثقة الطلبة بعقولهم وأفكاهم وإبداعاتهم، وتشجيعهم على المساهمة بأي قدر ممكن في المادة الدراسية، ولو بِمَثَلٍ جديد أو التعبير عن الحقيقة بلغة جديدة. وإذا اتبعنا هذا المنهج الذي كان يتبعه كبار الفقهاء مع طلابهم، لربينا رجالًا كبارًا، حيث إنهم كانوا يطرحون السؤال قبل الجواب ويطالبون الفرد بالتحقيق والبحث، ويأخذون بيده في ميدان الدراسة ليرى الحقائق بنفسه.

إنهم كانوا يعلّمون الفرد منهج التعلّم قبل أن يعطوه المعلومات، ويهدوه سبل المعرفة، ويحذروه من العقبات التي تعرقل مسيرته. وإذا رأينا الكتب الفقهية السابقة قد حُرِّرَت بايجاز وبتعابير بالغة التعقيد، فلأن المؤلفين قديمًا كانوا يتخذون من ذلك وسيلة لإثارة الفكر.

---

(١) بصائر الدرجات، ص٥.

وأعظم ما يستثير العقل وينير القلب، التدبر في كتاب الله الكريم، الذي تتجلى فيه سنن ربنا الجارية في الخليقة. فعندما نتدبر في آياته ونبحث عن تأويلها فيما حولنا، فإننا نهتدي -بإذن الله- إلى حقائق تلك السنن، ونغور في أعماق الموجودات، حتى نلامس حريمها الداخلي ونشهد سرها الغائب.

آيات الله في الكتاب عنوان آياته العظمى في الخلق، فإذا تزوّدنا بمصباح الكتاب، وسرنا في رحاب الكائنات تبصّرناها، وكان تدبرنا في القرآن ذلك الجسر الموصل بين هذه الآيات وتلك.

حقًا إن من يجهل قدر التدبر، يغلق على نفسه أوسع منافذ العقل والمعرفة، ويعيش في ضلال بعيد.

وباستثناء العربية والفقه ثم أصول الفقه، فإن أغلب المناهج الدراسية ينبغي أن تُتخذ وسيلة لاستثارة العقل. فدرس التأريخ يجب أن يتبع منهج التحليل ليفكر الطالب في عبرة التأريخ التي يستفيدها في حياته الراهنة، وموضوع السياسة لابد أن ينمي قدرة الطالب على تفسير الأحداث الساخنة والتنبؤ بتطوراتها القادمة. أمّا علم النفس والإجتماع وسائر العلوم الإنسانية، فإن أقرب المناهج لإثارة الفكر فيها هي مناهج التأمل الذاتي، والتي تجعل الطالب نفسه محورًا للبحوث. أوَ ليست هي أقرب الحقائق إليها؟ ومن خلال غوره في أعماق ذاته، يعرف أنفس الآخرين.

ثالثًا: لكي لا تستريح النفس إلى مناهج جامدة، ولا تقدس الوسائل التي لا قيمة ذاتية لها، سوى أنها مقدمات لتحقيق الأهداف، ولكي يعيش الطلبة أجواء الإبداع، لابد أن نعطي لهم أبعد مدى ممكن من حرية إبداع السبل الكفيلة بتحقيق الأهداف المقررة، شريطة أن تتم الموافقة عليها من قبل الإدارة، حتى لا تعم الفوضى. ولابد أن تبادر الإدارة نحو تطوير السبل بين فترة وأخرى، حتى يعيش الجميع طراوة التجديد، ولذة التطوير، مع المحافظة على إستمرارية القيم.

ومن ذلك الإسراع في تطوير الأجهزة التي تترى على الأسواق. فالدراسة بأشرطة التسجيل تصبح قديمة إذا قسناها بالدراسة عبر الفيديو، وهي بذاتها تنهزم أمام الدراسة عبر الأفلام، وإذا تقدمت الدراسات عبر أجهزة الحاسوب فإنها تصبح سيدة الوسائل.

بلى؛ مادة الدراسة تبقى واحدة، إنما تتطور وسائلها بين فترة وأخرى.

٦- الانفتاح والإنبساط

المؤمن ينفتح على الخليقة ويعيش معها في وئام وتناغم، بل في حب ووله.. أوَ ليست نفسه مشكاة لنور التوحيد، ولحب الله المجيد؟ أوَ ليست الكائنات خليقة الله؟ أوَلا يرى أنها خُلقت له ليسخرها في خير الناس وسعادة نفسه، وقرأ بكل رضًا وتسليم قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

وهكذا تنبسط نفسه كما السماء الزرقاء ظاهرة سافرة مستبشرة، وهي أبعد شيء عن العقد والالتواء والحقد والشنآن.

ولذلك فإن الصفات التالية تتجلى في بيوت الذكر ومدارس الفقه:

أولًا: الإعتدال. فالعدل عنده ليس مفهومًا ضيقًا في القضاء بين الناس، أو رد حقوقهم إليهم، بل إنه يتسع لإعتدال المواقف في الناس. وقد فُسِّرت الآية الكريمة بذلك، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٢].

وكيف يجوز للفقيه أن يتطرف في حبه أو بغضه للناس حتى يخرجه ذلك عن

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٦.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

حدود الشريعة، بينما المؤمن حسب قول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ الَّذِي إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي إِثْمٍ وَلَا بَاطِلٍ، وَإِذَا سَخِطَ لَمْ يُخْرِجْهُ سَخَطُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ..»(١).

كما أن الاعتدال يجعلهم مقتصدين في معايشهم؛ فلا إسراف ولا تقتير، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٢).

وأهم ما يميز أهل الفقه في هذا الحقل، عدم تحزبهم بما يجعلهم طرفًا في الخلافات الإجتماعية، بل تراهم يسعون ليكونوا شهداء على الناس، وحكامًا بينهم.. فهم فوق الخلافات، دون أن يعني ذلك تجردهم عن واجب المسؤولية في الوقوف مع أهل الحق، وضد أهل الباطل، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾(٤).

ثانيًا: ولأنهم لا يتحزبون في الخلافات الإجتماعية، فإنهم دعاة وحدة، وجماعات ضغط لأجلها، ومؤسسات إصلاحية، وقادة التعاون والتآلف.. وإن ذلك لمن أبرز مكاسب الإستقلال، وثوابه عند الله عظيم.

ثالثًا: الإيجابية في تقييم الناس، وعدم النزوع إلى إتهام الآخرين وإساءة الظن بهم، أو مخالفة كل حركة إجتماعية، إلا إذا ثبت أنها مخالفة للشريعة.

رابعًا: ذاتية الحركة، وهي نتيجة تفاعل الصفات الكريمة السابقة، ولولا هذه الحركة الذاتية لما استطاع الفقهاء أن يحققوا عبر العصور تلك الإنجازات الهائلة.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٣٤.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٧.
(٣) سورة النساء، آية: ١٣٥.
(٤) سورة المائدة، آية: ٨.

٧- التطلعات السامية

أوَ تدري لماذا يخفق البعض في اكتشاف الحقائق المجهولة بما يعرفها من أدلة، بينما يلتقط الآخرون حتى الإشارات الخفية، ويتوقفون على الحقائق من وراء حجب الغيب بما أوتوا من نور التوسم وبصيرة العبرة؟. ولماذا أكثر الناس يعيشون في سجن التقليد، بينما البعض فقط ينطلق في آفاق الإبداع والتجديد؟.

هناك عوامل شتى، ولكن أبرزها إثنان:

الأول: إن العقل الكبير يتطلب قلبًا كبيرًا، وأصحاب القلوب الصغيرة يفشلون في وعي الحقائق الكبيرة، ذلك إن القلب إذا اتسع تسامى فوق الحقائق، فبصر بها من المواقع العالية؛ إنه قلب طموح متطلع هميم، ذو أجنحة واسعة، ترفرف هنا وهناك، يستشرف على كل سهل وجبل، يتسع لاستيعاب الحقائق جميعًا، لا ينكر بعضها، ولا يرى تناقضًا بينها، لا يصطدم إذا سمع منها ما كان يجهله، ولا يشبع من كثرتها، ولا يسأم من تنوعها، يقرِّب البعيد منها بنفاذ البصيرة، ويطّلع من فوق حاجز الزمن؛ فالماضي عبرة، والمستقبل هدف، والحاضر وسيلة.

وشوق الإنسان إلى العلم أشد من شوقه إلى أية حاجة أخرى، ولكن أكثر الناس يدسون هذا الشوق الملتهب في ركام اليأس والإحباط، وإنما أولو الالباب، وذوو القلوب الكبيرة هم وحدهم الواثقون من قدرتهم على اقتناص طير المعرفة، ولو تحلق فوق القمم الشامخة.

كلا؛ لا تكفي الحاجة سببًا للإختراع كما قالوا: «الحاجة أم الاختراع». فإن للإختراع أبًا أكرم من الحاجة، وهو التطلع والتحدي، وإلاّ فإن الأغنام كن يخترعن الدروع قبل البشر، لأنهن بحاجة أشد إلى الدفاع أمام شراسة الإنسان. وكما المخترعات الهامة، كذلك الإكتشاف والإبداع، لن يتم من دون الثقة والتحدي.

الثاني: أنّ أصحاب القلوب الكبيرة والأهداف البعيدة والبصائر المتحررة، إنهم يبلغون الحقائق الكبيرة التي هي بمثابة أشجار باسقة تتفرع منها سائر المعارف. إنهم يصلون إلى أصول العلم، والقواعد العامة فيه، والتي يسميها البعض بالحكمة العالية، والتي تهتم بها الفلسفة. أما حسب تعبير الكتاب والسنة، فهي السنن الإلهية في الخليقة، وكذلك يسهل عليهم ربط الحقائق ببعضها في دائرة تلك السنن، كما يسهل عليهم انتزاع حكم الفروع من الأصول لوعيهم الشديد بها وبأبعادها.

وهكذا كانت الهمة العالية شرفًا عظيمًا، لأنها تفرز سائر أسباب الشرف، ومن أبرزها العلم.

وفي المعاهد الدينية يسعى الفقهاء لبعث الطلبة نحو التطلعات السامية، لكي لا تستبد بهم الإهتمامات الصغيرة أو الموضوعات التافهة، فتتجمد روح الإبداع والكشف عندهم على ثلوج القنوط واليأس.

٨- السلامة في البدن

ألا تعجب من حال الإنسان يهمل أقرب الأشياء إلى نفسه، وهو جسده، ويشتغل بغيره؟.

وسواءً الجامعات الحديثة، أو المعاهد الدينية تفتقر إلى دروس متكاملة في شؤون الجسم وحاجاته، والأخطار المحتملة، وأساليب المحافظة على سلامته، وتنمية قواه المختلفة.

صحيح إن أغلب التعاليم الدينية تنفع بدن الإنسان، بذات النسبة التي تنفع روحه، وإن من يتبعها بإخلاص يتمتع بجسم سليم وقوي، إلاّ أن طليعة الأمة وقيادتها المستقبلية ينبغي أن يهتموا جديًا بهذا الجانب، لأنهم بدورهم مكلَّفون بذلك. ولعل الأمور التالية تصلح أمثلة لطريقة إهتمام المعاهد الدينية بذلك:

أولًا: التركيز على الصحة الوقائية. فمنذ قبول الطالب يجب الإنتباه إلى حالته الصحية ألا يكون ذا عاهة مستديمة أو مرض مُسْرٍ. وفي ظروف السكن الجماعية، تزداد أهمية المراقبة الصحية، وعزل المريض عن سائر المتواجدين، والإسراع إلى معالجته، وفصل كل ما ينقل المرض من أدوات الطعام والثياب والفرش.

وينبغي الإهتمام الجدي بالنظافة في كل مكان، وتعليم الطلبة على ضرورة مراعاة النظافة فيما يتصل بأبدانهم أو أمتعتهم أو ما أشبه.

وإذا كان الطعام للجميع فلابد من مراقبة نوعيته، كأن يكون جامعًا تتوفر فيه حاجات الجسم من البروتينات والنشويات والفيتامينات وما أشبه، باشراف خبير في التغذية؛ كما ينبغي الإهتمام الجدي بنظافته ونظافة القائمين عليه.

ثانيًا: لابد من تخصيص كتب نافعة للدراسة الطبية تهتم بشرح وظائف الأعضاء، وأسباب الأمراض، وكيفية الوقاية منها، وطرق المعالجة الأولية والإسعافات الأولية.. وأيضًا تخصيص كتب بالتغذية السليمة، وبأفضل السبل في مراجعة الأطباء والمراكز الصحية واستخدام الأدوية، منذ الإحساس بالألم وحتى الإنتظام بالمراجعة واستخدام الأدوية.

إن الحس الصحي كما الحس الأمني يطيل -بإذن الله- عمر كثيرمن الناس، بينما الجهل أو التجاهل يسبب قصر العمر وشدة المعاناة.

ثالثًا: تشجيع الرياضة، وبالذات الرياضة المتعددة الفوائد، كالسباحة، والتمشي، وتسلق الجبال، وركوب الخيل، والتمارين الدفاعية.

إن رجال الفكر تزداد حاجة أجسادهم إلى ألوان من الرياضة، لأن الأعمال الفكرية لا تبعثهم نحو الجهد البدني، فتزداد أخطار الترهل عندهم.

تفصيل البرامج

كلمات في البدء

كثافة البرامج وعمقها تتطلب الاستعانة بعد الله بثلاثة مناهج:

أولًا: منهج التثقيف الذاتي، الذي سبق الحديث عنه. فبالمطالعة المستمرة والمركزة، وبالكتابة والبحث والتأليف، وبالتدبر والتأمل، والمباحثة والمناظرة، وبالمؤتمرات وبالمسابقات، والتنافس وتشجيع الكفاءات الموهوبة.. بكل ذلك نبلغ مستوى متقدمًا من التثقيف الذاتي يجعل المعلم قادرًا على طي مراحل التعليم بالسرعة القصوى.

ثانيًا: منهج التخصص، حيث ينبغي أن يختار طالب العلم في وقت مبكر اتجاهه المناسب؛ قائدًا مجاهدًا، أو عالمًا مجتهدًا، أو مفكرًا منظِّرًا، أو عالمًا عاملًا في منطقته أو في مؤسسة، أو خطيبًا مؤلفًا، أو إعلاميًا مبلِّغًا.. وعليه أن يتجه إلى حيث تخصصه سريعًا، بلا تردد، أو ضياع وقت، أو الخضوع لدعاية المرجفين، أو ضغوط الدهماء والسذج من الناس.

ثالثًا: متابعة الدراسة المنزلية الميدانية بعد التخرج، بحيث يحمل البرامج المعينة ويطبقها على نفسه، سواء بالمطالعة أو إستماع الدروس المسجلة أو

المناظرة والمباحثة مع الأقران.. أو حتى الاستفادة من مراكز التعليم المتوفرة بعد تحديد ما ينبغي له أن يستوعبه من دروس بدقة متناهية.

الدروس الأصلية

الفقه ومقدماته من اللغة العربية وقواعدها الصرفية والنحوية والبلاغية،والنطق، والأُصول، دروس أصلية في المعاهد الدينية، ولا يمكن أن نتجاوزها بحال، بل يمكن أن نطورها حسب القيم والمعايير التي سبق منا الحديث عنها آنفًا.

ألف: اللغة العربية

أنّى كانت لغة طالب العلم الديني، فإن عليه أن يتعلم العربية التي نزلت بها الشريعة كتابًا وسنة وتاريخًا وحضارة. كما ينبغي أن تكون لغة الدراسة والتحدث والمطالعة في المعاهد الدينية هي لغة القرآن، ليكون الطالب أقرب إلى لمس معانيها، والإستجابة لإشاراتها. وهكذا تُخصص -في البدء- مرحلة لتعليم اللغة بأفضل السبل العلمية الحديثة وممارستها بصورة عملية.

باء: قواعد اللغة

والقواعد الصرفية والنحوية والبلاغية، تخدم متن اللغة، ولا يجوز فصلها عنها أو عن بعضها. كذلك يجب أن تتم دراستها من خلال المحاورة والكتابة والممارسة الحية، لكي تبقى راسخة في الذهن، ولكي لا تُفصل القواعد عن روحها، وعن الأهداف التي وضعت من أجلها، وهي المزيد من وضوح اللغة، ووفائها بمعانيها اللطيفة. أما أن ندرس الفاعل والمفعول والمصدر وإسم المصدر والصفة المشَّبهة وصفة المبالغة وما أشبه، دون أن نعرف ماذا تهدف معرفة كل هذه الأسماء، فإنها مضيعة للوقت، ولا تنفعنا عند التطبيق شيئًا، بل قد تعقِّد فهمنا للعربية وإحساسنا بروعتها ولطائف إشاراتها.

وهكذا ينبغي أن يكون مدِّرس العربية أديبًا، ويعلِّم فن الأدب، ومن خلاله

يعرِّف الطالب بالقواعد جميعًا.

وبهذا الأسلوب البديع تتهيأ ذهنية الطالب لفهم أعمق للفقه والتفسير والحديث.

جيم: المنطق

والمنطق عند المسلمين الأقدمين كان ملحقًا بالعربية، لأن العرب وضعوا قواعد لغتهم قوالب لقوام فكرهم، وحتى أرسطو الذي وضع منطقه لمقاومة جدليات المشككين السوفسطائيين، إهتم باللغة، وما أسماه بالتعاريف. وعلينا أن نعرف أن المنطق الإسلامي الأصيل النابع من الكتاب والسنة يفوق منطق أرسطو وقوالبه الجامدة، وعلينا دراسته والإشارة إلى منطق أرسطو وغيره ممن تحدث حول هذا الفن، وسوف نعود للحديث عن المنطق إن شاء الله.

دال: الأصول

ودراسة الأصول تتصل من جهة بالمنطق، ومن جهة أخرى بالفقه. فهي جسر شيده الأقدمون بين العلوم المختلفة وبين الفقه، على أن فيه أيضًا بعض الأفكار الخاصة به.

وأهم ما يحتاجه الطالب عند دراسة الأصول معرفته بفائدته، من خلال حشر هائل من الأمثلة الفقهية في كل باب، وإلا كان مثله مثل قواعد اللغة لو عرفها الشخص من دون معرفة اللغة نفسها.

وفي عموم الدروس التقليدية، يقوم الأستاذ بجهد مضاعف، ليحمل الطالب من أجواء عصره إلى أجواء العصور الماضية، حتى يتجاوب ولغتهم وأفكارهم.

هاء: الفقه

ولدراسة الفقه مرحلتان، أوَ تدري كيف؟.

لأن الطالب ملتزم بالشريعة ولابد أن يعرفها لتطبيقها على نفسه أو من يسأله

عنها، ثم إنه يدرس في علم الشريعة فلابد أن يعرفها حتى يتدرج في مراحل علم الشريعة، إذًا لابد أن نقسم دراسة الفقه إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة إبتدائية هدفها دراسة دورة فقهية يحتاجها الطالب، من خلال تدريسه الكتاب الذي يعتمده الفقيه الذي يرجع إليه في تقليده، وفي هذه المرحلة ينبغي أن نهتم بأمور:

أولًا: التركيز على المسائل التي يحتاجها الناس، وليس الفرضيات والجدليات والمسائل التي لا يبتلي بها الناس إلا نادرًا.

ثانيًا: الدراسة الميدانية، التي تجعل الفقه محورًا لحركة فعلية؛ فالطهارة تدرس من خلال تعريف أعيان الأشياء الطاهرة أو النجسة بقاموس مصور، كذلك تعريف الوضوء والتيمم وشروطهما بصورة عملية.

وينبغي أن تتم لطلبة الفقه زيارات إلى مراكز التطبيق؛ مثلًا المغتسل والمقابر لدراسة كيفية غسل الميت وتكفينه ودفنه، والسوق والمتاجر لمعرفة مسائل الناس العملية، والمحاكم والقضاء لمعرفة طريقة الشهادة والحكم والحدود.

وعلى الأستاذ وإدارة المؤسسات التعليمية، توفير الأجواء المناسبة لتعلّم الفقه العملي بكل وسيلة ممكنة، لأنه يساهم في تعميق فهم الدين، ونضج الطالب، وحيوية الدرس.

ثالثًا: دراسة هذه المرحلة بطريقة تساهم في تسهيل المراحل التالية. فكلما وجد الأستاذ ذهنية متفتحة، ألقى فيها أفكارًا من المرحلة المتقدمة، حتى تتسارع الخطوات إلى الأمام باذن الله تعالى.

المرحلة الثانية:

وفي المرحلة التالية يجب التركيز على وعي الفقه وحفظ مسائله ونصوصه،

ومتابعة الدراسة الميدانية، بالإضافة إلى أمور أخرى.

أولًا: لكي نجعل الدرس حيويًا لابد أن نجعل الطالب يساهم فيه ويرى نفسه جزءًا منه، وذلك بتكليفه بكتابة الموضوع، والبحث عن نقطة غامضة فيه، وإلقائه.

ثانيًا: لابد أن نعرف أن الفقه حدود الشريعة الغراء، أما روح الشريعة فهي تلك البينات والزبر، الهدى والبصائر، التي تزخر بها الشريعة؛ ومعرفة الحدود بلا إلتفات إلى ما تحافظ عليها تلك الحدود، لا تنفع. فالصلاة تزكية من الكبر، والزكاة تطهير من البخل، والصوم معراج إلى التقوى.. وتدريس أحكام الصلاة بلا إشارة إلى الكبر، أو تعليم الزكاة من دون بيان أهمية الإيثار، أو الصوم من دون الحديث عن فضيلة التقوى.. تحوِّل الشريعة إلى قشور فارغة.

وأعظم رزايا المسلمين هو تفريغ الدين من محتوياته، ودراسة الشريعة -كما لو كانت قانونًا وضعيًا دراسة حرفية، وتفكيك أوصال الشريعة عن بعضها كما لو كنا علماء تشريح.. فهناك العقائد بلا دراسة الجهاد من أجلها، وهنا الفقه بلا روح التوحيد وأخلاقياته التي هي محتواه، وثمة تاريخ بلا أهداف محددة كإقامة حكم الله.

إن هذه الذهنية التجزيئية جعلتنا نتعايش مع دروس ميتة، وأفكار خامدة، ورجال كالأصنام، وتأريخ كتاريخ الحفريات.

تعالوا نعود إلى روح الدين، نعيش حول الروافد الفقهية بعد ربطها بينبوع التوحيد والأخلاق الإلهية؛ ندرس التأريخ بصفته تجسيدًا حيًا للصراع الأبدي بين الكفر والإيمان، وبين خط الإستكبار وخط الرسالة.

ومرة آخرى يبرز هنا دور المدِّرس الذي يحول قاعة الدرس إلى محراب العبادة، ويحمل الطليعة إلى آفاق التوحيد، وإلى قلب معارك الربانيين ضد المستكبرين والطغاة.. كل ذلك من خلال دروس تقليدية كالفقه والتأريخ وما أشبه.

ثالثًا: باعتبار هذه المرحلة ليست للتطبيق، بل للفهم والعلم، فلابد أن يمهد الأستاذ الطريق نحو إستنباط الأحكام من مصادرها الأصلية، فعليه أن يطور ذهنية النقد عند الطالب، ولا يقمع أفكاره وأسئلته بما يشاع عادة عند البعض من قولهم: اسكت، لا يجوز لك أن تناقش الكبار، أو نحن لا نتجاوز حدود الكتاب.

كلا؛ الكتاب الذي يُدَرس أنى كان عظيمًا، ليس إلا أداة للدراسة، وذريعة لمعرفة العلم، وإنه ليس هدفًا بذاته. وهكذا يكون الأستاذ مكلفًا بالإعداد للدرس، بحيث يستثير قوة البحث والنقد عند الطالب.

الدروس الرسالية

وهي الدروس التي تقتضيها الظروف المستجدة في العالم الإسلامي والتي توصل إليها الخط الرسالي، وهي تقسم مبدئيًا إلى ثلاثة:

بصائر الرسالة، والفكر الرسالي، والثقافة الرسالية.

ألف: بصائر الرسالة

وهي دراسة روح الدين، وجوهر الشريعة، ولباب الإسلام، وهي تُستوحى من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

القرآن الكريم

سبق الحديث بشكل مفصل في كتاب (بحوث في القرآن الحكيم) عن نهج التدبر في القرآن، ومدى ضرورة خرق الحجب الشيطانية التي تفصل القلب عن خطاب الرب، وذلك عبر التدبر المباشر في آيات الذكر، ولكننا نشير هنا إلى عدة بصائر:

أولًا: لابد من تشجيع الحفظ في المعاهد الدينية، وإعطاء درجات أعلى لمن يحفظ سورًا كاملة من هذا السفر العظيم، وإيجاد مسابقات للحافظين.

ثانيًا: ينبغي أن يتخذ الأستاذ من دروس التدبر وسيلة لتنمية حوافز الخير عند الطالب، وتزكية نفسه، وإذكاء أوار عقله، وتوسيع نطاق إدراكه، وتركيز شتات ثقافته الحياتية.

ثالثًا: جعل الطالب يساهم في الدرس، ليس بتدبراته الناضجة فقط، وإنما أيضًا بالكتابة عن ذلك والإلقاء فيه. وبكلمة؛ ينبغي أن يتصدى لدرس التدبر أفضل العلماء في الحوزات، لجعل القرآن محورًا لشخصية الطالب، ومحورًا لثقافته، ومحورًا لجهاده، ومحورًا لحياته.

السنة الشريفة

ومعروف أن السنة هي النمير العذب الذي فاض من نبع الوحي، إنه شعاع من القرآن تجلى في نفس الأبرار.. إنه الرافد الأصفى الذي إنبعث من ينبوع الكتاب.

ومن بين السنة غرر الكلام، وجوامع النور، وضياء الأمر، التي جمعتها النصوص التالية:

١- تحف العقول

وفيها غرر وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

٢- نهج البلاغة.

وهو معراج الروح إلى الله، ونهج التقوى والجهاد، وسبيل الوعي السليم للتأريخ وللحياة.

٣- الأدعية المأثورة.

وهي زبور الأمة المرحومة، وكنوز المعارف الإلهية، ومخازن علم التوحيد..

وفي رحاب السنة الشريفة ينبغي التعرف على منهج الإستنارة بها والتزود من

نميرها، كذلك المنهج الذي ألفناه عند التدبرفي القرآن الكريم، وذكرنا به آنفًا.

وينبغي إتخاذ سبيل وسط بين تطرفين: بين من يقرأ السنة كقطعة أثرية لا تتصل بالحياة اليومية، وبين من يتخذ من السنة مطية لأفكاره، بل أهوائه، وإنما يذكرها غطاء لما أعده سلفًا.

والسبيل الوسط هو قراءة الواقع الراهن في ضوء السنة، وقراءة السنة للتعرف على الواقع. فالسنة هي المحور، وإنما الواقع مجال تطبيقها، ودائرة إشعاعها.

باء: الفكرالرسالي

والفكر الرسالي يعني ما رأيناه صالحًا للظروف الراهنة، إقتباسًا من تفسير بصائر الوحي، وهو ينقسم إلى مراحل متدرجة:

أولًا: الفكر الإسلامي

وهذا يتم بمقارنة موجزة، ولكن شاملة، بين أصول الفكر الإسلامي وبين المذاهب البشرية؛ إبتداء من نظرياتهم في المعرفة، ومرورًا بفلسفتهم في الميتافيزيقيا، وعقائدهم في الحقول الدينية المختلفة، وانتهاء بفلسفاتهم الإجتماعية.

ودراسة هذا الجانب، إذا تمت بصورة جيدة، تصلح أرضية ذهنية لمقارنة الأفكار الإسلامية بما يخالفها من التصورات البشرية في سائر الحقول الفلسفية.

ثانيًا: المنطق الإسلامي

ويأتي كتاب (المنطق الإسلامي) مكملًا للفكر الإسلامي، ويهدف أمرين:

أولًا: مقارنة المنهج الإسلامي في اجتناب الخطأ وكيفية حصول المعرفة، ومقارنته بالمناهج الوضعية، إبتداء من منهج أرسطو وانتهاء بالمناهج الحديثة (بيكون، كانت، ديكارت)، وغيرهم.

وفي هذا السبيل نتبين الخطوط العريضة للمنهج الإسلامي في المنطق، وننقد نقدًا بناءًا سائر المناهج لنستفيد ما صلح منها حسب المعيار العقلي أو الديني.

ثانيًا: تكوين أرضية لنقد سائر العلوم الحديثة حسب المعيار الإسلامي، نقدًا يتناول أساس هذه العلوم والبنى التحتية لها، وهو منهج التفكير.

والواقع إن الحضارة الحديثة ذات جانب سلبي وآخر إيجابي، ولا يمكن الوصول إلى معيار ثابت يميز الجانبين عن بعضهما إلا بدراسة الركائز الأصلية فيها.

ثالثًا: العرفان الإسلامي

وهذا الجانب يتخصص في طائفة من النظريات الفلسفية التي راجت مؤخرًا في الحوزات العلمية، مما فرض التصدي لها، وبالذات في مجال العرفان المستورد من المصادر الغربية. ودراسة هذا الجانب- في المراحل المتقدمة- يعطي رؤية تجاه نظريات كثيرة، أبرزها نظرية الفيض التي قامت عليها جملة أفكار العرفاء.

وكلمة أخيرة؛ إن دراسة هذه الجوانب الثلاث تمهد للتخصص في أحد فروع الثقافة الإسلامية المقارنة.

جيم: الثقافة الرسالية

وفي الثقافة دروس متسلسلة سنذكرها بإذن الله تباعًا، إلا أنها من أشد الموضوعات حاجة إلى الأستاذ الملهم الذي يقدر وضع الطلبة، ومدى استيعابهم، ويسعى نحو توعيتهم أكثر مما يهدف تعليمهم مفاهيم مجردة.

أوَليست كلمة الثقافة تعني الأفكار المؤثرة في السلوك؟ وكيف يمكن تحديد هذه النوعية من الأفكار، من دون معرفة طبيعة كل شخص، ومدى الإنحراف في سلوكه؟.

ثم إن أهم وأبرز الرؤى الثقافية تتم دراستها في السنة الأولى، حيث لا تزال

همة الطالب عالية وانضباطه جيدًا، ويعتمد ذلك إعتمادًا كبيرًا على التثقيف الذاتي تحت إشراف العديد من الموجهين.

ومراحل التثقيف هي التالية:

أولًا: برنامج الثقافة

وهي سلسلة الكتابات المنتخبة من مصادر شتى، وهي خلاصة أفكار جاهزة يستفيد منها الطالب في تحدي الأفكار الغريبة.

ثانيًا: التأريخ

والرؤية إلى التأريخ وسرد قصصه بهدف الإعتبار، تعطي الأفراد بصائر نافذة، خصوصًا دراسة تاريخنا الإسلامي، وموجز عن تاريخ الأمم.

ثالثًا: السياسة

ودراسة الأوضاع السياسية وإعطاء الرؤى الرسالية تجاهها، تشكل حجر الزاوية في صياغة الشخصية الرسالية اليوم، وهي تتصل إتصالًا وثيقًا بالثقافة والتاريخ.

رابعًا: فقه الحركة

حيث إن دراسة الأوضاع السياسية والإجتماعية للأمم لا تعني شيئًا لو لم تقارن بفقه الحركة الرسالية، وكيفية معالجة الظروف الصعبة، وطبيعة الأساليب الماكرة التي يستخدمها المستكبرون في مواجهة الحركة الإسلامية.

التخصص للمستقبل الأفضل

كان الشيخ بهاء الدين العاملي من نوابغ علمائنا عبر التأريخ، وكان يكرر كلمته المعروفة: «ماغلبت ذا فن، وما غلبني ذو فنون». وهكذا أشار إلى أهمية التخصص

في العلوم الدينية، ولكن الغرب قد فاقنا بالتخصص، لأنه تفوق علينا في إيجاد نظام لتعاون المتخصصين. وبالرغم من أننا لا زلنا في باكورة الأمر، إلاّ أننا نحلم بتجاوز العقبات بالتوكل على الله.

ومجالات التخصص في الحوزات شتى، ولكن أبرزها التالية:

أولًا: القائد الرباني

لأن القائد الرباني أعظم شخصية تهدف المعاهد الدينية إكتشافه ومساعدته للبروز، فإن على الإدارة الرشيدة البحث عنه، وتوفير فرص النمو أمامه بأية وسيلة، ولعل المعهد الإداري واحد من الوسائل المناسبة لذلك.

في هذا المعهد يُستفاد من العلوم الإدارية والنفسية والاجتماعية، كما يتركز البحث حول مناهج الإسلام في القيادة وشروطها.

ثانيًا: المفكِّر المنظِّر

والعقول الكبيرة والنفوس الملهمة يغنون بإبداعاتهم الفكر الإسلامي، خصوصًا اليوم حيث يحتاج العالم الإسلامي إلى المزيد من الأفكار الشابة التي تتحدى النظرات الشاذة.

والمعهد الذي يتخرج منه هؤلاء المفكرون، يشبه مراكز الدراسات، حيث يختص كل فرد أو مجموعة أفراد بموضوع، ويوفر لهم كافة الوسائل المتاحة لتكميل مهمتهم.

ثالثًا: المبلِّغ الصالح

ولأن المنبر الحسيني أحد أهم الوسائل الدينية لنشر الفضيلة، فإن تربية الخطباء ذات أهمية قصوى، وإن التطوير في هذا المرفق لا يتم إلا عبر معهد

متخصص في كل الأبعاد الثلاث التي يعتمد عليها المنبر، وهي:

بُعد المأساة وإثارة العواطف بصورة صحيحة، وبعيدة عن الأخبار الضعيفة، والأفكار المثبطة، والتفسيرات الخاطئة.

وبُعد الجذب والأناقة والنجاح في الأداء ببلاغة أخاذة وأسلوب بديع.

بُعد الموضوع المثير والمناسب للظروف. وهذا أعظم الأبعاد، لأن الخطباء الرساليين لا يمكنهم بسهولة إختيار الموضوعات المفيدة بصورة تتناسب والمنبر الحسيني، حيث الطابع الجماهيري والطابع الديني، وحيث تقتضي ضرورات التقية -الحديث بالكناية ـ التي تكون أبلغ من التصريح.

كلمات الختام

ونختم الحديث عن المعاهد الدينية (بيوت الذكر) بكلمات عن البيئة المميزة التي تجعل هذه البيوت تعبق بشذى الإيمان، وتدعوك إلى التقوى والتبتل، وإلى الهدى والعرفان، وإلى الجهاد والإجتهاد.. قبل الحروف والكلمات.

أوَ تدري ما سرّ ذلك العبق الإلهي الذي جعل مجالس العلماء روضة من رياض الجنة؟.

تعال نكتشف معًا هذا السرّ:

أولًا: القدوات الصالحة

أوَ لم يذكِّرنا الحديث المأثور عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام بهذه الحقيقة: «**مَعَاشِرَ الشِّيعَةِ؛ كُونُوا لَنَا زَيْناً، وَلَا تَكُونُوا عَلَيْنَا شَيْناً، قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً، وَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَكُفُّوهَا عَنِ الْفُضُولِ، وَقُبْحِ الْقَوْلِ**»[1].

أوَ لم يأمرنا الإسلام على لسان الإمام الصادق عليه السلام بالبحث عن القدوات

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص١٥١.

والالتفاف حولهم؟.

جاء في الحديث عن الحسين بن المختار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «جُعِلْتُ فِدَاكَ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ﴾[1]. قَالَ عليه السلام: **كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ إِمَامٌ وَلَيْسَ بِإِمَامٍ**. قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ فَاطِمِيًّا عَلَوِيًّا؟. قَالَ عليه السلام: **وَإِنْ كَانَ فَاطِمِيًّا عَلَوِيًّا**»[2].

بلى؛ أعظم من الدرس في هذه البيوت، ذلك العالم الرباني الذي يفيض إيمانه عليك قبل أن يرفدك نورعلمه، ويتجلى نور فضائله قبل أن تصدعك كلمات عظته.

وحتى في الجانب العلمي، لا ينتفع الإنسان من حروف الكتاب، بل من إيحاءات المعلم. وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خُذُوا الْعِلْمَ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ**»[3].

وهكذا ينبغي أن نوفر الظروف التي تجعل الربانيين مستعدين للتدريس في هذه المعاهد، وأبرزها حسن إستماع الطلبة، وحسن تلقيهم وإتباعهم.

وينبغي أن يجد المعلم فرصة كافية لإعداد دروسه، فلا يزيد عليهم بما يثقل كاهلهم ويضعف كفاءتهم. كما ينبغي توفير الظروف المادية التي تساعدهم على الإلتزام بالدروس. وينبغي أيضًا تخصيص نسبة أكبر من المعلمين لطلاب أقل عددًا، ليكون التلقي المباشر وفرص السؤال والتوجيه أسهل وأفضل.

وهكذا مؤتمرات المعلمين والأساتذة ذات أهمية لتناول البحوث المسهبة في طرق التوجيه والتعليم.

وفي فروع تخصصية محددة ينبغي أن نستقدم من خارج المعاهد من نستعين به في التدريس، ولو بقدر محدود.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٢) الكافي، ج١، ص٣٧٢.

(٣) عوالي اللآلي، ج٤، ص٧٧.

ثانيًا: التقوى والإلتزام

إذا دخلتَ بيتًا من بيوت الذكر، فاستقبلتك الأناقة والنظافة، وجذبتك لوحات رسمت عليها كلمات قرآنية أو نصوص دينية بجمال رائع، وغمرك الهدوء والسكينة، وكان الرجال في غاية الأدب والدماثة، وفي منتهى الوقار والهيبة..

وعندما رفع أذان الصلاة هرعوا إلى صفوف الجماعة، ووقفوا في خشوع ونظم يرتلون آيات الله، وإذا انتهت الفرائض قاموا يتنصلون، ودوى في رحاب الموقع صوت الدعاء كدوي النحل.

وإذا جن عليهم الليل، ومضى أكثره، قاموا إلى صلواتهم بخشوع. وإذا جلسوا حلقًا حول أستاذهم الذي لا يفصله عنهم سوى الهيبة الروحية، رأيتهم ينصتون إليه وكأن على رؤوسهم الطير.

وإذا مد سماط الطعام سموا قبل أن تمد إليه أيديهم، ولهجت ألسنتهم بشكر الله وذكره، ثم أكلوا بقدر حاجتهم، وقاموا إلى أعمالهم سراعًا.. وإذا دخلتَ مساكنهم رأيت النظافة والأناقة والنظام.. إذا التقوا فاض البُشر من أساريرهم، لأنهم أحبوا بعضهم في الله، وإذا تمازحوا لم يخرجوا عن أدب الحديث، وفي المناسبات الدينية توغلوا في إحيائها بما ورد فيها.

أقول: إذا دخلت في مثل هذه البيوت ألا تحس بأنك قد دخلت روضة من رياض الجنة، وأن هناك فرصة حقيقية عليك التمتع بها؟.

نسأل الله أن يرزقنا أبدًا مثل هذه الفرص، وأن يسعدنا بها، ويجعلها ذخرًا لنا عند لقاء ربنا، إنه سميع الدعاء.

الفصل الأوّل: منطلقات المعهد الإسلاميّ

- المَعْهَدُ الإسلاميُّ مُنْطَلَقُ الحَضارَةِ
- دَوْرُ العِلْمِ في البِناءِ الحَضارِيِّ
- تَكامُلِيَّةُ العِلْمِ وَالدِّيْنِ
- الهُدى في طَلَبِ العِلْمِ
- عُلَماءُ الدِّيْنِ رُسُلُ الحَضارَةِ
- العُلَماءُ وَرَثَةُ الأنْبِياءِ
- إنَّهُمْ أَنْصارُ اللهِ

المعهد الإسلامي منطلق الحضارة

للحضارة الإسلامية خصائصها وقنواتها، وبالتالي فإننا لابد أن نتعرف عليها من خلال هذه الخصائص والقنوات؛ فلا يمكننا أن نجزّىء حضارة الإسلام التي قامت على أساس رسالات الله تعالى فنأخذ منها بعضًا ونترك البعض الآخر، أو نلتزم بمحتواها دون الحدود، كما لا يمكن أن نعكس الأمر فنتمسك بالظواهر دون المحتويات.

أبرز خصائص الحضارة الإسلامية

ومن أبرز خصائص الحضارة الإسلامية هي هذه الحوزات العلمية التي لا أدعي أنها التطبيق الوحيد لتعاليم الإسلام، وبالتالي فإننا لسنا ممن ينسب الكفر إلى المعاهد العلمية والجامعات، ويعتقد أن الطريق الوحيد إلى الإسلام والافتراض الوحيد لاحتواء تعاليمه ما يوجد فى الحوزات.

كلا؛ فليس من مذهبنا التكفير وإتهام الناس بالنفاق بمجرد أن يخالفوا آراءنا أو سلوكنا وطرقنا. فالإسلام دين السماحة، ولا يجوز لنا أن نحلِّل ونحرِّم حسب أهوائنا. فمن أعظم الذنوب أن ننسب حكمًا إلى الله تعالى، ونفتري عليه ما لم ينزل به سلطانًا.

ومع ذلك فإن ما نستوحيه من مجمل تعاليم الإسلام، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل البيت عليهم السلام، هو أن الحوزات العلمية تمثل الوعاء الأفضل لتلك التعاليم والتطبيق الأنسب لها. ونحن لا ندعي أنها معصومة عن الخطأ والنقص، وأنها قد بلغت الكمال المطلق، لأنها على أية حال تمثل إرادة الإنسان، والإنسان مهما كان، وباستثناء من عصمه الله، لابد أن يكون فيه النقص، وتصدر منه بعض الأخطاء.

وإذا أردنا أن نجدد حضارة الإسلام فلابد من أن نهتم بهذه الحوزات، ونستمد منها القوة والتوجيهات والتعاليم لحياتنا، هذه التعاليم التي استطاعت الحوزات عبرها المحافظة على جوهر الإسلام وروحه خلال تلك الانعطافات التي كانت في مسيرة المسلمين على امتداد أكثر من ألف عام. ففي خلال تلك التطورات الهائلة التي حدثت عند المسلمين، والإنحرافات التي غزت أدمغتهم، كانت الحوزات العلمية تتحدى وتقاوم وتبلور النظرية الإسلامية الصحيحة، وبالتالي فإنها كانت تحافظ على جوهر الإسلام.

في مواجهة التيارات المنحرفة

وعلى سبيل المثال فمنذ أكثر من ألف عام غزت البلاد الإسلامية التيارات الفكرية والفلسفية الغريبة، سواء من غرب العالم أم شرقه؛ فمن الغرب زحفت تيارات يونانية وأفكار فلسفية إغريقية التي سبقت وأن أدخلت في الديانتين اليهودية والنصرانية أفكار الشرك من مثل الأقانيم الثلاثة في النصرانية، ونقصد هنا بالطبع النصرانية التي يتبرأ منها المسيح عليه السلام، وكذلك -بالنسبة إلى اليهودية- فكرة الجحود، وأن يد الله تعالى مغلولة، وأن عزيرًا ابن الله.

ومن الشرق إنطلاقًا من الهند والصين وايران تسللت إلى المسلمين أفكار غريبة هي الأخرى مثل فكرة التصوف والإشراق، رغم أن هذه الفكرة دخلت أيضًا

اليونان فأثرت في فلسفة افلاطون، لأن الشرق والغرب؛ أي الامبراطورية الرومانية واليونانية قبلها، والامبراطورية الفارسية كانت تتفاعل مع بعضها، سواء كان هذا التفاعل عنيفًا من خلال الحروب التي كانت تحدث بينها، أم هادئًا من خلال تبادل البعثات والوفود العلمية، وبالتالي فإن تلك الحضارات إختلطت ببعضها، وتفاعلت فيما بينها.

وهنا يطرح التساؤل التالي: ترى من الذي تولى مهمة المحافظة على الإسلام إزاء تلك التيارات الفكرية والفلسفية على الأقل بيننا نحن أتباع أهل البيت عليهم السلام؟.

الجواب هو: الحوزات العلمية. إقرؤوا مثلًا كتاب (الكافي) هذا الكتاب العظيم الذي أرى أن من الضروري أن يدرس في الحوزات العلمية، وأن يكون الذي يُدِّرسه مجتهدًا أو قريبًا من الاجتهاد، وعارفًا ببصائر القرآن. عندما تقرؤون هذا الكتاب ستكتشفون أنه إنما أُلِّف -كما يقول مؤلفه[١]- لمقاومة التيارات الدخيلة ومنها الفلسفة اليونانية، وهذا ما يشير إليه الكثير من المؤلفين الذين أرخوا للشيخ الكليني وكتابه (الكافي).

وإذا نظرنا إلى التأريخ الوسيط نرى أن الأفكار الشرقية تسربت مرة أخرى إلى البلاد الإسلامية من مثل التصوف والإشراق اللذين قدما من الهند لتنمو وتتماوج مرة أخرى في بعض البلدان الإسلامية مثل إيران ومصر.. فمن الذي قاوم هذه الأفكار؟.

إنها الحوزات العلمية أيضًا متمثلة في العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، حيث كتب شرحًا على كتاب (الكافي) سمي بـ (مرآة العقول)، ثم ألف الموسوعة الإسلامية العظيمة التي لم نجد لها نظيرًا لحد الآن وهي موسوعة (بحار الأنوار).

ومن تلاميذه الشيخ البحراني، والعلامة نعمة الله الجزائري، وآخرون انكبوا

(١) انظر: الكافي، ج١، ص٥.

على تأليف الكتب حتى يقال إن أحدهم ألف كتابًا يفوق(بحار الأنوار) من ناحية الحجم بعدة أضعاف.

وفي تأريخنا المعاصر أيضًا وقفت وما زالت الحوزات تقف في مواجهة الأفكار التي نفذت إلى بلادنا؛ مرة عبر الغرب من خلال الأفكار المادية، ومرة عبر الشرق متمثلة في الأفكار الماركسية. ومن أبرز من قاموا بهذا الدور في النجف الأشرف جماعة من العلماء يقف في طليعتهم العلامة الشيخ محمد رضا المظفر، وفي كربلاء المقدسة قام بهذا الدور المرجع الديني الراحل السيد محمد الشيرازي، والشهيد آية الله السيد حسن الشيرازي، وآخرون، وفي قم المقدسة تولى هذه المهمة العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، والشهيد آية الله المطهري، وغيرهما ممن لا يزالون يدافعون عن حياض الإسلام.

أولئك العلماء نبعوا جميعًا من هذه الحوزات العلمية، ولذلك لابد أن نعترف بأن هذه الحوزات هي بمثابة الخندق الأمامي الذي دافع من خلاله وعبره الرجال المؤمنون عن الإسلام وقيمه ورسالات الله، ولذلك أصبحت الحوزات بهذا الدفاع الفكري والعلمي المتواصل والحثيث عن الإسلام، المركز الطبيعي لنمو الحضارة الإسلامية في العصر الحديث.

ومرة أخرى نؤكد أننا لا ندعي أنها التطبيق الوحيد، ولا ندعي بأنها الكمال المطلق، ولكنها الأكمل والأنسب حسب ما نستوحيه من الشريعة الإسلامية وتعاليم الدين.

فيا ترى كيف نحافظ على هذه الحوزات، وكيف ننميها، وكيف نبني حضارة الإسلام من خلالها؟.

من أبرز ما ينبغي أن نعرفه أنّ علينا أن نوسعها في الأفق المكاني والجغرافي؛ أي علينا أن ننشرهذه الحوزات في كل بقعة من عالمنا الإسلامي. فلابد أن تتأسس

المعاهد الدينية في أرجاء البلاد الإسلامية وفق تلك القيم الإسلامية التي طبقتها الحوزات العلمية في مراكز إنطلاقها.

وكما أن الغربيين حينما أرادوا بناء حضارتهم جاؤوا أولًا إلى بلادنا فتعلموا منا العلم ثم عادوا إلى بلادهم، فكذلك نحن علينا أن نستفيد من الحضارة الغربية -حسب قيمنا- في بناء حضارتنا. فلابد أن نستفيد من النقاط الايجابية في الحضارة الغربية، وخصوصًا في مجال العلوم والتكنلوجيا.. ولابد من أن نصب هذه النقاط في قالب أوضاعنا وأصالتنا.

وللأسف الشديد فإننا لم نفعل ذلك في عملية أخذنا من الحضارة الغربية، فجامعاتنا لم تحقق ما كنا نصبوا إليه، لأنها قلدت الغرب بشكل كامل، ولأنها لم تتأثر به تأثرًا واعيًا، فأصبحت أداة للتبعية لا نواة لحضارة مستقلة، حتى أن أغلب جامعاتنا تُدار الآن من قبل شركات أجنبية، وإذا حدثت بعض التغييرات في مناهج هذه الجامعات فهي تغيرات سطحية ظاهرية من مثل تعريب هذه المناهج دون تغيير نظامها الغربي؛ فالأسماء والمصطلحات عربية، ولكن السلوك غربي.

صمود رغم التحديات

وإزاء هذا الوضع نرى أن الحوزات العلمية ما زالت محتفظة بأصالتها، ومن هنا يأتي تأكيدنا على ضرورة نشر الحوزات لتناسبها مع أفكارنا وتقاليدنا وتراثنا واستقلالنا، ولكن لابد من أن نضمن إستمرارية المحافظة على هذه التقاليد، فليس من المعقول أن نؤسس حوزة يكون الطلاب فيها حالقين للحاهم، ومرتدين للقبعات، فهذا مما لا يناسب عرف الحوزات العلمية، فلابد لهذه العمائم أن تكون على رؤوسنا لأننا ورثناها من عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل لعلها كانت قبل ذلك فجاء الإسلام ليؤكدها. فالملابس الفضفاضة التي يرتديها طالب العلوم الدينية هي جزء من تقاليدنا، فمن المكروه شرعًا أن يرتدي المسلم ملابس ضيقة تحكي

وتصف الجسم.

وهكذا نرى أن المستحبات والمكروهات روعيت حتى في الملابس، بل وفي تفاصيل أخرى كثيرة. وفي هذا المجال أذكر أنني زرت ذات مرة أحد المساجد القديمة في اصفهان، فلاحظت وجود ممر طويل يؤدي إلى المسجد من الشارع بعد أن يدور الداخل فيه حتى يصل إلى حرم المسجد، فسألت عن سبب بناء هذا الممر على هذه الكيفية، فقيل لي لأن من المكروه الدخول إلى المسجد من جهة قبلته، لأن الناس في حالة صلاة فيه، فبنوا هذا الممر لكي يدخل الداخل من الجهة المخالفة للقبلة.

وهكذا نرى أن المسلمين كانوا دقيقين حتى في هذه الأمور، فلم يكونوا - مثلًا- يضعون نقوشًا لحيوانات وغيرها في المساجد لكراهتها.

وإذا انتقلنا إلى الحوزات العلمية نرى أن من السلوكيات الأصلية لهذه الحوزة ما يسمى بـ(المباحثة) وذلك بأن يتفق طالبان على أن يكون أحدهما أستاذًا للآخر في يوم، وتلميذًا له في يوم آخر. وفي الحقيقة فإن هذه السلوكية تتفق مع منهج التثقيف الذاتي، فعلى الطالب أن يتعلم عدم الاعتماد على الأستاذ في كل شيء، وهو منهج لا نجد له نظيرًا في الجامعات الغربية.

الحوزات العلمية نظام خاص

وحسب تعاليمنا نحن المسلمين وخصوصًا حوزاتنا العلمية إننا لا نسير وفق نظام التوقيت الغربي، بل لدينا نظام خاص بنا. فالعمل يبدًا أساسًا -كما نستوحي ذلك من الإسلام- من الفجر، لا حسب ساعة معينة، ويستمر إلى أبعد وقت ممكن، كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم، آية: ١٧.

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1].

فمثل هذه الآيات القرآنية تدل على الأهمية العظمى التي يوليها الإسلام للوقت؛ فالساعات لا تحدد الإنسان المؤمن، ولا تقيد طالب العلم، ولا تطلب منه أن يدرس ثماني ساعات -مثلًا- ثم يكتفي.

في حين نرى أن النظام الغربي نظام يوقف الأمور عند حد معين، ولا يتيح للطالب الحرية الفردية الكافية، وقد انتبهت الجامعات الغربية إلى ذلك فبدؤوا يدخلون نظام الحرية في الدراسة من خلال نظام (الكورسات) واختيار المواد الدراسية، وعبر الدراسة في المنازل في بعض المناطق. أما المسلمون فقد كانوا يمتلكون هذا النظام في دراستهم منذ القدم، ورغم أنهم لم يكونوا يتمتعون بامكانيات تكنولوجية إلا أن حرية الدراسة كانت مكفولة لهم؛ فالطالب عندما يكون راغبًا في اجتياز المراحل الدراسية حتى التخرج خلال فترة قياسية، فإن الحوزات العلمية لا تمانع في ذلك.

وقد قرأت في أحوال المرحوم آية الله الميرزا محمد حسن الشيرازي، مجدد القرن الماضي، أنه عندما بلغ من العمر اثني عشر عامًا بدأ يدِّرس كتاب (اللمعة الدمشقية)، وهو كتاب يدرس في المراحل المتقدمة من الدراسة. وعلى هذا فإنه ليس هناك سن معين للدراسة في النظام الإسلامي، ولذلك فقد تخرج من الحوزات علماء بلغوا مرحلة الاجتهاد قبل أن يصلوا إلى سن البلوغ، من مثل العالم الفاضل الهندي، وكذلك العلامة الحلي.

وهكذا نرى إن النظام الدراسي في الحوزات هو نظام يشجع على التنافس الحر الايجابي البناء. وهناك مثال آخر، يتمثل في الشيخ شريف العلماء الذي أصبح مرجعًا، في حين أنه لم يبلغ من العمر سوى ثلاثين عامًا وقد بلغ هذه المرحلة بعد

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

سنين من الكد المتواصل والسهر المستمر، لأن النظام يسمح له بأن يتثقف ذاتيًا. ثم إن نظام الحوزة يلغي الفوارق، فكثيرًا ما نرى طلابًا يدرسون عند أشخاص أصغرمنهم سنًا، فالعمر ليس هو المقياس في الحوزات.

لا للقومية في الحوزات العلمية

وكذلك الحال بالنسبة إلى الفوارق القومية فهي أيضًا ملغاة في الحوزات العلمية؛ فهذا عربي يدرس عند إيراني، وذاك أفغاني يدرس اللغة العربية، والمثال الواضح على ذلك العالم الجليل (محمد علي) المعروف بـ (المدرس الأفغاني)، فقد كان من أكبر مدرسي الأدب العربي في النجف الأشرف وقم المقدسة، فلم يكن هناك أحد يقول هذا أفغاني، وذاك إيراني، لأن تعاليم الحوزة مستقاة أساسًا من الإسلام الذي يلغي القومية والاقليمية، لكي لا تكونا مانعًا أمام طلب العلم.

والتثقيف الذاتي لم يكن يتجلى في الدروس التقليدية فحسب، بل في سائر الأمور. فتجد الكتب مكدسة عند كل عالم لولعه في قراءة الكتب، وربما لا تجد عنده ما يشتري به عشاء ليله لكي يوفرما يشتري به الكتب وبأي ثمن.

هكذا كان طلاب العلم عندنا يتنافسون على اقتناء الكتب ومطالعتها ودراستها. ورغم أنه لم تكن آنذاك مطابع تطبع الكتب ولكنك تجد المكتبات مملوءة بالكتب الخطية، لأن ولعهم وحرصهم على مطالعة الكتب وعلى تثقيف أنفسهم بلغا مبلغًا عظيمًا.

الزهد أساس استقلال الحوزات العلمية

ومن الخصائص الأخرى للحوزات العلمية الاستقلال، ويعتبر الزهد من أعمدة الاستقلال، أكد ذلك الإمام علي عليه السلام في قوله: «.. **احْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ**»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٤١١.

وفي هذا المجال يروي لنا التأريخ أن طلبة العلم عندنا كانوا يقرؤون في الليل على ضوء القمر، ورغم أن البلاد الإسلامية كانت تمتلك الأموال الكثيرة، إلا أن طالب العلم كان عزيز النفس، فلم يكن مستعدًا لأن يبيع استقلاله من أجل شهواته، رغم أنه كان بامكانه أن يطرق أبواب السلاطين والأغنياء لشبع حاجاته، وليعيش في ترف ورغد.

وقد كانت بيوت علمائنا بسيطة للغاية، ولقد رأينا بيت المرجع الديني الراحل السيد محمد الشيرازي قدس سره في كربلاء المقدسة فوجدنا أن مساحته لم تكن تتجاوز ستين مترًا، وهكذا كان بيت والده المرجع الديني الميرزا مهدي الشيرازي قدس سره بيتًا صغيرًا، حتى أن الناس اقترحوا عليه أن يبنوا له بيتًا واسعًا لكي يستطيعوا زيارته، ولكنه رفض ذلك.

هكذا كانت حياة علمائنا، ولذلك استطاعوا المحافظة على الإسلام، ولو كانوا يفتشون عن الأكل والشرب والمظاهر لاستطاعوا الحصول على ذلك. لقد كانوا زاهدين في كل شيء؛ في الدنيا وفي الرئاسة.. فكان الناس يلتفون حولهم، ويرونهم تجسيدًا عمليًّا للدين.

نحن بامكاننا أن نؤسس حوزة في أي مكان في العالم، ولكن بشرط أن تتجلى صفة الزهد فيها، وبدون ذلك فإننا لا يمكن أن نعود إلى روح الإسلام وجوهره. وهذا لا يتعارض مطلقًا مع انتشار الحوزات العلمية وتأسيس الحضارة الإسلامية، واتصال الجماهير الإسلامية بهذه الحوزات؛ فهناك طبقة تابعة للدنيا، وأصحاب الدنيا لا يأتون عادة ليتعلموا، بل إن هناك من يدخل الحوزة وهو ينتمي عادة إلى تلك الفئة النقية المخلصة.

المفهوم الصحيح للزهد

وهنا لابد أن نعرف معنى (الزهد)؛ الزهد هو أن لا نملك رغبة في قلوبنا، كأن

يرغب الإنسان في أن يأكل الطعام الفلاني لحبه له، ولكنه يكف عنه رغم ذلك، في حين نرى إنسانًا آخر شبعان لا يرغب في أن يأكل من طعام معين لشبعه، فمثل هذا الإنسان لا ينطلق من (الزهد) في عدم اشتهائه للطعام، بينما ينطلق الأول من هذا المبدأ.

إن الراغب في الدنيا لا تنتهي حاجاته فيها أبدًا، فهو -على سبيل المثال- عندما يشتري عشرين ثوبًا نراه يرغب في أن يشتري المزيد، أما الإنسان الزاهد فهو يشعر أن هذا العدد من الثياب يفيض عن حاجاته، فيزهد بالفائض منها.

فالإنسان الحريص على الحياة يتنافس دائمًا على مظاهر الحياة وزخارفها، فتوجهه متركز أساسًا إلى الدنيا، ومثل هذا الإنسان من الصعب عليه أن يترك الدنيا، ويقطع علاقته بها. أما الذي يفكر في الآخرة دومًا، فنرى أن سلوكه وتصرفاته متوجهة إلى الآخرة ومهيئة لها.

والحال بالنسبة إلى علماء الدين يجب أن يكونوا قمة في الزهد، ويصلوا الذروة في الرغبة عن الدنيا، لأنهم -أساسًا- يدعون الناس إلى الآخرة، ويدعونهم إلى الزهد في الدنيا. فهذا الإنسان العالم الذي تربيه وتخرجه الحوزة العلمية يملك في الحقيقة كل شيء، لأنه يملك القلوب. لذلك ينبغي أن نعمل من أجل نشر الحوزات العلمية بأساليبها الحضارية الإيمانية، وبتقاليدها وقيمها الأصيلة الخاصة بها، لكي تقوم بدورها في بناء الحضارة الإسلامية.

دور العلم في البناء الحضاري

قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

لكي نحرر بلادنا من تسلط الطغاة وإرهابهم وقمعهم وفسادهم، ولكي نحرر مجتمعاتنا من أغلال الجبت وقيود الطغيان، ومن أجل أن نطلق طاقات أمتنا في سبيل البناء والتقدم.. لابدّ أن نعقد العزم الراسخ على أن نحرر أنفسنا أولًا؛ فمن ضلت نفسه في غمرات أهوائه وشهواته، وحُبست في زنزانة أنانيته وكبريائه، لا يمكنه مطلقًا أن يحرر الآخرين.

المفلح من وقاه اللّه

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فالإنسان الذي وقاه الله تعالى من حالة البخل والإنغلاق، وبالتالي حالة

(١) سورة التغابن، آية: ١٦-١٨.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

الأخذ دون العطاء، هو الوحيد الذي سيفلح. أما ذلك الإنسان الذي لم يوق من تلك الحالة، فإنّ زنزانته تلك التي صنعها لنفسه في الدنيا ستستمر معه إلى القبر والى الحشر ثم إلى النار، حيث يزج في مكان ضيق مقرنًا بالأصفاد.

فكل واحد منا مسجون، ومن أهم واجباته انقاذ نفسه من السجن الذي ابتلي به. فالله تعالى يريد أن يجرب قدرتنا وإرادتنا، فإذا استطعنا أن نفك عن أنفسنا حصار السجن، فسوف نحصل على نعم الله الكثيرة. والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

وفي مقدمة هذه النعم، نعمة الإيمان التي حرم أغلب الناس أنفسهم منها، لأنهم غير أحرار.

العلم سبيل تحرير النفس

ويعدّ العلم السبيل الوحيد للخروج من سجن الذات، لأن الجهل هو في حدّ ذاته سجن، والإنسان بفطرته جهول، كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

فحينما أخرج الله تعالى بني آدم من بطون أمهاتهم، أخرجهم وهم لا يعلمون شيئًا، ثم زرع في قلوبهم العقل، ومنحهم الحواس ليكتسبوا العلم بها.

وهكذا فإنك كلّما إستطعت أن تخرج من سجن الجهل، كلما إستطعت الوصول إلى أفق أبعد، كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]، وهذا الأمر موجه إلى النبي ﷺ مع أنه كان أعلم الأولين والآخرين.

وطلاب العلم يسلكون نفس هذا المسلك، ويسيرون في ذات الطريق، ونحن نعلم أن المعلومات التي كان الإنسان في القرن التاسع عشر -مثلًا- يحصل عليها،

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.
(٣) سورة طة، آية: ١١٤.

تعد ضئيلة وضحلة بالقياس إلى المعلومات التي يحصل عليها وهو يعيش في القرن الحادي والعشرين، بسبب التقدم الهائل الذي طرأ على وسائل الإعلام اليوم.

وهكذا نرى أن العلم يسبق الإنسان إلى درجة أن من المشاكل التي ظهرت للإنسان اليوم متابعة نشرات الأخبار.

فمن الصعب عليك بمكان متابعتها كلّها لكثرتها وتشعبها، ولذلك نرى طالب العلم اليوم يقفز على جميع الحواجز التقليدية في دراسة العلم. فالعلم اليوم بلغ أفقًا لا يمكننا أن نصل إلى نهايته.

عدم الإهتمام بالعلم أساس التخلف

إن من أحد أبرز أسباب تخلف المسلمين اليوم عدم إهتمامهم بالعلم؛ الإهتمام اللائق به، في حين أن المسلمين الأوائل كانوا يجدون في طلب العلم تطبيقاً للحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ، فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(١).

ولكن المسلمين اليوم يجهلون حتى تلاوة القرآن الكريم، وينتظرون الآخرين لكي يبينوا لهم كل شيء ويصنعوا لهم ما يحتاجونه.

وبفضل ذلك التقدم استطاع المسلمون الأوائل أن ينتشروا في آفاق الأرض. فمن الخطأ القول إن الإسلام إنتشر بالسيف، في حين أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَوُضِعَتِ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِدَادِ الْعُلَمَاءِ، فَيُرَجَّحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ**»(٢).

فكيف يرجح مداد العالم على دم الشهيد في يوم القيامة، ثم يكتفي المسلمون

---

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج١، ص١١.

(٢) من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٨.

باستخدام السيف دون الاستفادة من المداد، اللهم إلاّ إذا استحال عليهم تحقيق هدف ما فإنهم كانوا يعمدون إلى التضحية بأرواحهم في سبيل تحقيق الأهداف السامية التي رسموها لأنفسهم.

وهكذا كان العلم من أبرز الأساليب التي إنتهجها المسلمون الأوائل. والحق إن العلم يعد من أفضل الوسائل للتخلص من أغلال الذات الشحيحة، وعلينا أن نعتبر في هذا المجال بالأمم الأخرى التي استطاعت أن تحطم أغلال الجهل والتخلف لتصل إلى ذروة العلم والتقدم كالشعب الياباني والصيني.

فنحن عندما نعيش مع أنفسنا، وعندما نكون معزولين عن الشعوب المتقدمة الأخرى، فلا نطّلع على مسيرتها التي استطاعت بها أن تنافس الشعوب الأخرى، نحسب أنفسنا عمالقة، ولكننا سرعان ما سنشعر بتخلفنا وتقصيرنا في هذا المجال عندما نطّلع على إنجازات ومكاسب تلك الشعوب.

آفات طلب العلم

وبالطبع فإن هناك عقبات كثيرة تقف في طريق كسب العلم، خصوصًا وأن للعلم آفات عديدة ومتنوعة تحول دون طلب العلم، كإتباع الأهواء والشهوات والانقياد للملاهي التي تشغل الإنسان عن طلب العلم والبناء، ويبقى الخاسر الوحيد هو الإنسان إن لم يَتَحَدَّ ويقاوم تلك الأهواء والشهوات، وإن لم يوقف حياته في طلب العلم، خصوصًا وأن العمر فرصة سريعة الفوات، وأن العلم سريع الزوال عن ذهن الإنسان إن لم نتعهده بالمراجعة والاستذكار بشكل دائم. فينبغي علينا أن نزيد من معلوماتنا، ونستعيدها، ونضيف إليها معلومات جديدة، وإلا بقينا جهلاء طيلة حياتنا.

علينا أن نقدس الوقت

وعلينا في هذا المجال أن نقدس الوقت، ونستغله الاستغلال الأفضل. فكل شيء في هذا الكون يسلك طريقه دونما عودة، معلنًا أنّ الزمن يسير بخطى حثيثة،

وأن عمر الإنسان في حالة إنقضاء متواصل. فنحن لا نمتلك سوى فرصة محدودة، والزمن من شأنه أن ينسينا معلوماتنا؛ فإذا لم نتحداه ونقاومه، فإننا سوف لا نحصل على أي شيء.

وفقهاؤنا لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلاّ بجدهم المتواصل، وإستغلالهم الأمثل للوقت، حيث كانوا ينامون سويعات قلائل من أجل أن يستغلوا الوقت المتبقي من أيامهم ولياليهم في طلب العلم، كما روي -مثلًا- عن الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي يرى البعض أنه كان أفقه علماء الشيعة آنذاك، حيث كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما يريد أن ينام يضع رأسه على ركبتيه للحظات قليلة، مكتفيًا بهذه الفترة القصيرة من الاستراحة.

وهكذا كان حال السيد البروجردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث روي عنه أنه كان يقرأ في حالة الوقوف لكي لا يستسلم للنعاس والنوم، كما ويروى عن المرحوم المرجع السيد ميرزا مهدي الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يكن ينام سوى ساعتين، أما الساعات الأخرى فقد كان يقضيها في الدراسة والتأليف، ويروى عنه أنه كان في أيام شيخوخته يحفظ الكثير مما ينبغي على العالم حفظه كالآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأشعار المختلفة.. في حين أن شبابنا اليوم نراهم لا يحفظون شيئًا من القرآن الكريم، رغم أهمية الحفظ ودوره في تنشيط الذاكرة وتوسيعها، وخصوصًا في مرحلة الشباب، لأن هذه المحفوظات سوف تترسخ في الذهن، فعلينا أن نستغل هذه الفترة في الحفظ، وإلا فإننا سوف لا نستطيع القيام بذلك في الشيخوخة.

وفي هذا المجال علينا أن نكون ذوي عزائم راسخة، وأن نكون جديين في طلب العلوم الدينية التي من شأنها إنقاذنا من هذا الجهل الذي نرسف فيه، ومن هذه الغفلة التي نعيش فيها؛ الغفلة التي كرستها فينا الإذاعات والفضائيات الشيطانية، وأبواق التضليل، وأولئك الدجالون الذين يجلسون وراء مكاتبهم ليسودوا أوراق التضليل والخداع.. إنهم في الحقيقة يذهبون بالناس إلى نار جهنم.

نحن المكلفون بإنقاذ العالم

وإزاء هذا الوضع المتردي نسائل أنفسنا، من المكلَّف بإنقاذ العالم وتنويره؟.

الجواب: نحن بالتأكيد، فعلينا أن ننمي الشعور بالمسؤولية في أنفسنا، وأن نعتبر أنفسنا جزءًا من العالم الذي نعيش فيه، فنشارك المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي همومهم وقضاياهم، ونساهم في رفع المحنة عنهم.. فنحن ما جئنا إلا لنتحدى هذا الظلم والفساد المسيطرين على العالم الإسلامي، ونحن مسؤولون عن إنقاذ الناس من نار جهنم ودعوتهم إلى الجنة.

وبذلك تصبح مسؤوليتنا إجتماعية عامة، بالإضافة إلى مسؤولياتنا الذاتية.

تكاملية العلم والدين

تكاملية العلم والإيمان تصنع المعجزات في حياة الإنسان، ولابد أن تتم هذه العملية في المدارس العلمية الدينية، وإلا فإن الكثير من المضاعفات ومشاكل والأزمات ستواجهها الحياة الإنسانية.

وهناك بعض الأفكار والحقائق قريبة من فكر الإنسان ورؤيته، باعتبار أنها أفكار وحقائق بسيطة يستطيع أن يفهمها الإنسان، ويبلغ عمق أبعادها، وفي مقابل هذه الحقائق هناك حقائق كبيرة وضخمة لا يمكن للفكر البشري المحدود أن يبلغ مداها. ومن هذه الحقائق، حقيقة المزاوجة بين الإيمان من جهة والعلم من جهة أخرى؛ فمثل هذه المزاوجة ستكون نتيجتها إسعاد المجتمع البشري برمته. ونحن نستطيع أن نفهم ذلك، ولكننا لا نستطيع أن نتصوره. فنحن بحاجة إلى قدرة هائلة من التخيل، لندرك معنى أن البشرية ستسعد برمتها.

خطورة الفصل بين العلم والإيمان

ترى ماذا نعني بالمضاعفات الخطيرة التي تنجم من عدم حدوث تلك المزاوجة؟.

هنا أريد أن أستعرض هذه الحقائق، لكي نصل إلى نتيجتها المتمثلة في أن عقد هذه المزاوجة هي من ضمن المسؤوليات المترتبة على علماء الدين، وبالتالي فإننا نريد أن نحدد مسؤوليتنا نحن في الحياة، ونعرف مدى ضخامتها وأهميتها، ومن ثم ننوي معرفة الرسالة التي يجب أن تتحملها الأمة الإسلامية في عصرنا هذا.

ولإيضاح ذلك نقول: إن من المعروف أن كمية القنابل النووية الموجودة بامكانها تدمير العالم عشرات المرات. ترى ماذا تعني هذه المشكلة؟.

إنما تعني موت الملايين من الناس في الساعات الأولى من قيام حرب عالمية ثالثة لا سمح الله. وهذا العدد ليس بالأمر الهين. فنحن نحترم الحياة ولو كانت متعلقة بطفل صغير، لأننا نقدر هذه الحياة، ونعتقد أنها يجب أن تكون محترمة، بل نحن نحترم الجنين وهو في بطن أمه، ونقيم الدنيا ونقعدها لكي لا يُجهض أو يُقتل.

أما القنابل الذرية فإنها لا تعرف هذه الحقائق أبدًا، بل إنها تحصد ملايين النفوس المحترمة. فمن هو المسؤول عن ذلك يا ترى؟.

لا شك إن المسؤولية تقع على الطلاق الحادث بين العلم والإيمان، فلقد أفرغ العلم من عقل الإيمان. فالعلم أشبه شيء بالسيارة التي فيها ما فيها من الطاقة والاندفاع والحركة، ولكنها فاقدة للقائد الذي يقودها بحكمة ومراس، فلا يكون مصيرها إلا الدمار.

وهكذا الحال بالنسبة إلى علم الإنسان في عصرنا الراهن، إنه علم يقود العالم إلى الهاوية المحتومة. فالبشرية تعيش الآن تحت مظلة الرعب النووي، فلقد وضعت نفسها في مخزن من البارود لا تستطيع أن تخرج منه نتيجة لسباق التسلح الجنوني الذي خلقته العقول التي زُوِّدت بالعلم ولم تُزَّود بالإيمان.

هذا عن الخطر المحتمل، أما عن الأخطار الموجودة حاليًا، فالجميع يعرفون ما في العالم من حروب ومظالم وحرمان واستضعاف.. فالاحصائيات تشير إلى

أن خمس أطفال العالم يموتون بسبب سوء التغذية، وثلث البشرية يعيشون حالة المجاعة بسبب نهب ثروات الشعوب ومحاولة تدميرها.

إن هذه الأحداث نراها الآن بأم أعيننا، فهي ليست بالأحداث الجديدة، ومنذ عقود من الزمن نرى أن التخلف قد ازداد في الدول النامية بدلًا من أن يقل، وبذلك إتسعت الفجوة بينها وبين الدول الصناعية، ذلك لأن الأخيرة منهمكة في امتصاص ثروات البلدان النامية لتصنع بها القنابل والمدافع والصواريخ، وبعد أن ينتهي دورها تبدأ هذه الصناعة مرة أخرى، وهكذا.. فإن استخدمت هذه الأسلحة فالويل للبشر، وإن لم تستخدم فالفقر لهم، ذلك لأن سباق التسلح هو المسؤول عن الاضطراب والتضخم الإقتصادي في العالم.. وسبب كل ذلك هو الطلاق الذي حدث بين العلم والإيمان.

والسؤال المطروح هنا هو: من المسؤول عن إنفصال العلم عن الدين، وكيف حدث هذا الإنفصال؟.

من المعروف أن الكنائس حاربت العلم، وابتعدت عنه، وتوغلت في الجهل، وادعت أنها تمثل الدين، ولذلك فقد انفصل الناس عن الدين والكنائس، وقاموا بعبادة العلم.

وحتى في فرنسا عندما كانت تمر بما يسمونه بـ (عصر الثورة)، بدؤوا يقيمون معابد لعبادة العلم، إلى درجة أنهم كانوا يشيعون جنائزهم مرددين شعارات تقديس العلم، لأنهم كانوا يحملون عقدًا وحساسيات تجاه الدين بسبب مواقف الكنيسة.

ترى من المسؤول الآن عن إعادة العلم إلى حضيرة الدين، وإعادة الدين إلى معاقل العلم؟.

إنها المدارس العلمية. فنحن في هذه المدارس نستطيع أن نكون متدينين من جهة، وعلماء من جهة أخرى. فالعلم الصحيح هو الذي يؤدي بنا إلى الإيمان،

والدين الصحيح هو الذي ينتهي بنا إلى العلم. فالدين الحقيقي لا يمكن أن يدعوك إلى الجهل، والعلم الحقيقي لا يمكن أن يدعوك إلى الكفر والإلحاد.

ضرورة أن نكون علميين

وبناء على ذلك يجب أن نحول شخصياتنا إلى شخصيات علمية؛ أي إلى شخصيات ذات علم كامل بجميع جوانب الحياة. ولا أقصد بالعلم هنا كيفية استعمال الأدوات الكهربائية وما أشبه ذلك، بل أن يكون الإنسان علميًا في حياته الشخصية وسلوكه.

كما وعلينا أيضًا أن نكون علماء بما يجري حولنا، وبما يقع في الحياة من أحداث، لكي نستطيع توجيه هذه الأحداث توجيهًا دينيًا صحيحًا. فعندما أكون عالمًا في السياسة -مثلًا- فحينئذ أستطيع أن أوجه السياسة برأي ديني سليم.

ترى ما هو السبيل إلى جذب الناس إلى حضيرة الدين الحقيقي؟

هناك ثلاث مراحل لبلوغ هذا الهدف، وهي:

- أن يكون سلوكنا الشخصي سلوكًا علميًا.
- أن يكون سلوكنا الإجتماعي وتوجيهنا للمجتمع دقيقين، معتمدين على الدراسات الموضوعية العميقة.
- أن تكون آراؤنا التي نطرحها، آراء صحيحة ودقيقة.

وفي هذا المجال يوجد سؤال يطرح نفسه وهو: كيف نستطيع أن نكون علميين في سلوكنا، وتوجيهاتنا، وآرائنا؟.

إن السبيل إلى ذلك مرتبط بعمل حثيث يجب أن يقوم به الإنسان. فنحن نعرف أن العلم الآن انتشر، وتعمق، وتوغل في مجالات عديدة. وإذا ما أراد الإنسان أن يطّلع على العلم في كل تلك المجالات، فإنه بحاجة إلى تعب ومثابرة

وتفكير مستمر، ولكننا في النهاية سنصل إلى اليوم الذي نستطيع أن نقول فيه للناس إننا نمثل الحضارة الحقيقية، وحينئذ سيكون في إمكاننا أن ننقذ العالم من مشاكله، ونبني الحضارة الإسلامية.

وقد يعتقد البعض أن هذا الكلام هو طموح بعيد المنال، ولكننا لابد أن نقول لهؤلاء: كلاّ؛ فالحضارة الأوروبية، والبلدان الكبرى نشأت من تجمعات صغيرة، طرحت أفكارًا ثورية تحمَّس لها الشباب ثم حملوها وطبقوها.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الحضارة الإسلامية المؤمنة بالعلم والإيمان، فنحن أيضًا بإمكاننا أن نشيد بناءها من جديد، ونحمل مبادءَها وأفكارها، ونطبقها.

وبالطبع فإنّ هناك بعض الصعوبات قد تعترض طريقنا، بل وطريق أي إنسان يريد تأسيس حضارة حقيقية، ولكننا بالصبر والإيمان وروح المقاومة والتحمل والمثابرة نستطيع أن نحقق ذلك الهدف.

الهدى في طلب العلم

من الظواهر السلبية أنّ هناك البعض ممن لا يعرف حكم الله تعالى في المسائل المختلفة، يحاول اضلال الناس بغير علم، فيتبع الشيطان بغير هدى.

وفي السابق كان العلماء والأحبار والرهبان هم الذين يتعرضون لهذا الإمتحان العسير؛ فكان العلم مخصوصًا بهم، ومقتصرًا عليهم، ولكن الوضع اختلف اليوم، فالعلم لم يعد مقتصرًا على فئة معينة، والعلماء لم يعودوا علماء الدين فقط بالمعنى الضيق للكلمة، بل إن العالم أصبح كل من يحمل قلمًا ليحدث الناس عن فكره، وإذا ما اصطبغ هذا العالم بصبغة الإسلام فإنه سيصبح عالمًا دينيًا.

خطأ العالِم ليس ككلّ خطأ

وإذا ما أخطأ هذا العالِم في حديثه للناس عمدًا، فإن حسابه سيكون عسيرًا عند الله سبحانه وتعالى. وإذا كان الثواب والعقاب على العمل بقدر قيمته، وخطورته، ومدى تحمل النفس للمشاق في سبيل إنجازه، فإن إتّباع هدى الله فيما يتعلق بالثقافة والعلم يعد أسمى قيمة، وأكثرها صعوبة على النفس. ولذلك فإن ثواب هذا الإتباع عظيم، كما أن عقاب عصيانه عظيم أيضًا.

والإنسان عندما يرتكب عملًا خاطئًا فيكذب، أو يزني، أو يشرب الخمر، فإنه سيجني على نفسه. ولكنه إذا ما ألف كتابًا مضلًا، فإنه سيجني على الألوف، لأن لعنة ضلالتهم ستنصب عليه، ذلك لأنه بعمله ذاك يكون قد شق مسيرة منحرفة أمام بعض الناس. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الإنسان الذي يقوم بعمل تكون نتيجته هداية الكثير من الناس، فإن ثوابه سيكون عظيمًا وجزيلًا عند الله تعالى، وخصوصًا إذا كان هذا الإنسان من العلماء.

أهمية العلماء في الإسلام

ولذلك أكد الإسلام كثيرًا على أهمية العلماء بالله، فأعطاهم الدرجة الفضلى في المجتمع، ورفعهم فوق المجاهدين، وجعلهم من المشفعين يوم القيامة، وفضَّلهم حتى على الشهداء، فجعل حبر القلم الذي يستخدمه العالِم في سبيل الله أرفع درجة من دم الشهيد.

ترى لماذا يعطي الله تعالى إلى العالِم الجالس في زاوية بيته، والمنشغل في التأليف والدراسة من الدرجات أكثر مما يعطي لذلك المجاهد في سبيل الله الذي يقتحم غمار الموت، ويخوض عباب الشهادة، ويتحمل ما يتحمل من المصاعب والمشاق في سبيل الله؟.

السر في ذلك أن العالِم يقوم بعملية مجاهدة نفسه، وترويضها.. فهو عندما يصدر فتواه من خلال كتابة سطر واحد، فإن وراء هذا السطر سنين من التعب والتفكير المركز، والتقوى المتواصلة، حتى تخرج الفتوى بشكلها النهائي. فالفقهاء عادة ما يراجعون فتاواهم بشكل دقيق لكي لا تكون فيها كلمة زائدة أو ناقصة، وهذا العمل بحاجة إلى أن يتحمل الإنسان الكثيرمن المصاعب والمشاق.

وعلى الرغم من أن العين ترى الصعاب التي يتحملها ذلك الإنسان المجاهد، ولا ترى الصعاب التي يتحملها العالِم في بيته أو في حلقات درسه، إلا أن درجة

العالِم تبقى هي الدرجة العليا التي لا يمكن لأي إنسان آخر أن يحرزها إلا إذا انخرط في سلك طلب العلم بإخلاص، ولوجه الله تعالى.

طالب العلم بحاجة إلى منهج خاص

وعلى هذا فإن طلبة العلم يسيرون في هذا الصراط، فحقيق عليهم أن يروِّضوا أنفسهم، وهذا يعني أن يراجعوا النصوص بشكل دقيق، وأن يقرؤوا القرآن بتدبر، ويدرسوا الأحاديث بوعي.. فإذا كتبوا فليستذكروا ما قرؤوه في النصوص وفي التأريخ، وهذه الطريقة هي الطريقة الاجتهادية؛ أي أن يكون طالب العلم مجتهدًا في ثقافته وعلمه.

أما الطريقة الأخرى فهي الطريقة التقليدية التي تعني أن يجعل طالب العلم أحد العلماء المعروفين بالعلم والتقوى حجة بينه وبين الله تعالى، فيتبع نهجه وهداه، حتى إذا وصل طالب العلم إلى مرحلة الاجتهاد تحمل المسؤولية بنفسه، فيبدأ بإعطاء الفتوى على ضوء روح الإسلام وتعاليمه التي درسها، وإذا ما أحس طالب العلم أنه لم يصل بعد إلى هذا المستوى فليبحث عن عالِم يثق بعلمه وتقواه فيضعه حجة بينه وبين الله تعالى، دون أن يتبع أي مقياس آخر في هذا الإختيار.

على طالب العلم أن يكون حذرًا

وعلى طالب العلم أن يتبع هذا الأسلوب بشكل دقيق، وأن يضمن عدم تضليله للناس بما يكتبه ويقوله، وأما الإسترسال في هذا الطريق وعدم الانتباه إلى مزالقه ومنعطفاته، والأخطار التي تعترض الإنسان فيه، فهو أمر خطير، يتمخض عن نتائج وخيمة، فليس من الصحيح أن يقوم الإنسان العاقل بمثل هذا العمل دون أن يفكر في الطريق الذي يسير فيه، وفي المخاطر الكامنة وراءه.

ولذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا الْعِلْمَ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ**»[1]. وقال ﷺ:

---

(١) عوالي اللآلي، ج٤، ص٧٨.

«وَإِيَّاكُمْ وَأَهْلَ الدَّفَاتِرِ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الصَّحَفِيُّونَ»[1]. أي على طالب العلم أن لا يعتمد على الكتب فحسب في إصداره الأحكام دون أن يبحث عمن يأخذ منه العلم مباشرة، وذلك لأنه في هذه الحالة سوف لا يستطيع معرفة أخطائه ونقاط ضعفه، خصوصًا وأن طالب العلم سوف يواجه مشكلة عسيرة تتمثل في أن المجتمع يتوقع منه سرعة الإنتاج وكثرته.

مسيرة العلم لا يمكن أن تتوقف

وعلى طالب العلم أن لا يغريه المدح والثناء وهو يقوم بعملية الإنتاج العلمي، لأنه قد لا يكون مستحقًا لهذا المدح، فيأخذه الغرور، وتتوقف مسيرته التصاعدية، بل عليه أن يشعر دومًا أنه بحاجة إلى الكمال، وأن هناك نواقص كثيرة في نشاطه العلمي، فيشخص هذه النواقص، ثم يعمل على سدها وازالتها.

ولتكن سيرة وحياة علمائنا ومراجعنا الأبرار قدوة لنا في هذا المجال، فعلى الرغم من الأعمار والسنين الطويلة التي صرفوها في البحث العلمي، والإجتهاد، إلا أنهم مع ذلك كانوا يتخوفون ويخشون أن تنفذ النقائص إلى أعمالهم، ولذلك فإنهم كانوا يستمرون في الدراسة والبحث العلمي وممارسة الأنشطة العلمية حتى بعد دخولهم مرحلة الشيخوخة، وامضائهم لسنوات طويلة في البحث العلمي، كما كان معروفًا عن المرجع السيد الخوئي، والمرجع السيد البروجردي، والمرجع السيد ميرزا مهدي الشيرازي وغيرهم رضي الله عنهم.

ولذلك فإن على طالب العلم أن لا يشعر بأنه قد وصل إلى مرحلة الكمال، وأن يعمل على رفع نواقصه العلمية في جميع الدروس التي يدرسها. فالعلم بحر عميق لا شاطىء له، فكلما اغترف الإنسان من هذا البحر غرفة أحس أن أمامه غرفات أخرى لا حصر لها يجب عليه أن يغترفها.

(١) عوالي اللآلي، ج٤، ص٧٨.

الدفع الذاتي لمواصلة طلب العلم

وعلى طالب العلم أن يضع نصب عينيه دومًا أن ليس هناك من يشجعه على رفع نواقصه، فالساحة تدفعه دائمًا من خلال المدح والاطراء إلى أن ينسى عيوبه، ويتغافل عن مثالبه ونقائصه، لذلك فإنه هو المسؤول عن تشجيع نفسه على العمل من أجل أن يصل إلى المستوى العلمي المطلوب بشكل جدي، كأن يخصص من وقته أربع ساعات- مثلًا- للمطالعة، والكتابة، وبناء شخصيته العلمية، وأن لا يدع وقته يذهب هدرًا.

أما إذا غفل طالب العلم عن نفسه، وتركها تنجرف مع التيار، فإنه ستسوِّل له نفسه أن يفتي من غير علم، وبذلك يكون سببًا لانحراف وضلال الناس، ومصداقًا للآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[١].

فهناك من يتحدث للناس فيما يتعلق بشرائع الله تعالى وتعاليمه بغير علم؛ أي إنه ليس بعالِم. فالإنسان العالِم هو الذي وصل إلى العلم الحقيقي الذي يمثل الهدى، إما من خلال إجتهاده هو، أو من خلال هداية الآخرين له إلى الطريق الصحيح، أو بعبارة أخرى: من خلال تقليد المهتدين. فإما أن تكون عالِمًا، وإما أن تسأل العالِم عن الطريق الذي يجب عليك أن تسلكه، وإلا فإنك ستكون -لا سمح الله- من الذين يتخبطون خبط عشواء في طريق تعلمهم للعلم.

---

(١) سورة الحج، آية: ٨.

علماء الدين رُسل الحضارة

تتطور مفاهيم الشعوب بالنسبة إلى القضايا الفلسفية حسب تطور ظروفهم، ولكن الحق يظل واحدًا مهما تطورت هذه الظروف، وتغيرت النظرات والآراء.

ويعتبر الدين من ضمن تلك الحقائق العامة التي تغيرت نظرة الشعوب إليها عبر الزمان، وحسب تطور الأحداث، ولكنه -من جهة أخرى- ليس إلا حقيقة واحدة عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم.

ونتيجة لتطور نظرة الشعوب إلى الدين بمرور الزمان، تطورت أيضًا نظرتهم إلى علماء الدين. وعلى الرغم من أننا -بكل ما جاء في الرسالات الإلهية- لا نعرف إلا إسمًا واحدًا ومعنى واحدًا للدين، وبالتالي نظرة صحيحة واحدة إلى علماء الدين، فإنه ما تزال هنالك نظرات متفاوتة ومختلفة تتنازعها الشعوب بالنسبة إلى هذه الحقيقة.

المفهوم الحقيقي للدين

ماهو الدين؟. هل هو مجموعة طقوس وشعائر، وهل هو مجموعة نظرات ورؤى، وهل هو أفكار علمية أم أحكام شرعية، وهل هو مجرد وصايا أخلاقية

ومواعظ إنسانية، هل هو علاقة الإنسان بالانسان أم علاقة الإنسان بالله أم علاقته بالطبيعة؟.

هناك نظرات مختلفة، فكل يفسر الدين حسب هواه أو حسب علمه، أما نحن كمسلمين ندرك أن الدين هو القرآن، والقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، فإننا نفسر الدين بكل تلك المعاني وبمعان أخرى؛ فالدين فلسفة للحياة، وبصائر للإنسان، وطريقة للعيش، وبالتالي هو تحديد لعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الإنسان بنظيره الإنسان، والأهم من كل ذلك علاقة الإنسان بالله، رب الإنسان، ورب الطبيعة، ورب كل شي.

وكذلك فإن الدين هو من جانب آخر أحكام شرعية، ووصايا خلقية، وقانون إجتماعي سياسي إقتصادي، وأفكار ونظرات تشمل جميع أبعاد الحياة. وبالرغم من أن هناك جماعة تأثرت بأفكار الشرق والغرب حينًا، أو بجاهليتهم الداخلية حينًا آخر، أو إنها استسلمت لضغوط الطغاة حينًا ثالثًا، فاعتقدت أن الدين عبارة عن شعائر وطقوس تؤدى في المسجد أو في مراكز التوجيه لا أكثر ولا أقل، واستندوا في ذلك إلى القول المعروف: «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر». على الرغم من كل ذلك فإننا نرفض هذه الفكرة رفضًا قاطعًا، ونعتقد أن الدين هو شريعة نزلت من السماء لإدارة شؤون الحياة في الأرض، وهذه النظرة تنسحب على الذين يجسدون الدين، ويدعون إليه، وهم علماء الدين.

فمن هم علماء الدين؟. هل هم أئمة المساجد، هل هم الوعاظ، هل هم مجموعة دراويش، هل هم رجال إنشغلوا بعلمهم ولم يهتموا بأمر الناس؟.

إن كان الدين محصورًا في المساجد فينبغي أن تقتصر وظيفة عالم الدين على وعظ الناس في المساجد، أما إذا كان الدين للإنسان ولكلٍّ من الدنيا والآخرة، فإن الداعية إلى الدين يجب أن يدعو الناس إلى الهدى في الدنيا والاخرة.

علماء الدين فريقان

ومنذ فجر التأريخ الإسلامي والى اليوم وُجِد في العالَم الإسلامي فريقان من علماء الدين؛ فبعضهم كان يجسِّد الدين بالمفهوم الصحيح؛ أي كما أنزل في القرآن، والبعض الآخر كان يجسد الدين حسب أهواء طائفة معينة، هي الطائفة التي غيَّرت مفهوم الكلمة ودانت بدين ما أنزل الله به من سلطان.

وعلى سبيل المثال، فقد كان في العالَم الإسلامي عالِم دين مثل: الميرزا محمد حسن الشيرازي، الذي فجر الثورة المعروفة في إيران بثورة التنباك، وأخرج الإستعمار البريطاني منها، وربما كان أول من أخرج إستعمارًا حديثًا في العالَم الإسلامي. فلقد استطاع بقيادته للجماهير المؤمنة أن يطرد مائة ألف جندي بريطاني دخلوا إيران تحت غطاء شركات التبغ.

هذا هو المعنى الحقيقي للدين، وفي نفس الوقت نرى أنه كان في عهد الميرزا الشيرازي قدس سره عالِم دين آخر يعتقد بأن على عالِم الدين أن يجلس في بيته، وأن لا يفكر في السياسة، فكان يقول إن الميرزا الشيرازي قد أخطأ، لأنه كشف قوتنا للإستعمار، وكأنه يريد أن يدخر قوته لعالَم آخر غير عالَم الدنيا. فماذا تنفع القوة التي لا تعارض الإستعمار؟.

وهناك نماذج كثيرة أخرى من العلماء المجاهدين مثل: الشيخ محمد كاظم الآخوند صاحب كتاب (الكفاية في الأصول) الذي وضع فيه نهجًا فكريًا جديدًا في علم الأصول، كما وقاد ثورة الدستور في إيران، وأقر بموجب هذه الثورة دستورًا كان من أفضل الدساتير، ومن أقربها إلى الإسلام آنذاك. وفي نفس الوقت نرى في نفس ذلك العهد عالِم دين آخر كان يعارض التدخل في السياسة، ويفسِّق الآخوند قائلًا: إن الذي يتدخل في السياسة، ويريق دماء الناس لا تجوز الصلاة خلفه.

إن الشيخ الآخوند كان يمثل خطًا، وهذا (العالِم) كان يمثل خطًا آخر،

والعجيب في الأمر أن الناس الذين كانوا يلتفون حول العالِم الثاني كانت مجموعة من التجار الكبار الذين كانوا يستغلون الفقراء من الناس ليعطوا الأموال والرشاوي إلى هذا النوع من العلماء ليسكتوا عن جرائمهم بحق المستضعفين، فما تكلموا يومًا بكلمة واحدة دفاعًا عن هؤلاء المستضعفين، ولكن عندما تتعرض مصالح التجار والاقطاعيين إلى السوء نراهم ينبرون ويقاومون ويتكلمون، أما إذا سُحِق المظلومون سكتوا وقالوا: لا شأن لنا بالسياسة، وكأن السياسة يجوز التدخل فيها إذا كانت لمصلحة التجار، ولا يجوز التدخل فيها إذا كانت لمصلحة المستضعفين.

هذا الخط كان يناهض أيضًا خط المرحوم آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذي كان من أول العلماء مقاومة للصهيونية العالمية ولاحتلال فلسطين، كما كان أيضًا يقاوم النظام الطاغوتي في العراق، وهو صاحب كتاب (المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون)، الذي ما يزال كتابًا حيًّا يكشف طبيعة النظم الفاسدة.

وكذلك الحال بالنسبة إلى العالِم الشيخ محمد حسن النائيني المرجع الكبير في عصره، الذي ألف كتابًا في مساوىء الحكم الدكتاتوري قبل أكثر من خمسين عامًا، وحارب بكل وسيلة ممكنة أنواع الطغيان والفساد، وفي مقابل هؤلاء العلماء المجاهدين كان هناك (علماء) يمثلون الأنظمة الفاسدة، أو يسكتون عنها، ويرون أن الدفاع عن مصالح فئة معينة من الناس أفضل من الدفاع عن مصالح الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب المحروم.

هذه الفئة التي تسمي نفسها بـ (علماء الدين)، يقولون إن التدخل في السياسة حرام، والتدخل لمصلحة المستضعفين حرام، والعمل من أجلهم حرام. ترى ما هو الحلال، وما هو الواجب في الإسلام؟. إذا كانت محاربة الطغيان ومحاربة الشرك، وتثبيت كلمة (لَا إِلَهَ إِلَّا الله) حرامًا، فما هو الإسلام إذن؟. هل الإسلام هو السكوت عن الحق والرضا بالباطل، والدفاع عن المستكبرين والدخول في شبكة إعلامهم والعمل وفق توجيهاتهم باسم عدم التدخل في السياسة؟.

ترى هل يمكن أن يبقى الإنسان في منطقة محايدة بين الحق والباطل، وهل يمكن أن يسكت عن الحق إلا بالدفاع عن الباطل؟. فلماذا يفتي أولئك العلماء باراقة دماء المجاهدين في السجون، ولماذا يؤيدون حكم الطاغوت، أوَ ليس عملهم هذا تدخلًا في السياسة؟. فإن كان الدين يعني عدم التدخل في السياسة حسب مفهومهم، فلماذا لا يجلسون في بيوتهم، ويتتخلوا عن تأييد الطاغوت؟.

نحن نقول لمثل هؤلاء؛ اتقوا الله، وليراجع كل واحد ضميره، وليتساءل بينه وبين نفسه، ماذا أعمل، وفي سبيل من أعمل، وهل من الصحيح أن أقضي بقية العمر في سبيل دعم حكم الطغاة؟.

إن أكبر حجاب بين الإنسان وبين الله، علم ليس فيه تواضع. فلنتواضع ولنفكر جيدًا، وإذا رأينا أنفسنا غير قادرين على إدارة الناس وتحمل مسؤولياتهم، فلنتركهم ولنتنحّ عن هذه المسؤولية، إذا لم تكن لدينا الشجاعة الكافية لقيادة الناس.

ونضرب مثلًا على ذلك في عبدالله بن عمر، الذي أعلن عن عدم تدخله في السياسة، فلم يبايع عليًّا عليه السلام، وكان ذلك خطأً كبيرًا منه، ولكن الإمام علي عليه السلام أوصى أصحابه بأن يتركوه وشأنه، لأنه سوف لا يفعل شيئًا. وفعلًا فإنه لم يفعل شيئًا، وظل على سكوته. أما أن يقول إني لا أتدخل في السياسة، وفي نفس الوقت يعتبر نفسه قائدًا للناس وعليهم أن يتبعوه، فهذا هو الحرام بعينه.

من أجل تجسيد الولاية

نعم؛ من الممكن أن تكون طبقة معينة من شعوبنا تنظر إلى الدين هذه النظرة، وتعتقد أنه مجموعة من الطقوس والمواعظ، ولكن لماذا أقع أنا في شباك هؤلاء، أفلا نعلم أن الدعاة إلى الله تعالى ظلوا يجاهدون عبر التأريخ من أجل تجسيد كلمة التوحيد في الواقع السياسي، هذه الكلمة المتمثلة في الولاية.

إن عليًّا عليه السلام لم يبذل دمه الشريف إلا من أجل تجسيد الولاية، وهكذا

الحال بالنسبة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وأصحابهم وأهل بيتهم وجميع شهداء الإسلام عبر التأريخ، فقد صبوا كل جهودهم، وذاقوا كل مرارة من أجل تحقيق الولاية في واقع الأرض، لأن الولاية هي عمود الإسلام وخير دعائمه.

دعنا نفكر قليلًا؛ فحرام أن نبقى جهلاء في الدنيا، ليحشر أحدنا يوم القيامة أعمى. حرام على الإنسان المسلم أن يعرض عن الولاية وهو قريب من نبعها، متصل بتاريخها، تجري في عروقه دماء الشهداء الزكية، دم علي والحسن والحسين عليهم السلام.

وبعد فتلك كانت نظرتان إلى الدين؛ النظرة الأولى هي النظرة المستوحاة من القرآن، ومن الرسالة ومن التأريخ الجهادي للأئمة عليهم السلام. والنظرة الثانية تنبع من جاهلية الإنسان وبتوجيهات من الغرب والشرق. وحسب هاتين النظرتين تختلف النظرة إلى علماء الدين، فيختار كلٌّ العالِم الذي يتفق مع نظرته.

ومن الواجب على الدعاة اليوم أن ينطلقوا في عملهم من النظرة الإسلامية الصحيحة.

والحمد لله فإن المسلمين اليوم في حال تقدم ثقافي، فهم يقرؤون الرسائل العملية، ويفهمون الأحكام الشرعية، وهذا وحده لا يكفي، ولا يعفي الدعاة من أداء دورهم، إذ عليهم أن يتعرفوا على الحياة جيدًا، وأن يستوعبوا جميع النظرات الإسلامية إلى الحياة في الإقتصاد والسياسة والإجتماع والتربية، وسبل مقاومة الطغاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف الأكبر هو إقامة حكم الله، أما المنكر الأكبر فهو حكم الطاغوت. كما علينا أيضًا أن نتعرف على رأي الإسلام بهذا الركام الضخم من المعلومات التي تزحف إلينا يوميًا من الغرب، ثم البحث على ضوء ذلك عن حلول لمشاكل العالَم، والمشاكل الحضارية التي تعيشها بلادنا، من مثل طريقة تنمية إقتصادنا، وسبيل تحرير شعوبنا من الفقر والجهل والحرمان.

والمطلوب منا أن نقرأ القرآن كله، فكل درس في القرآن إنما هو للتطبيق.

فلنتدبر هذا الكتاب، ولنحاول أن نعي مضامينه، وليكن حليفنا، فهو أفضل هاد، وأفضل ضامن للإنسان من الإنحراف.

ولنحاول أيضًا النظر في التأريخ، وأن لا نستبعده في كل قضية من القضايا.. فلندرس بعمق تاريخ الإمام الحسن والحسين عليهما السلام لكي نتعرف على الأسباب التي دفعت بالإمام الحسن عليه السلام إلى عقد الصلح مع معاوية، والعوامل التي حدت بالإمام الحسين عليه السلام إلى القيام بالثورة، ولنقرأ أيضًا تاريخ الإمام علي بن الحسين عليهما السلام وتأريخ الأئمة المعصومين جميعًا والعلماء. فالتاريخ لا يمكن أن ينتهي عند نقطة معينة، بل هو مستمر، وتاريخنا هذا حافل بسيرة علمائنا المجاهدين من مثل الشيخ الكليني، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والشيخ الطوسي، والشيخ ابن أدريس، والشيخ المحقق، والعلامة الحلي.. فهؤلاء العلماء وأمثالهم كانوا بالإضافة إلى علمهم وتقواهم وقيادتهم الرشيدة للناس مناضلين، وقادة للمسلمين في جميع شؤونهم.. فعالِم الدين عندنا لم يكن علمه مقصورًا على الفقه والأصول فحسب، أوَ لم يكن كبار علماء الفلك والطب والفلسفة والرياضيات من علمائنا؟. فالشيخ البهائي -مثلًا- كان مؤسس علم المثلثات.

فلنقرأ تأريخ علمائنا، ولا تكن نظرتنا محدودة ومتأثرة بالنظرة الجاهلية المتخلفة إلى الدين. فالدين للحياة، والحياة كلها ساحة لتطبيق الدين، وعالِم الدين هو قائد الحياة بجميع مجالاتها بشرط أن يكون هذا العالِم مستوعبًا للدين كله.

ونحن عندما نؤكد على (ولاية الفقيه) فإننا نعلم من هو الفقيه. فالفقيه بالدرجة الأولى هو الذي يدرك كل شيء في الحياة، وهو الذي يعرف نظرة الإسلام إلى جميع الموضوعات الدائرة في الحياة.

ولهذا فإن الكثير من علمائنا حرَّموا تقليد المجتهد (المتجزّىء) الذي يتمكن من استنباط الأحكام في بعض أبواب الفقه فقط، فمثل هذا المجتهد لا يمكنك أن

تتخذ منه قائدًا لك، وواليًا عليك من قبل الله تعالى. فالفقيه يجب أن يكون فقيهًا مطلقًا –حسب تعبير الفقهاء رضي الله عنهم–.

وعلى هذا فإن نظرة الناس إلى الدين تختلف حسب اختلاف رؤاهم، ولكن الحق واحد عبر العصور جميعًا، والحق هو القرآن، والدين هو الذي بيّنه القرآن الكريم، وعالِم الدين هو الذي يجسِّد القرآن في حياته خلقًا وعملًا.

والخط الأصيل للعلماء، هو ذلك الخط الذي ذكرتُ الأمثال عليه من تأريخنا الحديث؛ وعلى الدعاة إلى الله تعالى وطلبة العلوم الدينية، وكل من يبحث عن الطريق الصحيح للإسلام أن يتبعوا هذا الخط من العلماء، بالإضافة إلى تعبئة طاقاتهم الجسدية في سبيل الدعوة إلى الدين واستنفار طاقاتهم الفكرية؛ فلتشمل –إذن– معلوماتهم جميع الحقول الحياتية والمعرفية، وليكونوا جنودًا في جميع الميادين، وليعدّوا العُدّة لكل المعارك.

العلماء ورثة الأنبياء

إنّ المسؤولية التي حمَّلها الله تعالى حَمَلَة العلم والدعاة إليه مسؤولية عظيمة، كما أن ثوابهم عند الله عظيم أيضًا. فبقدر عظمة وخطورة المسؤولية التي كُلِّف بها هؤلاء الرجال الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تلهيهم عن ذكره تعالى تجارة ولا بيع، يكون حملهم ثقيلًا، وميثاقهم عند الله عظيمًا.

الدرجة الرفيعة في الدنيا والآخرة

مع ذلك فبإزاء هذا الحمل الكبير، والمسؤولية العظمى، فقد منحهم الله عزوجل درجة رفيعة، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١]. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضل العلماء الأحاديث التالية:

- **«عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»**[٢].
- **«إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»**[٣].

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.
(٢) مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣٢.
(٣) الكافي، ج١، ص٣٢.

- «يَا عَلِيُّ؛ نَوْمُ الْعَالِمِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ»(١).
- «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»(٢).
- «ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُشَفَّعُونَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»(٣).

صفات العلماء في القرآن الكريم

وفي آيات مباركات من سورة فاطر يبين الله سبحانه بعض الآيات العظيمة المتجلية في هذا الكون، من مثل آيات العلم والقدرة والنظام والدقة في التدبير.. هذه الآيات المبثوثة في هذا العالم الرحب؛ الجبال كيف وُضِعَت ونُصِبَت، والسماء كيف رُفِعَت وجُعِلَت سقفًا محفوظًا، والأرض كيف بُسِطَت ومُهِدَت للإنسان لكي يعيش عليها، ثم يبين ما في هذه الآيات من آيات أخرى؛ كما المعادن، وطبقات الأرض، وأخيرًا يعلق ربنا سبحانه على كل ذلك قائلًا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٤).

فالعلماء هم الذين يخشون الله حق خشيته، ويعبدونه حق عبادته، ويجاهدون في سبيله حق جهاده. صحيح إن جميع المؤمنين يخشون الله، ولكن خشية العلماء من نوع آخر، لأنهم يعرفون آيات الله، وبالتالي فإنهم يعرفون ربهم من خلال معرفة هذه الآيات.

ولذلك فإن صلاة رجل عظيم عارف بالله من مثل الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل البارز للعالِم الرباني، تختلف بالتأكيد عن صلاة غيره من المؤمنين. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما يطلق تكبيرة الإحرام، فإنه يضع نصب عينيه عشرات الملايين من العوالم

---

(١) من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦٥.
(٢) بصائر الدرجات، ص٧.
(٣) الخصال، ص١٥٦.
(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.

التي تخضع لله سبحانه، ولذلك فإن تسبيحه يختلف عن تسبيح الآخرين، وبالتالي فإن خشيته لله تختلف عن خشية عامة الناس.

وفي هذا المجال روي عن أحوال الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام أنه «وَقَعَ حَرِيقٌ فِي بَيْتٍ هُوَ فِيهِ سَاجِدٌ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله؛ النَّارَ، النَّارَ. فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى أُطْفِئَتْ. فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ قُعُودِهِ: مَا الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْهَا؟. قَالَ عليه السلام: **أَلْهَتْنِي عَنْهَا النَّارُ الْكُبْرَى**»(١).

إن هذه هي الخشية والعبادة الحقيقيتان اللتان أشار إليهما ربنا عز وجل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢).

فمن هم هؤلاء العلماء، وما هي صفاتهم؟.

القرآن الكريم يذكر لنا هذه الصفات الواحدة بعد الأخرى؛ فالصفة الأولى هي تلاوة الكتاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾(٣).

وهذا يعني أن علمهم مستلهم من القرآن؛ من هذا النبع الصافي، ثم إنهم يتفاعلون مع هذا العلم، فيستوعبونه ليدخل كل أنحاء وجودهم؛ أنفسهم، وأفكارهم، وعقولهم، ومشاعرهم، وعواطفهم. ولذلك لا يلبثون أن يخشعوا لله بمجرد أن يروا آية من آيات قدرته وعظمته.

ثم يذكرالله تعالى صفة أخرى هي صفة إقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾(٤). فالإنسان الذي يتلوا كتاب الله ويرى في هذا الكتاب آيات ربّه ونوره، لا يملك إلاّ أن يخشع، فتدفعه هذه الخشية إلى إقامة الصلاة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص١٥٠.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٩.

(٤) سورة فاطر، آية: ٢٩

أمّا الصفة الأخرى من صفات العلماء الذين يخشون اللّه حقّ خشيته، فتتمثّل في الإنفاق سرًا وعلانية، إذ يقول ربنا سبحانه: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾(١).

فالإنفاق في السّر فائدته تعويد الإنسان على الإخلاص في النيّة، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**»(٢). فعليك أن تحرص في إنفاق السر، بحيث لا يراك أحد.

وقد كان أئمّتنا المعصومون عليهم السلام القدوات العليا في هذا النوع من الصدقة، بالإضافة إلى كونهم قدوات سامية في سائر الأخلاق الفاضلة.. فكانوا إذا جنّ الليل، وخيّم ظلامه، يتسلّلون من مضاجعهم، ويتنكّرون في ثيابهم، يحملون القربة من الماء، والجراب من الطعام، ليذهبوا خفية إلى بيوت الفقراء والمساكين والمستضعفين، ويقدّموا الطعام إليهم ويخدموهم بأنفسهم، دون أن يمنّوا على هؤلاء الفقراء، ودون أن يعلنوا للناس أنهم فعلوا ذلك.

وأمّا فائدة صدقة العلانية فتتمثّل في أنّ الإنسان قد يعيش في مجتمع فاسد يستهزىء من المتصدّقين والمنفقين بحجّة أنهم يبذّرون أموالهم التي تعبوا من أجل الحصول عليها. وهنا على الإنسان أن يتحدّى هذا المجتمع، وأن يعطي الصدقة أمام الناس لكي يثبت لهم أن الصدقة هي من ضمن الأعمال الصالحة العظيمة عند الله تعالى.

ثمّ يصف ربنا عز وجل عمليّة التصدق، بكونها تجارة لن تبور، وذلك بقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ﴾(٣).

وللأسف فإنّنا نتصوّر أن تصدّقنا هو نوع من الخسارة والمغرم، ولكنّ

---

(١) سورة فاطر، آية٢٩

(٢) الكافي، ج٤، ص٧.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٩.

العكس هو الصحيح. فالإنفاق هو التجارة الوحيدة الرابحة دائمًا، فإذا أنفقت في سبيل الله فاستشعر الفرح والسرور، لأنك حفظت بذلك أموالك في بنك الآخرة الذي سيضاعف لك هذه الأموال ويربيها. قال الله سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(١).

النعيم الأبديّ في انتظار العلماء

ثمّ يبيّن الله تعالى النعيم الأبديّ الذي سيكون في انتظار هؤلاء المؤمنين من حملة العلم قائلًا: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

فهم سيدخلون جنّات الخلود، وعندما تكون النعمة شاملة وسابغة فإنّها لابدّ أن تظهر آثارها على الإنسان. وهكذا الحال بالنسبة إلى أصحاب الجنة، فهم سيحلّون بالأساور واللؤلؤ، وسيلبسون الحرير.. قال الله سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٣).

ورغم أنّ الذهب والحرير حرام على رجال أمّة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا، ولكنهما يعتبران حلالًا في الآخرة.

ثمّ يستأنف السياق القرآني محدّثًا إيانا عن جوانب أخرى من النعمة التي سيتنعّم بها هؤلاء المؤمنون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٤).

وهذه الآية تعني أنّ العلماء كانوا في الدنيا في حالة حزن دائم؛ فالدنيا بالنسبة إليهم هي دار الحزن والألم والمصائب، ذلك لأنّهم يفكّرون دائمًا في الناس، ويبحثون

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.
(٢) سورة فاطر، آية: ٣٠.
(٣) سورة فاطر، آية: ٣٣.
(٤) سورة فاطر، آية: ٣٤.

عن طريقة لإسداء أيّة خدمة إلى المجتمع، فهم بذلك يصيبهم الهمّ والحزن، ولكنّ الله تعالى يثيبهم على حزنهم في الدنيا فرحًا عظيمًا ودائمًا في الآخرة.

والعلماء لا يجدون في الدنيا طعم الأمن، لأنّ الطغاة يحاولون دائمًا التضييق عليهم، فتجد العالم مطارَدًا من بلد إلى بلد، والخوف يحيط به، ولكنّ الله تعالى يعوّضه عن ذلك بـ (دار المقامة). قال الله سبحانه: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾، فهي دار السلام والأمن، حيث لا نصب ولا تعب: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾، فالعلماء يعيشون في الدنيا حالة نصب وتعب دائمين في اجسادهم وفي انفسهم، فهم يجهدون أنفسهم ليل نهار في سبيل ارضاء الله عز وجل، وخدمة عباده، ولكن اللّه سيجزيهم مقابل ذلك في يوم القيامة الجزاء الأوفى بأن يجعلهم يعيشون حالة الراحة الأبديّة: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1]. واللغوب هو التعب القليل، وفي ذلك إشارة إلى أنّ العلماء سوف لا يتعرّضون في الآخرة إلى أيّ نوع من التعب مهما كان طفيفًا.

سرّ إلتفاف الجماهير حول العلماء

إنّ هؤلاء العلماء الذين تعرّض القرآن الكريم لذكر مواصفاتهم وخصائصهم، هم الذين التفّ الناس حولهم وحول مبادئهم عبر التأريخ، لأنهم طبّقوا هذه المبادئ على أنفسهم قبل أن يتفوّهوا بها، ويدعوا الناس إليها. وهذا هو سرّ إلتفاف الجماهير حول العلماء.

ورغم أساليب الخداع والتضليل التي استخدمت ضدّ العلماء في سبيل تشويه صورتهم، إلاّ أنّهم بقوا كالنجوم الزاهرة يشعّون في سماء الأمّة. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ في ضمير العلماء وسيرتهم الناصعة ما يدعو الناس إلى الإلتفاف حولهم، لأنهم لم يجدوا من هم أكفء وأشجع وأخلص للقضيّة من هؤلاء العلماء الذين يخشون اللّه حقّ خشيته.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٥.

إنهم أنصار الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

أن ينتسب الإنسان إلى حزب الله وجنده، وأن يكون من أوليائه، فهذا شرف عظيم، وهدف سام، وغاية رفيعة.. وإنّ من تطلعات الإنسان المسلم الوصول إلى هذا المستوى السامق، وأن يُعدّ من جند الله وحزبه وضمن أوليائه، ذلك لأن حزب الله هم الغالبون في الدنيا، والمفلحون في الآخرة.

إن أطروحة ﴿حِزْبَ اللهِ﴾ ليست أطروحة تنظيمية مخالفة لسائر المؤسسات الإجتماعية، بل هي أطروحة متداخلة مع المؤسسات الحضارية الأخرى، كما أنها تسمو -في نفس الوقت- إلى مستوى الشهادة والريادة لتتحول من أطروحة فوقية قشرية إلى مشروع قلبي يتفاعل مع وجدان الإنسان من جهة، ومع إيمانه من جهة أخرى.

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤-٥٦.

رؤية القرآن التكاملية نحو التأريخ

ونحن نستوحي من الآيات السابقة الرؤية التكاملية نحو التأريخ؛ بمعنى إن رؤية القرآن إلى التأريخ ليست رؤية تنازلية، فهي لا تدعي أنّ أكمل أيام تأريخ الكون هو اليوم الذي هبط فيه آدم عليه السلام إلى الأرض، ولا تقرر أن أشرف الأيام هو يوم ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعثته وأن السعادة والفلاح قد ختما بوفاته صلى الله عليه وآله وسلم، كما يزعم البعض. فالرؤية القرآنية، والبصيرة الإلهية تقرران أن من الممكن أن يأتي جيل في آخر الزمان هو أفضل وأسمى من الجيل الذي رافق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والدليل على ذلك ما يذكره القرآن الكريم قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فهو يعد بأن جيلًا رساليًّا سيظهر في المستقبل البعيد هو أسمى من الجيل الأول، وهؤلاء القوم الذين يمثلون الجيل الرسالي القادم ليسوا فئة عنصرية، ولا تجمعًا عصبيًا، وليس لهم ولاء طائفي أو أرضي، وإنما هم قوم تجمعهم كلمة التوحيد، وتربطهم وشيجة الإيمان.

وهؤلاء الذي يسميهم القرآن بـ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾، ليسوا مجرد إنتماءات لفظية، لأن الصفات التي لابد أن تتمثل فيهم، وتتجسد بهم، هي صفات سامية لا يمكن أن يدعيها إنسان، وهذه الصفات الرفيعة أتت على ذكرها الآية الكريمة فتقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[2].

وحينما يحدثنا القرآن عن المجاهدين لا يفوته أن يصف المؤمنين القاعدين، ويعدهم بأن تفضيل المجاهدين على المؤمنين الآخرين لا يعني أنه -تعالى- يلغي

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.

دور المؤمنين غير المجاهدين وهم المؤمنون القاعدون. قال الله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

فالمجاهدون لهم صفتهم، والقاعدون لهم صفتهم، وتفضيل المجاهدين على القاعدين لا يعني أن الآخرين ليسوا في حزب الله أو جنده، ولا يرتقون إلى مستوى أوليائه، وبالتالي فإن دورهم ملغي وعلينا أن نحاربهم لأنهم سيدخلون النار لا محالة!

إن هذا التفكير ليس من الصواب في شيء، فهناك درجات يرتقي إليها كلٌّ حسب عمله. فالإسلام درجة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الإيمان واليقين الذي يمثل أعلى الدرجات، وهناك أيضًا درجة الصابرين والمجاهدين والشاكرين، ودرجات أخرى مختلفة.

وللجنة أيضًا أبواب مختلفة، فكلّ فريق يدخل من باب. وباختصار فإن الطموح والتطلع -مهما بلغا- يجب أن ينتهيا إلى تلك الدرجة العالية التي يستقرعندها حزب الله.

وعندما نتحدث عن حزب الله، وعن صفاتهم المثالية التي بينها القرآن في سورة المائدة، فإن حديثنا عن هذه الصفات لا يعني أننا ننال من التجمعات الرسالية العاملة في الساحة من أحزاب إسلامية ومنظمات وجمعيات وحركات ومؤسسات أنى كانت، فكلٌّ منها من الممكن أن يمثل درجة.

ولذلك لا يمكن أن يدعي أحدنا أن هذه الحركة أو تلك قد سمت إلى درجة حزب الله، إلا أن يكون مبالغًا أو مغرورًا. غير أنه من الممكن أن نقول إن فلانًا

(١) سورة النساء، آية: ٩٥.

-كشخص- قد وصل إلى هذا المستوى، ذلك لأن الصفات التي تنسب إلى هذه الفئة ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾، هي صفات سامية من الصعب أن تدعيها أية مؤسسة، ومع ذلك فقد تكون هذه التجمعات الرسالية بأنواعها مراحل وخطوات لتربية المجتمع وسوقه إلى تلك المرحلة السامية، مرحلة حزب الله.

حزب الله في الحوزات العلمية

وهذا الحزب الإلهي الذي يبين القرآن صفاته من الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد الدائم في سبيل الله، وعدم الاكتراث بلوم اللائمين، يجب أن نتخذه هدفًا أساسيًا تتحرك نحوه الحوزات العلمية.

وعبر التأريخ كان هذا التجمع الإيماني متبلورًا وشاخصًا في بعض الحوزات العلمية، وإن كان هذا الشخوص لا يعني أن كلّ من كان في هذه الحوزات كان أسمه مقيدًا في ديوان حزب الله، فهذا إدّعاء لا يمكننا إثباته، ولكننا نفهم من ذلك أن ذلك التجمع الرسالي النقي الذي يؤمن بالله، يكون سندًا للمؤمنين، ويجاهد في سبيل الله، ولا تأخذه في هذا الجهاد لومة لائم... كان متواجدًا في الحوزات بشكل أو بآخر.

وهذا التجمع كان متمثلًا في مراجعنا الكرام، وفقهائنا العدول ومَنْ حولهم مِن الذين يعملون لله مخلصين.. ولذلك نرى أن هذه المجاميع، وهذه الحوزات هي التي حفظت نقاء الإسلام وخلوصه وطهره.. ومن الشعاع الإيماني لهذه الحوزات، كان وما يزال المؤمنون يهتدون بنور الإيمان.

ولقد حافظت تلك المجاميع على الدين الحنيف بتركها الأنانيات، وابتعادها عن العصبيات والطائفيات والحزبيات، وعدم تأثرها بأيّ منها.. ولذلك بات من الضروري أن نجعل هذه القمّة السامية والمتمثلة في الإنضمام إلى التجمع الإيماني لحزب الله هدفنا وغايتنا، والسعي من أجل بلوغ هذه القمّة ونحن نعيش ضمن إطار

الحوزات العلمية؛ يعني أن نبذل الجهود لتزكية أنفسنا، حتى لا تتلوث بأيّة شائبة من شوائب العصبية التي نبذها الإسلام، كما جاء في قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَنْ تَعَصَّبَ عَصَبَهُ اللهُ بِعِصَابَةٍ مِنْ نَارٍ**»(١).

وعلى هذا يجب أن نلغي العصبية، ونخلص أنفسنا لله؛ فلا تمنعنا محبة الصديق أو بغض العدو عن قول الحق، وأن نكون كما تأمرنا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾(٢).

أما إذا وجدنا في الحوزات العلمية عناصر تشيع روح التعصّب والانحراف في الذين آمنوا، فلنعلم سلفًا أن هؤلاء ليسوا من الحوزات الدينية في شيء، وإن الله وحزبه لبريئان منهم جميعًا.

إن المؤمن وطالب العلم والعالِم الرباني هم الذين لا يبحثون عن مصالحهم، ولا عمّن ينتمي إلى تجمعاتهم. وهذا هو أسلوب الحوزات العلمية؛ ففي السابق كان العلماء في الحوزات عبر التأريخ وعلى الرغم ممّا كان بينهم من خلافات في وجهات النظر في المسائل الشرعية، متّحدين كالبنيان المرصوص، فكان كلٌّ منهم يدافع عن الآخر، وكانوا يميتون البدعة، ويحيون السُنة، وينشرون الفضيلة، ولا يبثون السلبيات بين أبناء الأمّة، بل كان شعارهم توحيد صفوف الأمّة وتعميق الألفة بين قلوب أبنائها.

أما من كان ديدنه إشاعة التهم وكلّ ما هو منحرف سلبي، فهو لا ينتمي مطلقًا إلى عمق الحوزات العلمية والتجمعات الإلهية، ذلك لأن من أهم أهدافنا في الحوزات تطهير أنفسنا وقلوبنا من المصالح والذاتيات.. فالذي يتبع مصالحه فإنّما يتّبع هواه، والذي يتّبع هواه يضلّه الله، وبالتالي سوف لا يكون له هاد من دون الله.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٣٠٨.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٥.

فهذا الذي يتبع عصبياته وتحزباته، يعمى عن رؤية الحقيقة، ويحشر يوم القيامة على عماه. قال الله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

ومثل هذا الإنسان لا يفتأ يخلط بين الحق والباطل، والسليم والسقيم، دون أن يعي أو يميز. ولأجل أن لا نكون كهؤلاء ينبغي علينا أن نسأل الله تعالى وندعوه أن يطهر قلوبنا ونفوسنا من العمى، وفي الوقت نفسه علينا أن لا نغتر بأنفسنا، لأن من شأن الغرور أن يوقعنا في نفس الورطة التي تخبّط فيها أولئك من قبل.

فالإستعاذة بالله من شر الشيطان الذي قد يجرّنا إلى هذه الهاوية، وقبل ذلك تنمية الطهر والنقاء الحقيقيين في النفس، يضمنان لنا إجتماع العلم مع التقوى في آن واحد. فالعلم بلا تقوى لا ينفع، كما جاء في الدعاء المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ..**»[2].

غرس الروح الإيمانية في الحوزة

فالمطلوب هو غرس الروح الإيمانية الحقّة في نفوسنا ورعايتها، وذلك بالابتعاد عن العصبيات الجاهلية، واحترام كلّ مؤمن قريبًا كان أم بعيدًا، صديقًا كان أو لم يكن، وأيًّا كانت قوميّته.. ومتى ما بلغنا هذا المستوى، فإننا سنصبح في درجة قريبة من حزب الله تؤدي بنا إلى الإنضمام إليه والإنضواء تحت لوائه.

وفي تجمع الحوزات نستطيع أن نربي أنفسنا تلك التربية الإلهية، وفي هذا التجمع أيضًا تتآلف قلوب المؤمنين. فالمؤمن يحب أخاه المؤمن، لا لأنه يأنس به، ويتفق معه في الآراء، ولا لأن مصالحه مرتبطة مع مصالحه، وليس لكونه ينتمي إلى قوميته.. إنه يحبه لأجل ما هو أسمى من ذلك وأرفع، ومع ذلك فإن هذا الحب يجب أن يلزم المؤمن جانب الحق عندما يختلط الحق بالباطل، ولا يلتزم جانب

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٢.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٥، ص٦٩.

الحب والأخوة والصداقة.

وعلينا أن نتذكر إن تنمية هذه الروح، وإماتة العصبية والصلات الأخرى التي تربطنا بالأرض، وتجرنا إليها، هي عملية صعبة ومرهقة في نفس الوقت. وفي هذا المجال هناك حادثة تأريخية تروى عن أيام السلاطين السابقين في إيران، حيث غضب أحد السلاطين في ذلك الحين على أحد علماء إصفهان، وأمر بابعاده إلى طهران ليحاكموه فيها، وكان في طهران عالمان متنافسان لا يفتأ كلٌّ منهما ينافس الآخر، ويختلف معه في شتى المسائل، وفي منتصف الليلة التي سبقت وصول العالِم الإصفهاني قصد أحد العالِمَيْن بيت الآخر وطرق بابه، ففوجىء الأخير بهذا اللقاء وسأله: ما الذي جاء بك؟. فأجابه: إن بيني وبينك تنافسًا، أليس كذلك؟. فقال: بلى. فقال العالِم الأول: ولكن (فلان) ذلك العالِم الرباني قد أمر السلطان بابعاده من إصفهان إلى طهران ليحاكم فيها، ومتى ما أهين هذا العالِم فقد أُهِنّا كلانا، أنا وأنت، بل وأهين الإسلام أيضًا، ولذلك فإن من واجبنا الآن أن نتحد للدفاع عن الإسلام.

فأجابه صاحبه مستفسرًا: وما الذي يجب أن نعمله الآن؟.

فاتفقا فيما بينهما على ما يريدان فعله. وفي اليوم التالي حيث موعد وصول القافلة التي أرسل فيها ذلك العالم الإصفهاني مخفورًا، كان الملك جالسًا في قصره وإذا به يسمع مناديين إثنين كلٌّ منهما يمثل واحدًا من العالِمين المتنافسين، يناديان قائلين: بأمر من العالِم (الفلاني) والعالِم (الفلاني) يجب على جميع الناس أن يتركوا أعمالهم، ويتوجهوا إلى باب المدينة لاستقبال ذلك العالِم الجليل.

وعندما سمع الملك المناديين إستغرب وقال: ما الذي جمعهما على أمر واحد؟ ثمّ استشار وزيره، فأشار عليه أن يذهب هو أيضًا (أي الملك) لاستقبال ذلك العالِم، وإلاّ قامت ثورة ضده. وبعد ذلك ذهب الملك مع وزرائه وأمرائه

لاستقبال هذا العالِم، وقد أريد به أن يُحاكَم ويُعتقل في طهران، فإذا به يُكرَّم أجلّ وأعظم إكرام.

إن هذه الحادثة التأريخية التي اّتحد فيها ذانك العالِمان تعني أن روح ﴿حِزْبَ اللهِ﴾، في داخل نفس المؤمن لابد وأن تتجلّى في لحظة من اللحظات، وتتجلّى معها الروح الإيمانية والقيم الإلهية، ومن ثمّ يترك الإنسان مصالحه وإنتماءاته كلّها، ويؤوب إلى الإنتماء الأول وهو الإنتماء الإلهي.

وعندما يوفق الإنسان المؤمن إلى غرس الروح الإيمانية الأصيلة في داخله، يمكنه بعد ذلك أن يتدرج في مراحل عدة، حتى ينضوي تحت لواء حزب الله، ذلك لأنه نجح في غرس محتوى هذا الحزب في نفسه.

كيف نغرس هذه الروح بين صفوف الأمة؟.

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: كيف نغرس هذه الروح في الأمّة؟.

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إن غرس مثل هذه الروح يتمّ عبر مرحلتين:

المرحلة الأولى:

العمل على تنمية هذه الروح وترسيخ جذورها. فعندما يخرج -مثلًا- شخص ما إلى السوق، ويرى كتابًا نافعًا ولكنه يقول: إن هذا الكتاب ليس لي ولا لجماعتي، بل هو للجماعة الكذائية فلذلك لن أقتنيه. فإن مثل هذا السلوك غير صحيح؛ فالكتاب القيّم هو لمنفعة الجميع، وينبغي أن يشتريه الجميع ليكون في متناول أيديهم، ولا يصحّ أن نصفه بالباطل، ونقول عنه غير الحق.

إن الروايات والأحاديث الشريفة كلّها تهدف إلى إنشاء تجمع إيماني يتمثل في حزب الله من خلال الوصايا الأخلاقية التي تقدّمها هذه الروايات من حرمة الحسد والتهمة والغيبة، وحرمة إشاعة الفاحشة والفساد، وضرورة حب المؤمنين

في الله، والدعاء لهم في جوف الليل.. وكثير من الوصايا والتعاليم والواجبات تنصبّ في قناة واحدة، وتجتمع ضمن إطار واحد، لتشكل محتوى ذلك التجمع الإيماني الذي أسماه القرآن الكريم بـ﴿حِزْبَ اللهِ﴾.

والمطلوب منا أن نقرأ هذه الروايات، وأن نصنع من أنفسنا على ضوئها مثالًا واقعيًا، شريطة أن ننسلخ عن الذاتيات وعن الولاءات الدنيوية، وننتمي إلى ولاء واحد هو ولاء الله سبحانه وتعالى، وحينئذ سنكون مؤهلين للدخول في المرحلة التالية وهي مرحلة إشاعة روح التآلف والتحابب والإخلاص لقضية التوحيد في المجتمع، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

المرحلة الثانية:

على أفراد المجتمع المسلم أن يتآخوا، ويجتمعوا مع بعضهم البعض، وإن لم تربطهم أية تنظيمات ولم تجمعهم أية مؤسسات.. وإن كانت هذه الأمور صحيحة وسليمة بحدّ ذاتها، وعلى هؤلاء المؤمنين أن يتفاعلوا، ويدافعوا عن بعضهم البعض، ويحمي كلّ منهم الآخر، ويستشيره وينصحه، ويستنصحه، ويتعاون معه في كلّ المجالات.

وفي الليل عندما تنام الأعين وتسكت الأصوات، ويتجه قلب المؤمن إلى الله في معراج روحي سام، حينئذ يكون بإمكانه رفع يديه في الوتيرة وفي آخر قنوت من الركعة الأخيرة لصلاة الليل ويدعو لأربعين مؤمنًا، وعندما تذكر في جوف الليل المؤمنين فتقول: اللهم ارحم فلانًا.. وتسمّيه بإسمه، فإن حبه سينغرس في قلبك. وتبعًا لذلك فإن الله تبارك وتعالى يلهمكما الحب، ويربطكما به، وغدًا عندما تلقاه سترتاح إليه، وتأنس به، وعندما تجلس وتتحدث معه تزول بينكما كلّ الحواجز، وتنمحي بينكما كلمة (الأنا) لتحلّ محلها كلمة (نحن).

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

ومن الملاحظ في نهاية فريضة الصلاة تسلم أولًا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قائلًا: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**»، فإنّك تشكل بذلك الإطار العام لولائك للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعده تتدرج قائلًا: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ**». ومن ثمّ تقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**»[(١)].

ففي التسليم نبدأ أولًا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ على أنفسنا وعباد الله الصالحين، ثمّ المجتمع العام. وهذه من سمات الحوزات العلمية الدينية، حيث تنعدم فيها الأنانيّات البغيضة، لتسود محلّها المحبّة والوئام والوحدة.

الولاء يزيد الإيمان

إن حب أولياء الله، وبغض أعدائه؛ أي التولي والتبري، هما من قواعد فروع الدين إن لم نقل إنهما من الأصول، باعتبارهما ينتهيان إلى الولاية لله تعالى ولأوليائه وهي من أصول الدين. وهاتان الصفتان مرتبطتان بالخط التاريخي، ولا ينحصران في وضعنا الراهن.

فنحن حينما نوالي أئمتنا المعصومين عليهم السلام، فإن ولاءنا هذا سوف يزيد من إيماننا، لأن التجمع الذي يلتزم بهذا الولاء هو الذي يمثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قمّته، ومن ثمّ الأئمة المعصومين عليهم السلام والفقهاء في التاريخ، وهو الذي إنضم إليه الأنبياء عليهم السلام، الذين أرسلوا قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كذلك المؤمنون من قبل ومن بعد حتى يوم القيامة، كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

فهذه هي صفات التجمع الإيماني، ووظيفتنا تجاه من نحبه ونواليه هي أن

---

(١) الاستبصار، ج١، ص٣٤٧.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٠.

نعرفه ونطّلع على جميع جوانب حياته. ومن المؤسف جدًا أن يدّعي أحدنا أنه يوالي الأئمة المعصومين عليهم السلام، أو أنه ينتمي إلى حزب الله، ثم لا يعرف شيئًا عن أئمته عليهم السلام متى ولدوا، ومتى استشهدوا، وماذا فعلوا، وما هي كلماتهم الوضاءة، وسيرتهم العطرة.

وعلى هذا يجدر بنا أن نجعل معرفة الأئمّة عليهم السلام معرفة تفصيلية من ضمن برامجنا الحياتية؛ فعلينا أن نعرف حياتهم، وسيرتهم، ووصاياهم، وظروفهم التي مروا بها.. فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(١)].

وإعلان ولائنا لله وللرسول والذين آمنوا، هو إعلان سلوك وفعل قبل أن يكون قولًا، وهو شرط أساسي نستكمل به الإنضمام إلى حزب الله الذي يصفه القرآن بالمنعة والغلبة في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(٢)].

والقرآن عندما يتحدث عن حزب الله وغلبته، فإنه يشير إليه بصيغة الجمع لا المفرد، ذلك لأن هذا الحزب ليس تكوينًا هلاميًّا ومثاليًّا، بل هو تجمع إيماني يتكون من مجموعة مؤمنين متّحدين مع بعضهم، وحينئذ يكونون: ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٦.

الفصل الثاني : أهداف المعهد الإسلامي

- الهدفيّةُ
- الدُّعاةُ إلى اللهِ
- الإصلاحُ في الأَرضِ
- بِناءُ المُجتَمَعِ
- البَلاغُ

الهدفية

إن الموضوع الأساسي الذي ينبغي للإنسان المسلم أن يضعه نصب عينيه قبل كل دراسة، بل قبل كل عمل، هو ما تسميه الشريعة الإسلامية بـ (النية).

فالنية ضرورية قبل البدء بأي عمل، فنحن لا يمكننا أن نصلي أو نتوضأ أو نغتسل بغير النية، فبدونها يصبح العمل باطلًا.

النية نقطة إنطلاقة التعلم

وبما أن طلب العلم يمثل واجبًا شرعيًا، ويستغرق فترة طويلة من الزمن، فإنه يحتاج إلى نية أيضًا. فقبل أن نبدأ بأية دراسة علينا أن ننوي؛ وبمعنى آخر: أن نحدد الهدف من هذه الدراسة، فإن لم نفعل، قد لا نثاب على ذلك؛ أي إن الله تعالى سوف لا يمنحنا الأجر على ذلك العمل ولا يتقبله منا.

وعلى هذا فإن السؤال الهام المطروح الآن هو: كيف نحقق النية والهدفية قبل الدراسة؟.

علينا أن نبحث عن إجابة على هذا السؤال قبل البدء بالدراسة، كما وعلينا أن نتساءل عن دورنا في الحياة، وماذا يجب أن نعمل، ولمن نعمل وندرس؟.

قبل كل شيء ينبغي أن نعرف أن الشخص الذي يقدم على عمل ما بنية خالصة لله تعالى، فإن عمله يختلف عمن سواه. فهناك بون شاسع بين من يمارس الرياضة، ويقوم بحركات متنوعة دون نية مسبقة، وبين من يصلي لربه بتوجه ونية مقرونة بأعمال وحركات ثابتة لا تتغير. فالعمل الأول عمل فوضوي، والثاني عمل منظم له أبعاد وحدود. وكذلك هو شأن الذي يدرس في سبيل الله حيث يصب طاقاته وجهوده في قنوات معينة، تصب كلها في هدف واحد هو الله عز وجل.

أصناف طلبة العلم

ونحن نرى أن الكثير من الأحاديث الشريفة تؤكد على ضرورة تعيين الهدف عند الدراسة، ومن هذه الأحاديث ما جاء في كتاب (منية المريد)[١]، وكتاب (آداب المتعلمين)[٢]، والمقصد الأول من كتاب (معالم الدين)[٣]، والجزء الأول والثاني من موسوعة (بحار الأنوار)[٤]... ومن جملة هذه الأحاديث ما جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في تقسيم المتعلمين إلى ثلاثة أقسام، حيث قال عليه السلام: «**طَلَبَةُ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ، أَلَا فَاعْرِفُوهُمْ بِصِفَاتِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ: صِنْفٌ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ لِلْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ لِلاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ لِلْفِقْهِ وَالْعَقْلِ**. ثم يضيف أمير المؤمنين عليه السلام القول: **فَأَمَّا صَاحِبُ الْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ، تَرَاهُ مُؤْذِيًا مُمَارِيًا لِلرِّجَالِ فِي أَنْدِيَةِ الْمَقَالِ؛ قَدْ تَسَرْبَلَ بِالتَّخَشُّعِ وَتَخَلَّى مِنَ الْوَرَعِ، فَدَقَّ اللهُ مِنْ هَذَا حَيْزُومَهُ وَقَطَعَ مِنْهُ خَيْشُومَهُ**»[٥].

فالقسم الأول يتعلم من أجل أن يكون محط إهتمام الناس، ويجدّ في دراسته من أجل الشهرة، ومن أجل أن يرتقي المنبر ليحظى بإستحسان مَنْ حوله مِن الجماهير،

---

(١) كتاب (منية المريد في آداب المستفيد) للشهيد الثاني.
(٢) كتاب (آداب المتعلمين) للشيخ نصير الدين الطوسي.
(٣) كتاب (معالم الدين وملاذ المجتهدين) للشيخ جمال الدين الحسن ابن الشهيد الثاني.
(٤) موسوعة (بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار) للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي.
(٥) الأمالي (الصدوق)، ص٦٢٩.

وبإعجابهم، فيختال في مشيه بين الناس، ويطير غرورًا وعُجبًا.. وهؤلاء إنما يدرسون للمراء، فيدخلون كل مجلس ويتحدثون ليبينوا للناس بأنهم أعلم وأفهم من الجميع، كما كنا نرى ذلك جليًا في مقاهي العراق حيث كان يردها الشيوعيون ليخوضوا فيها جدالًا ونقاشًا عنيفين من أجل أن يشير إليهم المجتمع بالبنان، وينعتهم بالفهم والعلم والثقافة.. وعقبى هذا القسم من الناس عذاب الله، فيدق حيزومه ويقطع خيشومه.

القسم الثاني يمثل وعاظ السلاطين، الذين قال فيهم أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَأَمَّا صَاحِبُ الِاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيلُ عَلَى أَشْبَاهِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَيَتَوَاضَعُ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنْ دُونِهِمْ؛ فَهُوَ لِحَلْوَائِهِمْ هَاضِمٌ، وَلِدِينِهِ حَاطِمٌ، فَأَعْمَى اللهُ مِنْ هَذَا بَصَرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ آثَارِ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ»**[١].

أما **القسم الثالث** فهو على خلاف الأقسام السابقة، إذ لا يتعلم من أجل المراء والجدل، ولا من أجل الإستطالة والختل، بل يتعلم من أجل الله وحده، فيتقبل منه ربه علمه وعمله ويرضى عنه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَأَمَّا صَاحِبُ الْفِقْهِ وَالْعَقْلِ، تَرَاهُ ذَا كَآبَةٍ وَحَزَنٍ، قَدْ قَامَ اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ، وَقَدِ انْحَنَى فِي بُرْنُسِهِ، يَعْمَلُ وَيَخْشَى خَائِفًا وَجِلًا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، إِلَّا مِنْ كُلِّ ثِقَةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَدَّ اللهُ مِنْ هَذَا أَرْكَانَهُ، وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَانَهُ»**[٢].

والأحاديث التي تبين فضل هذا النوع من العلماء كثيرة، منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»**[٣].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْكَوَاكِبِ»**[٤].

---

(١) الأمالي (الصدوق)، ص٦٢٩.
(٢) الأمالي (الصدوق)، ص٦٢٩.
(٣) منية المريد، ص١٠٠.
(٤) بصائر الدرجات، ص٨.

وثمة كلمة قالها رسول الله ﷺ بحق العلماء، هي: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»(١).

وإنها لكلمة عظيمة تقال في حق العلماء، فبالرغم من أن أنبياء بني إسرائيل مثل موسى وعيسى عليهما السلام كانوا على اتصال دائم بالله عن طريق الوحي، وأصحاب كتب مقدسة، وأن بعضهم كان من أولي العزم، نجد أن علماء أمة الرسول محمد ﷺ لهم منزلة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وأجرهم، وقربهم من الله تعالى.

وهناك أحاديث أخرى كثيرة تجلت فيها منزلة العلماء، حتى أن نومهم يفضل على عبادة العابدين، كما جاء في الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ: «**نَوْمُ الْعَالِمِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ**»(٢).

وفي حديث آخر يقول ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ وَرَقَةً وَاحِدَةً عَلَيْهَا عِلْمٌ، تَكُونُ تِلْكَ الْوَرَقَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِتْراً فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ، وَأَعْطَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكُلِّ حَرْفٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا، مَدِينَةً أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا سَبْعَ مَرَّاتٍ..**»(٣).

إن هذ المنزلة الرفيعة والدرجة المرموقة لن يصل إليها العالِم بعلمه وحده، وإنّما بإخلاص نيته من أجل الله وحده وفي سبيله.

ولا يكتفي رب العزة بذلك، بل يوكل بطالب العلم الملائكة والمخلوقات لكي تستغفر له. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**طَالِبُ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ**»(٤).

وهذا الثواب كلّه لطالب العلم، وعندما يتخطى هذه المرحلة؛ أي يصل إلى

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣٢٠.
(٢) من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦٥.
(٣) الأمالي (الصدوق)، ص٣٧.
(٤) بصائر الدرجات، ص٢٤.

مرحلة تعليم العلم ونشره في المجتمع، فإن ثوابه سيتضاعف أضعافًا مضاعفة، وتبلغ درجة العالِم الذروة عندما يتيح له الله عز وجل أن يشفع في أمته. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ فَيُشَفَّعُونَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**»(١).

وهذا هو شأن العالِم في الآخرة، أما في الدنيا فإن الله يبارك له في عمره وصحته، ويطيب سمعته، ويحسن أخلاقه.. ما دام ملتزمًا بخط الله تعالى.

الإجتهاد في طلب العلم

والعلم بحر واسع وزاخر بما فيه من كنوز، والإنسان لا يتوغل فيه معرفة إلا وازداد تعطشًا للمزيد، ولذلك فقد أكبّ العلماء على تعلم العلم، وجدّوا في طلبه، كلٌّ باسلوبه الخاص، إلا أن أمرًا واحدًا جمعهم، وبلغ بهم تلك المرتبة السامية، ألا وهو الإجتهاد في طلب العلم.

ويروى عن العالم البروجردي رحمه الله أنه كان يواصل المطالعة حتى يغالبه النعاس فينهض ويقرأ الكتاب من وقوف لئلا يستحوذ عليه النوم، والعلامة الطوسي رحمه الله كان يضع عند قدميه حين النوم إناء من النحاس تحته شمع متوهج ليسخن الإناء بعد دقائق فيستيقظ على أثر حرارته، وهكذا كان العالِم كاشف الغطاء رضوان الله عليه الذي عُرِف عنه أنه كان يتكىء عند النوم على الحائط بعد أن يجلس القرفصاء ثم يغفو لينتبه بعد دقائق قليلة. وقد كان هذا حال جميع العلماء إذ كانوا يعرفون قيمة الوقت فلا يستغرق نومهم سوى ساعة أو ساعتين، فلم يصبّوا جل إهتمامهم على النوم والأكل، بل كان همهم الأكبر الإستفاضة من العلم خدمة للأمة وللبشرية جمعاء.

إن المواظبة على هذا النمط من الحياة التي يحياها العلماء لا تتحقق إلا

(١) الخصال، ص١٥٦.

بالممارسة والإعتياد، الأمر الذي يتطلب بعض التمارين والتدريبات الشاقة في البدء حتى يتعود الإنسان على طابع الخشونة في حياته، متحديًا نفسه وهواه.

ونضرب هنا مثالًا آخر على ذلك في المرجع الراحل آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي ﷺ، الذي أثرى المكتبة الإسلامية بأكثر من ألف كتاب؛ فبالإضافة إلى تخصيصه الوقت اللازم للكتابة، فإنه خصص أوقاتًا أخرى للتدريس وإستقبال الناس ومطالعة الكتب المختلفة.. إلى آخر ذلك من الأعمال التي واظب على تأديتها حتى في أوقات مرضه.

ومثل هذا البرنامج لم يتأت عفويًّا، بل كان نتيجة لممارسة وإجتهاد وإرادة تمخضت عن هذه العادات الخيرة. ومن المعلوم أن عمر الإنسان في الدنيا قصير للغاية، فلا يحسن به أن يقضي هذا العمر كله في النوم واللهو والعبث، فيقف في الآخرة بين يدي ربه لا يجد جوابًا حينما يُسأل عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه.

وباختصار؛ فإن على طلاب العلم إخلاص النية لله جل وعلا، والإهتمام بتعويد النفس على الأعمال الصالحة، والعادات الحسنة، والإجتهاد في طلب العلم بعزم وتصميم راسخين، وسيؤيدهم الله حينذاك، ويوفقهم ويسدد خطاهم لما فيه الخير والصلاح.

الدعاة إلى اللّٰه

الحقيقة التي لا نشك فيها، والتي تزداد الشواهد عليها يومًا بعد يوم، هي أن العالَم ينتظر النجاة على يد المؤمنين الصادقين الذين يتحملون مسؤولياتهم بصدق، ويحملون إلى الناس النور والهدى. بيد أن هناك موضوعًا آخر يحتاج إلى التأكيد عليه، وهو أن هؤلا ء المؤمنين يجب أن يتصفوا بصفات معينة لكي يتمكنوا من أداء مهامهم وواجباتهم بالطريقة المثلى، وذلك التأكيد يعود إلى أنّ أمام الإنسان في تحمله لمسؤوليات الدعوة قضيتان:

- إسقاط الواجب الشرعي عن عاتقه (إبراؤه لذمته)، والقيام بمسؤوليته التي يطالبه بها الله سبحانه وتعالى.
- الوصول إلى الهدف، وتحقيق الغايات السامية التي تنشدها البشرية أو -على وجه الحصر- أبناء الأمة الإسلامية.

ولا تغني بأية حال من الأحوال إحدى القضيتين عن الأخرى؛ أي لا يمكن أن نكتفي بإسقاط الواجب (تبرئة الذمة) كائنًا ما كان ذلك، لأن إسقاط الواجب قد يتحقق من خلال القيام بظاهر العمل وقشوره ولكنه لا يحقق هدف العمل، ولذلك فإنه قد لا يكون مقبولًا عند الله سبحانه وتعالى.

فإذا كان هدفك في الصلاة -مثلًا- تأدية الواجب وإسقاطه وتبرئة ذمتك منه، فيكفيك آنئذ أن تؤدي ظاهر الصلاة فحسب ليسقط الواجب عنك، وليس عليك إعادة الصلاة إن كانت صلاتك هذه خالية من الخشوع والتقوى، ولكن هذه الصلاة لا تعد معراجًا لك إلى الله تعالى ولا قربانًا لك عنده، ذلك لأن محتوى هذه الصلاة والغاية المتوخاة منها معدومتان، وبالتالي فإن الله تعالى قد لا يتقبلها، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١].

فالمتقون هم الذين لا يهدفون من الصلاة قشورها وظواهرها، وإنما ينشدون محتواها، ويتطلعون إلى غاياتها، ويسعون من أجل تحقيق أهدافها. فبالصلاة يعرجون إلى الله، وبالصلاة يتبتلون إليه -عز وجل- ويستلهمون منه العزيمة والإرادة والإيمان.

وكذلك العمل في سبيل الإسلام يجب أن لا يكون هدفه إسقاط الواجب وإبراء الذمة، فهذا العمل لن يكون مقبولًا عند الله حينئذ، لأنه يفتقر إلى عنصر التقوى الذي يدعونا إلى السعي نحو إتقان العمل وتحقيق محتواه وغايته وهدفه.

فالهدف من الدعوة إلى الإسلام، ونشر التعاليم الإسلامية، وتأليف الكتب، وكتابة الدراسات.. ليس لمجرد العمل، وإنما العمل لإقامة حكم الله في الأرض، وإسقاط الطغاة، وإحياء العدل، وإماتة الباطل، إذ الهدف هو إماتة البدعة، وإحياء السنة، وتحرير الإنسان من الجبت الداخلي والطاغوت الخارجي.

توفير عوامل النصر

فهذا الهدف -إذن- لا يتحقق إذا كان عملنا لمجرد العمل، ولمجرد إسقاط الواجب وإبراء الذمة، ولذلك يجب علينا أن نفكر ونخطط ونعمل على توفير عوامل النصر في أنفسنا، فإذا لم تجتمع هذه العوامل ولم تتكامل في زمان ومكان

(١) سورة المائدة، آية: ٢٧.

معينين فإنها لا تحقق نصرًا.

وهذا ينبغي أن لا ينحصر في ترديد الشعارات أو القيام بالأعمال الفارغة، لأن هدفنا ليس القشور والمظاهر، وليس هدفنا أيضا القيام بعمل ما وفي مكان وزمان كيفما اتفق، بل إن هدفنا هو إحقاق رسالة الله وحاكميته في الأرض، وهذا الهدف الأخير لن يكون إلا إذا اجتمعت كل الشروط والعوامل في مكان واحد وفي لحظة واحدة.

فما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون ليحققوا النصر، وهو إقامة حكومة العدل الإلهي، وطرد شياطين الإنس من على وجه البسيطة؟.

لنعلم في البدء وقبل أن نجيب على هذا السؤال، أن ذكر هذه الصفات ليس لمجرد الموعظة، وإنما لإظهار فكرة متكاملة، تمنحنا برنامجًا متكاملًا.

وعلى هذا فإن بياننا لهذه الصفات هو دعوة لأن نسعى جادين وبعزيمة راسخة ومثابرة من أجل تحقيق هذه الصفات في أنفسنا. فخيارنا اليوم هو العمل الجدي من أجل تحقيق أهدافنا، وإلا فإن دمارنا وهلاكنا وهلاك الشعوب جميعًا دون هذا الخيار.

أما عوامل النصر، أو تلك الصفات الممهدة لتحقيق النصر، فهي:

١- التواضع

فالتواضع هو ما يجب أن يحققه كل داعية في نفسه، وهو صفة مقابلة للكفر والشرك والإستكبار والنفاق. والذين ينغمسون في بؤرة النفاق، وينساقون إلى الشرك، وينقادون من قبل أهوائهم إلى درك الكفر، ليسوا أناسًا من غير طينتنا، بل هم أناس مثلنا، ولكنهم ينساقون وراء كبريائهم وأنانياتهم، وبالتالي وراء تلك الصفة المعاكسة لصفة التواضع.

والتواضع يمثل قمة لا يرقى إليها إلا الذين رسخت أقدامهم في العلم، واشتدت عزائمهم في الله. ومن ازداد علمًا ازداد تواضعًا؛ فهؤلاء هم الذين يصلون إلى قمة التواضع التي تمثل قمة الحق. وطالب العلم إن لم يكن متواضعًا، نراه يختلف مع أقرانه، ويغتر بما يعرف من الكلمات البسيطة، ويجعل بينه وبين الآخرين حاجزًا من الغرور، فيسجن نفسه وراء هذه الحواجز، ويحبسها في سجن التكبر والعجب والخيلاء.. والذي لا يتواضع للحق، نراه يندفع وراء أهداف ثانوية يدفعه إليها غروره وطيشه وأحيانًا إنفعالاته الآنية، كما أن الإنسان إذا لم يكن متحليًا بالتواضع في سبيل الله فسوف يؤدي أعماله لإثبات شخصيته وذاته، وبالتالي فإنه سيضل السبيل.

٢- التعطش إلى العلم

إن الداعية هو الإنسان الذي يريد أن يقود الحياة، والحياة بدورها يقودها العلم ولا يمكن أن يقودها الجهل. قال الله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[(١)].

فالعلم يعلو ويحكم، وإنّا لنجد كيف إن الملوك هم حكام على الناس، في حين أن العلماء هم حكام على الملوك. ونحن لا نجد أحدًا يحكم دولة أو حتى مجموعة بسيطة لو لم يكن عالِمًا أو معتمدًا على عالِم.

فالعلم -إذن- هو الحاكم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والداعية عندما يريد أن يحكم فإنه لا يمكنه أن يحكم بالجهل، لأن الإسلام بدوره لا يدعو إلى حياة ملؤها الجهل والرذيلة، فهو يدعو إلى العلم لا إلى ماهو مناف للعلم.

إن المتخلفين اليوم عن ركب الحضارة، إنما يتخلفون لأنهم مجردون من العلم، أما المسايرون لركب الحضارة فهم أصحاب العلم وأصحاب الثقافة

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

المتطورة المزدهرة.

وللأسف فإن الدور الذي تلعبه الجامعات في البلاد الإسلامية اليوم هو دور ميؤوس منه، ذلك لأنها تلهث وراء الحضارة الغربية بنفسية منهزمة وإرادة مشلولة وتبعية مطلقة وتقليد أعمى، ولا أجدني بحاجة إلى ذكر شواهد وأدلة على هذا الإستنتاج؛ فالعمران في بلادنا والمصانع وما إلى ذلك لم تظهر إلى الوجود إلا على أيدي الأجانب وبخبرتهم، فحتى لو أردنا أن نبني سدًا بسيطًا لبحثنا عن هيئة دولية نستشيرها في كيفية بنائه!.

ولهذا السبب وغيره نقول إن الدور الذي تلعبه دُور العلم في بلادنا يدعو إلى اليأس أكثر مما يدعو إلى الأمل.

في مقابل ذلك نجد أنفسنا مفعمة بالأمل والطموح إزاء تلك الصفوة المؤمنة المخلصة التي نذرت نفسها لله، واستقلت ثقافيًّا ونفسيًّا عن الشرق والغرب، فارتبطت بالتاريخ الإسلامي الأصيل، واستعادت ثقتها بنفسها، هذه الصفوة تشمل طلائع الأمة وقادتها المستقبليين الذين تلوا القرآن، وتدبروا في آياته، واستلهموا منه روح المقاومة والمبادرة والتحدي.

ولو توجه هؤلاء المؤمنون إلى العلم والى مكاسب الحضارة إذن لاستطاعوا أن يستوعبوا حسنات هذه الحضارة وصفاتها الإيجابية ليدمجوها ويربطوها بالحسنات في تأريخهم الإسلامي الأصيل، ليكوّنوا من هذا المزيج الحضارة المنشودة للإنسانية المعذبة.

إن الدور الريادي الذي ستلعبه هذه الصفوة ليس حدثًا نتنبأ به لوحدنا، بل إن كبار المفكرين والمحللين السياسيين وعلماء التأريخ في الغرب يؤمنون هم أيضًا بهذه الحقيقة، ذلك لأن بحث هذه الصفوة عن العلم ليس بحثًا إنهزاميًا ولا تقليديًا ولا من أجل تكريس التخلف وسيادة الغرب عليهم، وإنما بحثهم هذا هو من أجل

إعادة صياغة شخصيتهم في الحياة، كما أن بحثهم هذا ليس من أجل اللحاق بركب الحضارة الغربية وإنما من أجل سبق هذا الركب والتفوق عليه.

فاليابان -مثلًا- كانت متخلفة عن العلم، فلم تتفجر الثورة العلمية أول ما تفجرت فيها، ومع ذلك وبعد التطور الذي وصل إليه هذا البلد فإننا نرى اليوم أن الغربيين بحثوا في أحد المؤتمرات التي عقدت في العالم الصناعي (أي الولايات المتحدة ومجموعة البلدان الأوروبية الغربية)، بحثوا عن طرق اللحاق باليابان، والكيفية التي يستطيعون بها أن يمنعوا سيل البضائع اليابانية التي غزت أسواق أميركا وسائر الدول الغربية!.

لقد تم لليابانيين الحصول على هذه المكانة بين البلدان المتطورة وفي أسواقها، لأنهم كانوا يعلمون منذ البدء أن عليهم أن يبلغوا مستوى حضارة الغرب، بل وأن يتجاوزوه ويتفوقوا عليه قبل غيرهم. فتحسسوا منذ البدء أصالتهم، ولذلك فإنهم لم ينهزموا نفسيًا أمام التقدم الغربي، وهم حينما بحثوا عن العلم فإنهم لم يبحثوا عن فتاته وعما قد يجود به هذا العلم وهو في أيدي الغربيين، إنما بحثوا عن جوهر العلم، بحثوا عن المنهج الذي مكّن الغربيين من الوصول إلى مستواهم هذا دون أن يقلدوه.

وعلى هذا فمن الخطأ أن نقلد المنهج الفكري والسلوكي الذي دفع بهؤلاء إلى اختيار أفضل السبل في حياتهم، ومن الخطأ أن نحاكيهم في بنائهم لسد ما أو مبنىً ما، فنحن نمتلك ولا شك منهجًا هو أفضل مما يملكون، ولو اتبعنا هذا المنهج الذي نمتلكه لاستطعنا أن نصل إلى ما وصلوا إليه، بل وأن نسبقهم.

٣- عدم الإقتصار على العلوم الدينية

والمهم في ذلك كله هو أن لا نستهدف من إتباعنا للعلم إتباع العلم الديني فحسب، صحيح أن الدين هدف سام وجوهرة ثمينة ولكن لا يكفي أن نكون على

علم بنصوص الدين فقط، بل يجب أن نتخذ من هذه النصوص بصائر للحياة. فالقرآن يأمرنا بالتفكر والتبصر، وأن نجعله مصباحًا ونورًا لنا. فكما أن الإنسان لا يمكن أن يكتفي بوجود الضياء ويحتاج إلى العين ليبصر بها هذا الضياء، كذلك قراءة القرآن باعتباره ضياء فإنها لا تكفي دون أن نمتلك البصيرة التي نستشف بها الحقائق. فالضياء يوفر شروط الرؤية التي يجب أن تتحقق عن طريق تفكر الإنسان بنص الحديث الشريف المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»[1].

والقرآن الكريم أكد ذلك بتعابير مختلفة، من مثل: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[4]. فالقرآن كله دعوة إلى أن نحرك أفكارنا ونبصر الأمور بعمق.

فالقرآن -إذن- هو منهج لفهم الحياة، والدين ككل هو منهج لتحصيل العلم الصحيح، أما الذين يستغنون بالدين عن العلم فإنهم في الحقيقة يكتفون بمعرفة الدين دون العمل، ويشبه هؤلاء مَنْ يكتفون بتعلم واجبات الصلاة ومستحباتها وشروطها ومقدماتها وتعقيباتها دون أن يمارسوا الصلاة. هذا سلوك خاطىء، لأننا إنما نتعلم لكي نعمل. فنحن عندما نتعلم نصوص الدين ورؤاه وبصائره، فإنما نتعلمها من أجل فهم الحياة. فالبحث عن العلم وتقصّيه، إنما هو واجب أساسي من واجبات الداعية.

وعلى هذا فإن دور الداعية هو كدور المرآة التي تستقبل الأشعة من كل مكان، والأشعة هنا هي أشعة العلم والمعرفة، ثم يأتي دور العقل ليفرز بين الأفكار

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٧.
(٢) سورة يس، آية: ٦٨.
(٣) سورة الحشر، آية: ٢١.
(٤) سورة النساء، آية: ٨٢.

السليمة والباطلة، وبين العلم المفيد والمضر.

أما الذين يتصورون أن عالم الدين والداعية إليه يجب أن يكتفيا بمعرفة القرآن وتفسيره وتأريخه، فهؤلاء لا يدركون حقيقة القرآن ولا يمكن أن يصلوا إلى فهمه، لأن القرآن لا يُفهم إلا من خلال التجربة العملية ومن خلال تطبيقه على الواقع الخارجي، والقرآن لا يزيد الظالمين إلا خسارًا لأنهم لا يطبقونه. فهو شفاء، ولكن للمؤمنين، أما للظالمين فهو داء لأنهم لا يعملون به.

ومن هنا نؤكد على ضرورة طلب العلم بحرص، وخصوصًا تلك المعارف الإنسانية المرتبطة بعلم النفس والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، وسائر العلوم التي ترتبط مباشرة بحياة الإنسان، بل حتى العلوم المتعلقة بالمهارات الإنسانية، وكيفية الانتفاع من الوسائل والأجهزة الحديثة التي تسهل عملية الدعوة إلى الإسلام. فالذين لا يعرفون -مثلًا- كيفية استخدام التقنيات الحديثة في مجال التواصل الإجتماعي وغيره، فإن هؤلاء يتخلفون عن دعوتهم درجات.

ولذلك فليس من اللائق بنا أن نعيش بين الكتب، بينما يعيش العالم في عصر العقول الألكترونية، والسبب في ذلك يعود إلى عدم اقدامنا الجدي على تعلم كيفية إستخدام المعطيات المتطورة للصناعات الحديثة.

وعلى هذا فإن هناك نوعين من المعارف يجب على الداعية أن يكون سباقًا إلى معرفتهما:

- المعارف الإنسانية التي تتصل مباشرة بقضايا وهموم الإنسان.
- المعارف المرتبطة بمهارة الإنسان، وقدرته على استخدام الوسائل الحديثة من أجل أن يوصل صوته إلى الناس، ويحقق أهدافه الإسلامية النبيلة.

وهناك بالإضافة إلى ذلك صفات أخرى يجب أن تتوفر في الداعية، مثل صفة العمل والقدرة على الإنتاج المكثف، ومعرفة الأولويات، والقدرة على التعاون مع

الآخرين، وما إلى ذلك.

إن أولئك الذين يحملون برنامجًا لإنقاذ الإنسان من الظلمات إلى النور، لا يمكنهم أن يتوانوا في تطبيق برنامجهم، لأن العالَم في انتظارهم، ولذلك عليهم أن يحاولوا بكل ما أوتوا من قوة وإرادة وإمكانية أن يبلوروا هذا البرنامج، ويرفعوا أنفسهم إلى مستوى تطبيقه.

الإصلاح في الأرض

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ۝ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

لا جدوى من الحياة بدون هدف

عندما تخرج الحياة من إطار هدفها فإنّ كل شيء فيها سيرتطم بجدار الفشل أو يدور في حلقة الفوضى، ذلك لأن الله تعالى قد رسم لها سننًا رشيدة تسير على ضوئها، ومن دون هذه السنن تكون الحياة ضارة، بل وتصبح حينئذ وبالًا على عامة الناس.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٢-١٢٠.

والذين يعيشون مثل هذه الحياة هم الخاسرون الحقيقيون الذين خسروا حياتهم الدنيا وما أعطاهم ووهبهم الله فيها من نعم بعد أن قدموا إليها حفاة عراة لا يملكون شيئًا.

ومن أجل أن نتجاوز هذه الفوضى لابدّ لنا من أن نتعرف على الهدف الذي جئنا من أجله، ومن أجله أيضًا نسير وإليه نعود.

والسؤال عن ماهية الهدف والسعي لمعرفة كنهه ليس سؤالًا عابرًا، بل هو سؤال عظيم بحجم عظمة الإنسان وكثرة مشاكله، ولذلك كان لزامًا علينا أن نتأمل هذا السؤال ونتدبر فيه، ونطرحه على أنفسنا في كل آن، ومتى ما عرفنا حكمة الحياة وهدفها فإنّ كل شيء سيكتسب آنئذ معنى واضحًا وسمة مميزة. فحالة الحيرة والضياع التي يعيشها الإنسان في هذا العالم تشبه حيرة الرجل البسيط الساذج حينما نضع بين يديه جهاز الكومبيوتر فيقلبه بين كفيه دون أن يفقه شيئًا عنه، لأنه لا يعرف الهدف المتوخّى من صنع هذا الجهاز.

إنّ الإنسان الذي يجهل الهدف لا يمكنه أن يكتشف الوسيلة التي تمكنه من الوصول إلى ذلك الهدف الذى رسمه لنفسه، أما الذي لا يحدد لنفسه في الأساس هدفًا لحياته فإنه سوف لا يبحث تبعًا لذلك عن الوسائل المؤدية إليه، ويعد هذا الأمر (هدفية أو عدم هدفية الإنسان) من أكبر وأعظم المشاكل التي وقف إزاءها العلماء حيارى.

فالإنسان الذي يتعلم العلم للعلم، والأدب للأدب، والفن للفن، وكلّ شيء لذاته دون تعيين هدف عال يسمو إليه، هذا الإنسان سوف لا يضل ويتيه في طريق الحياة فحسب، وإنما سيُضلّ الآخرين معه. فهو يُضِلّ الآخرين ويقطع الطريق عليهم لأنّه لا يعرف هدفه، وبذلك لن يستطيع أن يهب الهدف للآخرين لانتفائه عنده، كما تقول الحكمة المعروفة: «فاقد الشيء لا يعطيه». فكل علم أو عمل مجرد

من الهدف، إنما يهدي إلى العواقب الوخيمة.

وفي الآيات المتقدمة من سورة هود يحدد الله تعالى هدف الإنسان وملامح الرسالة والرساليين عبر ما يذكره -تعالى- من قصص تاريخية مقتطفة من حياة الأنبياء عليهم السلام، إعتبارًا من آدم عليه السلام وحتى نبيّنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما عانوه من محن وكوارث وعقبات في طريق الدعوة إلى الله، وصبرهم وتجلدهم إزاء ذلك كلّه.

الإستقامة هدف الإنسان الرسالي

إن الله سبحانه وتعالى يحدد هدف الإنسان الرسالي عندما يأمر نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ويأمر صحبه معه بالإستقامة، باعتبارها أسمى وأعلى هدف في الحياة الدنيا، إذ قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. فعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يستقيم، وكذلك من تاب معه، واتبع منهجه، وسلك خطه.

والله عز وجل يحدد في هذه السورة الخطى التي يجب على الرسالي أن يخطوها؛ خطى تلك الصفوة المؤمنة التي تستحق أن تقود الحياة، وينبغي لها أن تكون صابرة متجلّدة صامدة أمام الصعاب، كي تكون بمنزلة أنبياء بني إسرائيل.

وعلماء الإسلام وطلبة العلوم الدينية السائرون على خط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين يجب أن يشكلوا هذه الفئة المؤمنة الصابرة، وأن يستقيموا كما استقام الرسول ومن كان معه من الصحابة الأوفياء في صدر الإسلام، وإن لم يفعلوا فما هم بالسائرين على خط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

الإصلاح وظيفة الإنسان الرسالي

إن الله تعالى يحدد في الآيات السابقة مسؤولية هؤلاء الرساليين الصابرين مرة أخرى داخل إطار وظيفة الإصلاح، والنهي عن الفساد. فالله عزّ وجل يؤكد

---

(١) سورة هود، آية: ١١٢.

على ضرورة حمل الرساليين لهذه الرسالة، لأنها الوسيلة الوحيدة للنجاة والظفر في الدنيا والآخرة.

قال الله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

هؤلاء الرساليون قليلون ولكنهم رغم ذلك يقومون بعمل عظيم وهو إيقاف زحف البشرية نحو النهاية المدمرة. فالعالَم اليوم يسير بخطوات واسعة وحثيثة نحو الهاوية من خلال الحروب المستعرة فيه، وما دام العالَم يعيش هذه الحالة الخطيرة والأوضاع المتردية يتحتم على العلماء أن يتحدّوها ويغيروها، ولابدّ لهم من أن يصلحوا العالم حيث تنبع من هذا الإصلاح مسؤوليتهم ووظيفتهم، وبذلك تثبت استقامتهم.

ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. ففي هذه الآية إشارة إلى أن الإختلاف الموجود بين الأمم هو أحد أسباب الحرب والدمار في العالَم، ولا ينجو من هذا الدمار إلاّ من إستحق رحمة الله. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

وهؤلاء الذين يستحقون الرحمة هم المؤمنون المصلحون الذي انضووا تحت لواء ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، فكانوا ممّن أنجاهم الله، وكانوا من المخلصين.

منهجية العلم في إنقاذ البشرية

ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالقرآن وقصصه ذكرى وموعظة، كما أن الله تعالى يشير إلى منهجية العلم، فإذا كان العلم وسيلة من أجل تحقيق هدف إنقاذ الناس وإصلاحهم، فإنّ منهجيّته

تختلف تبعًا لهدفه.

فلو أردنا مثلًا أن نصلح شعبًا من الشعوب، فعلينا أولًا أن ننهج طريق تعلم لغته. قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

وهذا المنهج لا يقتصر على تعلم لغتهم، بل يشمل أيضًا التعرف على نفسياتهم وطباعهم وعاداتهم وما نرد به ضلالاتهم وزيف معتقداتهم.. فهؤلاء بحاجة إلى من يتوجه إليهم ليبلِّغهم الإسلام الصحيح قبل أن يسعى إليهم الآخرون ليحرفوا أفكارهم عن الطريق الصائب القويم.

لابدّ للعلم من هدف

وعلى هذا ينبغي أن يكون للعلم هدف، أما إذا إنسلخ العلم عن هدفه فإنه سيضيع في متاهات الحياة ليضيع الناس معه. وهدف العلم هو إصلاح العالَم، فعلى العالِم أن يتعلم الدين والحياة بعمق، ذلك لأن السياسة (التي هي جزء من أمور الحياة) ليست جزءًا منفصلًا عن الدين. كما أنّ علم النفس والإجتماع والإقتصاد والعلوم الحديثة الأخرى، بدورها ليست بمعزل عن وظائفنا، بل هي جزء منها، لأننا نريد أن نصلح عالَمًا يتحدث بلغة هذه العلوم، ولأن ضلالات كثيرة قد افتعلت في هذه العلوم علينا أن نفندها بنور الإسلام والقرآن.

فالمطلوب من الإنسان المؤمن أن يقرأ القرآن، ويتدبر في آياته دومًا، ثم ينتقل بعد ذلك إلى العلوم الحديثة. فقراءة القرآن ضرورة، لأنه مصباح هدى وبصيرة للمؤمن، ودراسة العلوم ضرورة أيضًا لأنها تمثل لسان الناس وطبيعتهم، وهي بالإضافة إلى ذلك معلومات ومعارف عن هذا العصر تضاف إلى معلوماتنا، وبذلك يصبح للعلم هدفٌ يتمثل في ردّ ضلالات المضلين.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤.

كما ينبغي أن تعم الهدفية كلّ المعارف الأخرى كالفن وغيره، ولكننا وللأسف الشديد نرى هناك طلاقًا قد حصل بين الأدباء والشعراء وبين مآسي الأمة ومحنها.

وهكذا نرى أن عملية تلقي العلوم والآداب باتت ضرورة من ضرورات العصر، فعبر الأدب -مثلًا- نستطيع تعلم فن كتابة القصة، ومن خلالها يمكننا الدعوة إلى الخط الذي التزمناه في الحياة، وعبره يصبح بمقدورنا نشر فكر الرسالة والتحدث عن آفاقه وأبعاده.

فالتعلم واجب ملقى على عاتقنا، وهو حجة الله البالغة علينا يوم القيامة، فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام، أنه «سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[١]، فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَكُنْتَ عَالِماً؟. فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ: أَفَلا عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ؟. وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلًا. قَالَ لَهُ: أَ فَلا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تعْمَلَ؟ فَيَخْصِمُهُ، وَذلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**»[٢].

فالعلوم بصورة عامة والآداب بصورة خاصة هي موهبة تحتاج إلى تنمية، وهي قوة كامنة تحتاج إلى من يفجرها. فعلى كل من يشعر بقوة كامنة في داخله أن يبادر إلى تحويلها إلى فعل وحركة وإنتاج، وعندما نحوِّل هذه القوة إلى طاقة متفجرة، علينا أن نضع أهدافنا نصب أعيننا. فالهدف هو الإصلاح، وأن نكون ممّن تشملهم الآية: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٣].

فالنهي عن الفساد والإصلاح هما الهدف الذي ينبغي أن نحدّد مسيرتنا وفقه، ونكيّف برامجنا معه، وحينئذ نرجو أن نكون ممّن أنجاهم الله، واصطفاهم من سائر خلقه مع من اصطفى من المحسنين المصلحين.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٤٩.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص١٧٧.
(٣) سورة هود، آية: ١١٦.

بناء المجتمع

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(١).

إختيار الرسل

حينما تحدثنا آيات الذكرالحكيم عن المثل العليا للبشرية، وعن النماذج الأكثر سموًا في العالم، وهم الأنبياء عليهم السلام وأوصياؤهم، فإنها تبين لنا قصصهم منذ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣-٤٠.

نشأتهم وبداية منبتهم.. فعندما يريد الله تعالى أن يبعث رسولًا للناس فلابد لهذا الرسول من أن يكون طاهرًا ومعصومًا، ذلك لأنه سيصبح فيما بعد قدوة للبشرية جمعاء.

وعندما يحدثنا القرآن عن النبي عيسى بن مريم عليه السلام، فإنه يعود إلى تاريخ بعيد، فيقص لنا كيف أن إمرأة عمران نذرت مريم لله تعالى، وكيف تمت تربيتها وتنمية الخصال الحميدة فيها، ثمّ كيف حملت مريم بعيسى عليه السلام، الذي أصبح نبيًا من أنبياء الله، وروحًا من عنده وكلمة منه.

وهكذا كان النبي يحيى عليه السلام، ويذكر لنا القرآن الكريم الكيفية التي رُزِق بها النبي زكريا بيحيى عليه السلام بعد أن بلغ من العمر عتيًّا، وكانت إمرأته عاقرًا، فجعل الله تعالى يحيى سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين، في معجزة فذة.

وهكذا نجد أن عملية إختيار الأنبياء عليهم السلام، والناطقين بإسم رسالات الله، والذين يصبحون مُثلًا عُليا للبشرية، وقدوات عظيمة لبني آدم،لا تتم عبثًا وإنما وفق قيم ربانية تبدأ منذ الولادة، ذلك لأنهم يجب أن يتحدثوا عن الله، وينطقوا بإسم رسالاته، ويكونوا شفعاء ووسطاء للإنسان، ويمثلوا السبل والوسائل التي تربط بين العبد وربه. فالأنبياء عليهم السلام لا يمكنهم أن يصلوا إلى هذا المستوى إلا بعد أن يُختبروا بالمشاكل والمحن، ويُمحَّصوا بالإبتلاءات، كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1].

العلماء خلفاء الأنبياء

هذا الإختيار الإلهي يدعونا إلى التأمل قليلًا في أولئك الذين يريدون أن يجلسوا مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويكونوا خلفاءه ويتحملوا مسؤولية قيادة الناس إلى رضوان الله والجنة، فهذا الإختيار يدعونا للتساؤل: كيف ينبغي أن يكون علماء

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

الدين الذين يريدون ملء هذا المنصب العظيم والخطير؟.

أولًا؛ وقبل كلّ شيء لا يجدر بعلماء الدين أن يكونوا كسائر الناس العاديين، ذلك لأن هؤلاء الناس -كالمهندس أو الطبيب أو الموظف أو الضابط- ليس بالضرورة أن يكونوا ملتزمين تمامًا، ولذلك يجب أن يكون علماء الدين مختلفين عنهم، لأنهم يمثلون قدوة المجتمع.

وتعتبر طهارة المنبت من أهم الأمور التي تجب معرفتها عن العلماء، لأنهم وسيلتنا للوصول إلى الله تعالى وطريقنا إليه. فلا يحقّ لنا إختيار الطريق الملتوي، بل النظيف المستقيم، لكي يوصلنا إلى الله تعالى، وإلا فإنه سيقودنا إلى النار.

وهناك العديد من علماء السوء قادوا مجتمعاتهم إلى النار باسم الدين، والقرآن عندما يتحدث عن علماء السوء هؤلاء، فإنه يتحدث عنهم بلهجة شديدة، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(١)]، وفي آية أخرى يقول ربنا سبحانه: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[(٢)].

فبالرغم من كل الاعتبارات يصف الله عز وجل عالم السوء بالكلب تارة وبالحمار تارة أخرى، ذلك لأن المنصب الذي ارتقاه هذا العالِم هو منصب عظيم وخطير، وخطورته لا تسمو إليها خطورة، لان هذا المنصب يمثل حلقة الوصل الرابطة بين الإنسان وربّه، وصاحب هذا المنصب هو بمثابة الشفيع للإنسانية، والطريق المعبّد المؤدي إلى الخالق جل شأنه؛ فإن لم يحتفظ العلماء بهذا المنصب فإنهم سينحدرون منه إلى الحضيض، وسيكون جزاؤهم وعقابهم من الله أعظم وأكبر لما جنت أيديهم.

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

وهكذا فإن منزلة العلماء عظيمة عند الله، والإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكد هذه الحقيقة بقوله: «**مَنْ تَعَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَعَمِلَ لله، وَعَلَّمَ لله، دُعِيَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ عَظِيمًا**»[١].

والعظمة عند الله يختلف مقياسها عن مقياس البشر، فالملائكة تتبرك بطالب العلم كما وتستغفر له حيتان البحر والملائكة والأشجار والأحجار.. فالجميع يستغفر له[٢]، ولكن بقدر ما يكون طالب العلم مرتفعًا ساميًا وعظيمًا فإن إنزلاقه سيكون عظيمًا أيضًا؛ فمثله كمثل من يكون على قمة جبل، فكلما كانت القمة أعلى، كانت الهوة التي ينزلق إليها أخطر وأعمق، ولذلك يجب على هذا الإنسان أن يكون متيقظًا حذرًا، لأن في سقوطه وانحداره سقوطًا للمجتمع والأمة على حد سواء.

كيف نضمن عدم إنحراف طالب العلم؟

ولكي يكتسب طلبة العلم المناعة الدائمة ضد السقوط والإنحراف، فعلى الحوزات العلمية الإلتزام بالملاحظتين التاليتين:

١- الهدفية والتزكية

أي أن تكون هذا الحوزات قائمة على أساس الهدفية وتزكية النفس، فإذا كان هدف الإنسان اكتساب الشهرة أو المال أو ليماري بعلمه الآخرين وليكسب القدرة على الجدال.. فإن هذه الأهداف جميعًا تقود إلى مصير واحد، هو نار جهنم.

فالحوزات العلمية الرشيدة يجب أن تقوم على أساس إختيار الأفراد قبل كل شيء، فليس كل شخص قادرًا على تحمل مشاكل وصعوبات الطريق، وغالبًا ما يكون هذا الإختيار خاطئًا في كثير من الحوزات العلمية؛ فبعض الأفراد تراه يتقدم به

---

(١) الأمالي، (الشيخ الطوسي)، ص٤٧.

(٢) جاء هذا في حديث مطوّل حول فضل العلم وطلبه، عن الإمام علي بن موسى الرضا، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. أنظر كتاب منية المريد، للشهيد الثاني، ص١٠٨-١٠٩.

العمر ولكنه لا يتطور في دراسته قيد أنملة، وإننا لنجد أيضًا في طلاب الحوزات من لا يتقن حتى الصلاة وأركانها وواجباتها، أما الذين لا يتقنون قراءة القرآن والأدعية فهم كثيرون للأسف الشديد.

إن الحوزات العلمية هي مركز لتنشئة الأفراد وتربيتهم وبنائهم، ولكن هذا لا يعني أن من واجبها أن تتقبل كل من أراد الدخول والإنتماء إليها دون قيد أو شرط، أو دون إمتحان لمعرفة مدى قابلية الفرد على الإستمرار، ومدى إستعداده لتحمل الضغوط والمصاعب في طلب العلم.. فهناك قيود وشروط ضرورية لمن يريد أن يتحمل المسؤولية التي خلَّفها الأنبياء عليهم السلام، وهي ليست بالمسؤولية البسيطة.

فعندما يتضح ويتبلور الهدف -هدف تحمل المسؤولية- عند الفرد منذ البداية، وقبل دخوله الوسط الدراسي ومعرفته بأن دراسته هي من أجل الله سبحانه، وأنه بات جنديًا من جند الله، فحينئذ ستختلف سيرته، ويتباين سلوكه وأخلاقه عن غيره.

فالهدفية تحدد الوسيلة المناسبة للإنسان، فلكل هدف وسيلته التي تؤدي إليه. فالإنسان الذي يستهدف خدمة دينه ووطنه وأمته، عندما تسنح له فرصة الخدمة، فإنه سيندفع إليها بكل حزم وسرعة. أما الذي يتكىء ويتقاعس، فهو في الواقع لا يهدف خدمة الدين وحمل الرسالة، لأنه سيتعلل بحاجته إلى المزيد من العلم والمعرفة، في الوقت الذي يكون فيه المجتمع بأمس الحاجة إليه، لوجود نزف ثقافي وفكري في الأمة يتطلب إيصال الفكر النقي إليها.

صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ، فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، ولكن هذا لا يعني أن نطلب العلم الذي لا ينفع الناس، ولا يحتاج إليه المجتمع في الوقت الحاضر. ولهذا جاء في الدعاء المروي عن

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج١، ص١١.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»**(١).

وفي وصيته لإبنه الإمام الحسن، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«اعْلَمْ أَنَّهُ لَاخَيْرَ فِي عِلْمٍ لَايَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ»**(٢).

وقال عليه السلام -أيضًا-: **«عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ كَدَوَاءٍ لَا يَنْجَعُ»**(٣).

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام كانوا ينهون ويردعون الناس عن بعض العلوم التي لا يستفاد منها. فليس المطلوب أن يتبحر الإنسان في العلوم والمعارف إلى درجة أن لا يفهم الناس منه ما يقول، ولا ينتفعون من أفكاره وتوجيهاته.. وإنما عليه أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ويعطيهم بقدر حاجاتهم. فإذا كان المجتمع بحاجة إلى معرفة أحكام الصلاة والصيام، فليس من الصحيح أن يتعمق الإنسان في تفسير مسائل (الرّق) لهذا المجتمع، لأنها ليست من المسائل التي يحتاجها المجتمع.

ومتى ما تحدد الهدف تحددت قوة الإندفاع إليه أيضًا. فدخول الفرد إلى الحوزة دون هدف معين لن يكوّن لديه إندفاعًا قويًا إلى العمل والنشاط والتحصيل الجاد، أما الذي يعلم بأن هدفه الذي حدَّده سيتحقق بعد الإنتهاء من مرحلة معينة من الدراسة، فإنه سيعمل بجد لإتمام هذه المرحلة وطيّها في أقصر وقت ممكن، حيث تتقد حينئذ شعلة الهدف في قلبه، ويتوهج لهب الواجب في داخله، مما يدفعه إلى مزيد من الجهد، فيوصل الليل بالنهار من أجل إتمام تلك المرحلة، ذلك لأن الهدف سينتظره بعد أن وجد قوة الإندفاع في ذاته.

وباعتبار أن الحوزات العلمية هي المهد الذي يتربى فيه العلماء الأجلاء، فعلى هذه الحوزات أن تبحث عن أناس هادفين منذ البدء.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٥، ص٦٩.
(٢) نهج البلاغة، (٣١) من وصية له عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ١٣٤.

٢- معرفة حاجة الناس من العلم

قد يحتاج الناس إلى بعض العلوم بصورة خاصة دون غيرها، وعندئذ لا يجوز لنا بعد أخذ الناحية العقلية بنظر الإعتبار؛ البحث عن نواح أخرى من العلم، وترك حاجة الناس دون تلبية.

ففي الإسلام أصول وفروع، ولا ريب أن الأصول هي أهم من الفروع. والمقصود بأصول الدين، مجمل العقائد والقيم ومجمل البصائر والرؤى التي نستوحيها من القرآن الكريم تجاه الحياة، سواء في السياسة أو الإجتماع أو الحياة الشخصية والعامة، أو في العلم ومناهجه. أما فروع الدين، فتبدأ من الصلاة إلى الديات. ومما يؤسف له أن علم أصول الدين أو ما يسمى بالثقافة الدينية العامة قد أصبح في المؤخرة، وذلك لعدة أسباب تأريخية، منها أن الحوزات العلمية كانت قائمة في السابق في مجتمعات دينية ملتزمة ومؤمنة بالرؤى الإسلامية الصحيحة، فقد كان الطلاب يدرسون القرآن قبل دخولهم هذه الحوزات، ذلك لأنهم كانوا ينتمون إلى بيئة دينية بحتة.

أما الطالب اليوم فهو ينمو ومنذ طفولته في أجواء بعيدة كل البعد عن الثقافة الدينية والرؤى الإسلامية، سواء في الشارع أو المدرسة أو البيت، وحتى في وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون.. وبالتالي فإن من الواجب المحتم علينا أن نغير كثيرًا من مناهج الدراسة في الحوزات العلمية لبناء الكوادر القادرة على تغيير المجتمع وتربيته، وإلا فما الفائدة من طالب يتقن فهم كتاب الشرائع واللمعة ولكنه يحمل خلفيات جميعها غربية وجاهلية، وكيف يمكنه أن يدعو إلى الإسلام ويصبح ممثلًا للقرآن وهو يحمل منذ طفولته هذه المبادئ المنحرفة؟.

إنه لمن الطبيعي جدًا أن لا يكون هذا الجيل المريض فكريًا ومبدئيًا مؤهلًا لأن يتسلم زمام الدعوة إلى الدين، ويكون ممثلًا للرسالة الإسلامية والقرآن والأنبياء

والعترة، ذلك لأنه يحمل أساسًا جذور ثقافة تناقض تعاليم الإسلام جملة وتفصيلًا.

مجتمعنا بحاجة إلى ثقافة رسالية

إن المجتمع اليوم بحاجة إلى من يدرك أوضاعه، ويحل مشاكله، ويتفهم أزماته.. فهو يحتاج إلى من يعرّي الظلم ويصرخ منددًا بالأنظمة الجاهلية، ليحمي المجتمع من أفكار هذه الأنظمة وسمومها.

والثقافة التي تحملها الشعوب الإسلامية اليوم، هي ثقافة مستورَدة ومنحرفة، وهذه هي مشكلتنا الأساسية، ذلك لأن مثل هذه الثقافة تعمل على تقويض أصل الدين وإن كانت تحافظ على بعض أطره وقشوره؛ ومثال ذلك الإتجاه الصوفي الذي بدء يغزو البلاد الإسلامية بعمق، وهو إحدى الهدايا المسمومة التي حملتها الأيادي الاستعمارية إلى البلدان الإسلامية وشعوبها.

الأسباب الحقيقية لتخلفنا

الوجه الظاهر لتردي المسلمين هو تخلفهم الإقتصادي والسياسي والعسكري.. أما الوجه الحقيقي الباطن، فهو التخلف الثقافي الذي كان نتيجة لاستبدال المسلمين ثقافة القرآن بثقافة الأمم الأخرى، وهذا الاستبدال زرع في المسلمين بذور التخلف الذي انعكس على جميع المرافق الحياتية في المجتمعات المسلمة.

ولقد أدت هذه الثقافات البديلة والخاطئة فيما بعد إلى ظهور البدع وانتشارها في الأمة الأسلامية، الأمر الذي يضع على عاتق علماء الدين مسؤولية التصدي لها والقضاء عليها، وهذا التصدي لا يتم إلا بالإستناد إلى القرآن والثقافة الرسالية الأصيلة.

ومن هنا تتضح لنا قضية في غاية الأهمية تتمثل في أن الحوزات العلمية لكي تكون قادرة على تحدي هذه الثقافات الدخيلة يجب عليها أن تهتم إهتمامًا مبدئيًا بالقرآن الكريم، ذلك لأن الإهتمام به يعني الإهتمام بالقيم الإلهية، والحدود

الشرعية، والثقافة الحقيقية التي ينبغي للأمة أن تتسلح بها.

إن وضع القرآن على رأس قائمة الأوليات في البرامج الحوزوية، بما يشتمل برنامج دراسته من حفظ وقراءة وتفسير وتدبر، سيجعل من القرآن سدًا يقف في وجه الخناسين والشياطين والثقافات الجاهلية وسائر الضلالات الأخرى.

وعلى هذا فإن من أهم الأمور التي يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار في الحوزات العلمية، وضوح الأهداف على أن يكون العمل ضد الثقافات الجاهلية أحد هذه الأهداف الرئيسية التي تتم بعد الإستيعاب الكامل والسليم للرسالات الإلهية.

فضح الزيف

مثل الآيات القرآنية كمثل الشمس، فالشمس تطلع كل يوم بنهار جديد، لتصنع واقعًا جديدًا، والقرآن الكريم يتجسد كل يوم عبر أشخاص يمشون في الأرض، في حين أن المنافق تتجسد فيه آية النفاق، أما المؤمن فتتمثل فيه آية الإيمان، والأحداث التاريخية المؤيدة لذلك تكرر نفسها من خلال ظواهر إجتماعية أو سياسية راهنة.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هو تفسير تلك الآيات الكريمة التي تسلط الأضواء على المحرفين الذين يحرفون الكتاب، وفي نفس الوقت على الذين وفوا بعهدهم مع الله في عدم كتمان الحقيقة، فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

وقد فسر الله تعالى هذه الآية الكريمة بعدة آيات، منها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢].

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨١.

ميثاق اللّه مع العلماء

فلقد أخذ الله ميثاق النبيين الذين يمثلون ذروة البشر، وقمة الكمال البشري، بأن لا يكتموا حديثًا، ولا يخفوا الحقيقة، وأن ينصروا الله تعالى. وهذا الميثاق، هو ميثاق العلم والمعرفة مع العلماء جميعًا؛ فعلى العالِم أن لا يتخذ نفسه محورًا، وأن لا يتكبّر ويحط من قدر غيره من العلماء، وأن لا يبخس الآخرين علمهم ومعرفتهم.. فعليه إذا جاءه من هو أعلم منه أن يصدقه، وأن يظهر الحق إذا جاءه، ويقاوم الباطل.

هذا هو ميثاق الله على العلماء، ولكن البعض باع هذا الميثاق بثمن بخس؛ باعه بحياة زائلة لكي يخلد إلى الراحة والسلامة في الدنيا.. هؤلاء هم الذين دفع لهم الطغاة بعض الثمن، فسلبوا الناس سلاح المعرفة والعلم والهدى، وأمثال هؤلاء في التاريخ كثير.

والصحفيون الذين يؤيدون اليوم الطغاة بأقلامهم هم أيضًا يتلاعبون بكرامة الناس وحقوقهم، ويبيعون تقدم الأمم من أجل دراهم معدودة؛ أفلا تستيقظ ضمائرهم؟ أوَ لا يعودون إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟[1].

وتعني ﴿لاَ خَلاَقَ لَهُمْ﴾ أي؛ لا نصيب لهم. في حين أن مقام العالِم عند الله عظيم، وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»[2]. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَنْ تَعَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَعَمِلَ لله، وَعَلَّمَ لله، دُعِيَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ عَظِيمًا**»[3]. وقال عليه السلام -أيضًا-: «**إِنَّ**

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٢) مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣٢٠.

(٣) الأمالي، (الشيخ الطوسي)، ص٤٧.

الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»[١].

هؤلاء العلماء إذا باعوا علمهم، وباعوا عهدهم مع الله وميثاقهم معه بأن يجلسوا على الكراسي ليصبحوا قضاة لحكام الجور، أو يسوّدوا صفحات الجرائد في مدح هؤلاء الحكام ليسرقوا بذلك حقوق المستضعفين، فإنهم بعملهم هذا سيبيعون رسالتهم بثمن قليل بخس. في حين «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ، وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ**»[٢]، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومع ذلك فإن هذا العالِم إذا باع رسالته، يأتي يوم القيامة صفر اليدين، لأنه قد أكل نصيبه في الدنيا. ومن الظريف أن العالم من الممكن أن يدعو الناس إلى بعض الخير، فيسمعون كلامه، ويدخلون الجنة، ولكنه هو نفسه لا يملك شيئًا.

وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٣].

فحينما يبلغ الإنسان درجة عالية من الإجرام، فإن الله تعالى لا يحاسبه ولا يكلمه، لأنه مجرم بالكامل، فليست هناك حاجة إلى محاكمته.

مرتزقة القلم بين الماضي والحاضر

وفي يوم القيامة يخاطب الله تعالى العالِم الفاسد ليقرّعه على خيانته للأمانة، وهؤلاء العلماء موجودون في كل مكان وزمان كما كانوا موجودين قبل الإسلام في عهد اليهود والنصارى، حيث كانوا يحرفون التوراة والإنجيل. فأؤلئك الذين يفسرون اليوم آيات الجهاد في القرآن الكريم ويحصرونها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٠.

(٢) الكافي، ج١، ص٣٤.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٨.

قائلين إن هذه الفريضة قد غابت عن الأمة، مسمّين إياها (الفريضة الغائبة)، هؤلاء أيضًا يلوون ألسنتهم بالكتاب، ويحرفونه عن مواضعه.

ومن مظاهر تحريف هؤلاء للكتاب قولهم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ولكن عند القدرة والإستطاعة، ولذلك تراهم لا يذكّرون الناس بأحكام الدفاع عن بيضة الإسلام، فيحرفون مفاهيم الإسلام من خلال إشاعة أنه دين بلا دولة، وأن السياسة لا ترتبط بالدين.

ونحن لا نقصد هنا بالعلماء علماء الدين فقط، بل كل من حمل مسؤولية الدين أيًا كان؛ فالصحفي المأجور المرتزق هو أيضًا مشمول بتلك الآية، لأنه يغير الحقائق، ويكتب الباطل، ويكتم الحق.

مواصفات العالِم حسب المفهوم القرآني

ثم يحدد القرآن الكريم مواصفات العالِم؛ فالعالِم يدعو إلى الله، ولا يدعو إلى نفسه؛ يدعو إلى الله، ولا يدعو إلى الطاغوت، بل إنه لا يدعو إلى عبادة الملائكة على عظمتهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

ترى لماذا هذا التشدد الذي يبديه القرآن مع العلماء، ولماذا يضع أعظم المسؤوليات في رقابهم؟.

السبب في ذلك الآثار السلبية الكبيرة والمأساوية التي يستتبعها إنحراف العلماء، كما قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي. قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَمَنْ هُمْ؟. قَالَ** ﷺ: **الْفُقَهَاءُ وَالْأُمَرَاءُ**»[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٩-٨٠

(٢) تحف العقول، ص٥٠.

السبب الحقيقي لمآسينا

علينا أن نعلم أن مصائب البشرية تكمن في كتمان العالِم لعلمه، وسكوته عندما تظهر البدع. ولقد وجد العدو الثغرات لاقتحام بلادنا رغم أن العالم الإسلامي مشحون بالقوى والطاقات المادية والمعنوية، فكيف استطاع العدو تفريقنا والسيطرة علينا؟.

السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى فصل الدين عن السياسة، والى عدم أداء عالم الدين لدوره الفاعل في التوعية ونشر اليقظة بين المسلمين.

ومن هنا يظهر أن المرحلة التي نعيشها الآن هي المرحلة التي يحاول فيها الغرب تغيير مسار الثقافة الإسلامية، ونشر الثقافة المنحرفة؛ ثقافة التجزئة، ثقافة القشور، ثقافة التخلف، ثقافة التبعية.. كل ذلك في مقابل ثقافة الإسلام، التي تدعو إلى الوحدة والتقدم والإستقلال والحضارة.

ولمواجهة هذا الخطر المحدق، لا مناص للعلماء من تحمل واجباتهم الرسالية في بيان حقائق الدين وشريعة سيد المرسلين، وعدم التوان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..موطنين أنفسهم على تحمل المكاره والصعاب في هذا الطريق.

البــــلاغ

عندما تكون الهمّة عالية، والطموح ساميًا، فلابدّ أن يتعب الجسد من أجل الوصول إليهما. والجسد بدوره لا يلبث أن يستجيب لطموح النفس عندما تكون النيّة قويّة، والعزيمة راسخة، كما يشير إلى ذلك الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله: «**مَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ**»(١).

وعلى هذا فإنّ على الإنسان أن يطرح على نفسه التساؤلات التالية، ويبحث عن إجاباتها قبل أن يبرمج لحياته، ويضع الخطط لها:

ما هي همّتي وطموحي؟. وماذا عليّ أن أعمل؟. وكيف أعمل؟.

هذه هي التساؤلات الأساسيّة في حياة الإنسان، وللأسف فإنّ الكثيرمن الناس يعيشون الأعمار الطويلة دون أن يعرفوا لماذا عاشوا، ولأيّ سبب سيموتون. في حين أن هناك أناسًا يحاولون البحث عن إجابات لتلك التساؤلات، ويضغطون على أفكارهم للإجابة عليها قبل أن تستدرجهم الحياة، وتلفّهم في أحداثها المتغيّرة.

وأنا أوصي المشتغلين بالدراسة أن يطرحوا تلك الأسئلة على أنفسهم

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤٠٠.

كاستراتيجيّة حياتيّة بالنسبة إلى كلّ واحد منهم، وكاستراتيجيّة مرحلية بالنسبة إليهم جميعًا؛ أي إنّ الدراسة لابدّ أن تكون في خدمة الهدف ومن أجله، وأن لا تكون مجرّد هواية أو رغبة مؤقّتة، بل من أجل هدف أسمى.

ضرورة تعيين الهدف من الدراسة

وعلى طالب العلم أن يطرح على نفسه هذه التساؤلات حتّى وهو يدخل إلى قاعة الدرس. فطبيعة الإستيعاب تختلف بين إنسان يدرس من أجل الدرس فتتحوّل الدراسة عنده إلى غاية، وبين إنسان يستوعب الدرس ليلقيه غدًا على الجمهور. فالعلم الذي لا ينفع، والذي لم ترسم له أهداف واضحة، يجب على الإنسان المؤمن أن يستعيذ منه، لأنّ هذا العلم يضر بالإنسان، ويسبب له الغرور، فيكون عوضًا له عن العمل.

والآن نطرح هذا السؤال: ما هو العلم المفرَّغ من العمل؟.

قد يكون الإنسان هو السبب في عدم العمل بعلمه، كالإنسان الذي يعلم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعيّ، ولكنّه لا يلتزم به.

شروط العلم النافع

إنّ العلم النافع هو الذي تتوفّر فيه الشروط التالية:

- أن يكون الهدف من تعلّمه العمل به:

فالبعض يبحث عن العلم من أجل إرضاء شهوة التطلّع في نفسه، في حين أنّ هدف الإنسان من العلم يجب أن يكون هدفًا عمليًّا لا لأجل التسلية. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَل، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ**»(١).

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦٦.

- أن يكون إختيار موضوع العلم حسب الظروف الموضوعية والحاجات التي يعيشها المجتمع.

- أن يكون مقدار العلم الذي يتعلّمه الإنسان بقدر حاجة الناس إليه.

هذه الشروط يجب أن نوفّرها في عمليّة تعلّمنا، وفي عمليّة تعليمنا أيضًا. فالذي يدوّن العلم عليه أن لا يفعل ذلك لمجرّد التسلية، وإبراز الأفكار.

وإذا ما وصل الإنسان المتعلّم إلى مستوى الدعوة والتبليغ، فعليه أن لا يحوّل هذا التبليغ إلى عملية روتينية، أو من باب رفع التكليف، فيستخرج بعض المعلومات من هذا الكتاب أو ذاك ليلقيها على الناس ثم ينتهي كلّ شيء دون أن يفكر في الفائدة التي يقدّمها إلى الآخرين من خلال دروسه ومحاضراته، لأنّ مثل هذا العمل الذي يقوم به إنّما هو إستهانة بقدرة الناس على الفهم، وإستهانة بالنفس قبل كلّ شيء.

وهكذا فإن كلام الإنسان المبلّغ ينبغي أن يكون بحيث ينتشر بين الناس، وينتفعون به.. أمّا أن يتكلّم بمجموعة من المكرّرات والمحفوظات، فإنّ المنبر سيصبح منبرًا عاديًّا، وسيقلّ إهتمام الناس به.

وعلى هذا فإنّ طالب العلم الداعي إلى الله تعالى يجب عليه أوّلًا؛ أن يحدّد هدفه من كلامه؛ فهل هدفه أن ينهي الحديث ليقول الناس له: أحسنت، وطيّب الله أنفاسك، أم أنّ هدفه أن يجعل الناس يتأثرون بكلامه، وينتفعون من علمه؟.

هناك من الخطباء من يصعد المنبر ليخرّج منه ثوّارًا وعلماء ومفكرّين، ذلك لأنه يعرف الأسلوب الصحيح لإلقاء محاضراته ودروسه، وكيف يرضي الناس بجميع شرائحهم، إعتبارًا من الشاب وحتّى الشيخ الكبير.

المنبر مسؤوليّة خطيرة

وبناء على ذلك فإنّ المنبر يعتبر بحدّ ذاته مسؤوليّة خطيرة يجب على طالب

العلم أن يتحمل أعباءها بالشكل الصحيح، فيفكر في كيفيّة التأثير على الجمهور، وتحريكهم في الإتجاه الصحيح. وهذا ما يجعل للدارسة هدفًا وغاية محدّدة، تدفعني إلى أن أسير على هدىً وبصيرة.

وفي غمرة إرشاد الناس وموعظتهم عليّ أن لا أنسى نفسي، فالكلام الذي ألقيه من على المنبر يجب أن أتعظ به أنا أولًا قبل أن أعظ به المستمعين، لكي يكون كلامي هذا مؤثرًا على الآخرين، لأنّ الكلام الذي يخرج من القلب يدخل في القلب، أمّا اذا خرج الكلام من اللّسان فإنّه سوف لا يتجاوز الآذان، لأنّ المتكلّم لم يطبّق كلامه على نفسه.

ولذلك فإنّ بعض الخطباء يتحرّجون من ذكر الكلام الذي يشكّون في صحّته، أو أنهم قد عملوا به، فلا يتكلّمون به. وعلى هذا فإنّ الخطيب يجب أن يكتفي بذكر الكلام الذي يقتنع به، لكي يستطيع إقناع الآخرين به. ثمّ إنّ الناس لا ينظرون إلى كلام الخطيب فحسب، بل ينظرون إليه من خلال مواقفه وسلوكه، ولذلك فإنّنا عندما نستمع إلى الكلام فإنّنا نستمع إليه في الحقيقة مرّتين؛ مرّة لكي نستفيد منه، ومرّة أخرى لكي نفيد به الآخرين.

ولذلك فإنّ في الآيات القرآنية جانبين؛ جانبًا يسمىّ بـ (الحكمة) أو (التزكية)، وجانبًا يطلق عليه إسم (العلم) أو (التعليم). فنحن يجب أن نأخذ ظاهر سياق القرآن بنظر الإعتبار من أجل أن نستوعبه، ثمّ نركّز على باطنه باعتباره علمًا.

الأسلوب الصحيح للإستفادة من الدروس

وهكذا ففي نفس الوقت الذي نستمع فيه إلى الدروس لكي نحصل منها على المادّة العلميّة، فإنّنا يجب أن نستمع إليها لكي نستفيد منها شخصيًّا.. وهناك من الطلبة من يخرج من الدرس وهو محمّل بالعلم، وهناك من يخرج منه صفر اليدين، لأنّ فكره لم يكن مشغولًا بدرسه، ولأنه لم يفرّغ نفسه لعمليّة التعلّم. فهناك

من الطلاب من يجلس في قاعة الدرس بجسمه، ولكنّ روحه وفكره شاردان إلى مكان آخر، ومثل هذا الشخص لا يمكن أن تثبت في ذهنه المعلومات التي درسها. أمّا الطالب الذي يركّز فكره على الدروس، ويعيش معها، ويراجعها بشكل مستمر، فإنّ الدروس التي درسها ستبقى في ذهنه حتّى وإن مرّ عليها خمسون عامًا.

وهكذا فإنّ على طالب العلم أن يجلس في قاعة الدرس مركّزًا تفكيره على دروسه، ومحاولًا أن يستفيد من وقت الدراسة بشكل كامل، وأن يفكّر في الكلام الذي يلقى إليه، بل ويحاول أن يحفظ العبارات الموجودة فيه، لكي يصبح بذلك في المستقبل مدرسًا قديرًا للدروس التي تلقّاها أثناء فترة دراسته.

وللأسف فإنّ هناك البعض من الطلاب لا ينتبهون، ولا يركزون فكرهم على النقاط التي يطرحها الأستاذ في الدرس، وعلى أسلوبه في التدريس، وكيفيّة تبيينه لجوانب الدرس المختلفة.. الأمر الذي ينعكس على قدرة الطالب نفسه على التدريس مستقبلًا، فيتورّط في الكذب مثلًا عندما يُسأل عن موضوع ليست لديه معلومات حوله، أو أن يتذرّع بذرائع مختلفة من أجل التهرّب من الإجابة، والسبب في كلّ ذلك أنّ هذا الطالب كان قد بنى كيانه العلميّ على أساس هشّ ضعيف لم يؤهّله لأن يكون أستاذًا قديرًا عندما يتولّى مسؤولية التدريس.

فلنكن -إذن- حريصين ونحن ندرس ونتعلّم على أن نستوعب دروسنا بشكل كامل، ومن جميع جوانبها من خلال الأخذ بنظر الإعتبار الملاحظات والإرشادات التي ذكرناها في هذا الخصوص.

الفصل الثالث: قيم المعهد الإسلامي

- بَيْنَ العِلْمِ وَالتَّقْوَى
- بَيْنَ العِلْمِ وَالتَّوكلِ
- بَيْنَ تَنْمِيَةِ العَقْلِ وَتَراكُمِ المَعْلُومَاتِ
- بَيْنَ العِلْمِ والمَالِ
- بَيْنَ العِلْمِ والعَمِلِ
- بَيْنَ التَّجزئَةِ وَالشُّمُولِيَّةِ

بين العلم والتقوى

كلنا نعلم أنّ العلم والتقوى صنوان يكمل أحدهما الآخر؛ فلا خير في علم لا تقوى فيه، كما أنّ التقوى التي ينقصها العلم تعتبر ناقصة. فكما أمر الله تعالى بطلب العلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾(١)، أمر كذلك بطلب التقوى في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾(٢).

للعلم والتقوى درجات

والعلم على درجات ومراحل، فليست العلوم في مستوى واحد، فهناك علوم الأبدان وعلوم الأديان والأرواح؛ وعلم الأبدان بدوره ينقسم إلى مئات العلوم، وكذلك الحال بالنسبة إلى علوم الدين، ففي علم التفسير -مثلًا- هناك من يعرف تفسير آية واحدة، وهناك من يحيط بتفسير القرآن كله. هناك من يتقن التفسير من وجه واحد، وهناك من يتقنه من أوجه مختلفة.

وكما أن العلم درجات وأقسام، فكذلك التقوى. وربما كان هناك الكثير منا

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) سورة التغابن، آية: ١٦.

يجهل هذه الحقيقة، فنحن نحسب أن التقوى حالة واحدة، في حين أنها مجموعة متكاملة من الروادع والملكات النفسية تجتمع إلى بعضها البعض لتشكل التقوى. ولتوضيح ذلك أضرب المثالين التاليين على أنواع وحقول التقوى ودرجاتها.

فبالنسبة لأنواع التقوى هناك من الناس من يخدعه المال، فإن أعطيته دينارًا باع لك دينه. ومن الناس من لا يخدعه المال، بل يخدعه الجاه، فإن أسبغت عليه بكلمة مدح تنازل لك عن دينه وعن تقواه. ومن الناس من لا يخدعه المال والجاه، ولكن تخدعه شهواته الجنسية، فلا يمتلك نفسه في مواجهة الإغراء الجنسي. وهكذا..

التقوى حصن ضد المغريات

وعلى هذا الأساس فإن حقول التقوى مختلفة، وفي جميع هذه الحقول يكون الإنسان بحاجة إلى مناعة تصونه من المغريات المختلفة التي تحاول أن تهدم التقوى في داخله. وهناك الكثير ممن يفتقر إلى هذه المناعة، فنرى أن أبسط المغريات من الممكن أن تؤدي به إلى الكفر، وبالتالي إلى النار.

ومناعة الجسم تختلف من مرض لآخر، فبعض الناس لديهم مناعة ضد الحمى، في حين يفتقرون إليها إزاء مرض آخر.. وهكذا الحال بالنسبة إلى مناعات الروح. وثمة التفاتة جديرة بالإهتمام وهي أن سورة البقرة تدور من أولها إلى آخرها حول التقوى، ولكن في مجالات مختلفة؛ في الجهاد، وفي الحج، وفي العبادات، وفي العلاقات الزوجية، والشؤون الإقتصادية.

المثال الثاني هو حول درجات التقوى في المجال الواحد، ويتلخص هذا المثال في ما روي «أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[١]، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[٢]، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل»[٣].

إنّ تقوى هذا الرجل تعادل في الحقيقة أربعمائة ألف درهم. كما وهناك أناس جاؤوا إلى كربلاء لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام مقابل الدراهم والمناصب التي وعدهم ابن زياد بها.

العلماء أولى الناس بتحصيل التقوى

وهكذا نرى أنّ الإنسان يواجه في حياته مشاكل عديدة وإبتلاءات عظيمة، ولابدّ أن يحصّن نفسه ضد هذه المشاكل والإبتلاءات بالتقوى في كافة الحقول وبمختلف الدرجات، وخصوصًا العلماء الذين يبحثون عن درجات عالية من العلم والعمل في سبيل الله.

وفي كل يوم يمر علينا ونكتسب فيه علمًا جديدًا علينا أن نكتسب تقوى بنفس المقدار، فإذا زاد العلم، ونقصت التقوى، كان ضرر العلم أكثر من نفعه، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»**[٤].

ولقد كان إبليس عالمًا، ولكنَّ علمه هذا أرداه إلى أسفل السافلين بدلًا من أن يرفعه درجات، لأن علمه إنفصل عن التقوى. وإلى ذلك أشار الشاعر:

لَو كانَ لِلعِلمِ دونَ التُقى شَرَفٌ   لَكانَ أشـرَفُ خَلقِ اللهِ إبليسُ

والعلماء الذين لم يفوا بمسؤولياتهم، فخدموا السلاطين، وباعوا علمهم.. هم تلامذة أوفياء لإبليس، إذ العلم بدون التقوى لا يساوي شيئًا. فحاول إذن أن

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٤ – ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٧٢.

(٤) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٧.

تحصل على مستوى جديد من التقوى كلما حصلت على علم جديد، وإلاّ فإن علمك سوف يتزايد دون أن ينفعك.

التقوى وأهوال يوم القيامة

وهذه التقوى هي التي تقي الإنسان من أهوال يوم القيامة، ففي هذ اليوم العصيب يشعر الإنسان بحاجة ماسة إلى من يحفظه من كروبه؛ كالصلاة التي يؤديها الانسان كاملة بشروطها، فإنها تأتي إليه يوم القيامة في صورة إنسان حسن الوجه، طيب الريح، ثم تقول له: أنا معك، وسوف أساعدك. وفي غير هذه الحالة تأتي هذه الصلاة إلى الإنسان في صورة كائن مسخ مشوّه، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ**»(١).

فنحن بحاجة إلى أن نؤدي الصلاة بكاملها، فهذه الصلاة هي التي تزيد من تقوى الإنسان، بشرط أن يصليها بخشوع ويتوجه إلى الله تعالى فيها.

وهكذا نرى أن للعلم درجات وحقولًا، وكذلك التقوى. والإنسان الكامل هو الذي يتقدم في العلم في مختلف الدرجات والحقول، وبموازاة هذا التقدم يتقدم أيضًا في التقوى بمختلف درجاتها ومجالاتها؛ أي أن تكون لديه مناعة ضد كل وساوس الشيطان، سواء كانت وساوسه هذه من خلال المال، أو الشهوة، أو المنصب والجاه أو المدح.

فدرجات التقوى عديدة وعلينا أن نطلب أعلى الدرجات.. وحقول التقوى كثيرة، وعلينا أن نتقي الله في كافة الحقول. فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢)، دون أن يحدد درجة ومجال هذه التقوى، لأنه يأمرنا بها في كل مكان، وفي كل مجال، وفي مواجهة جميع المصاعب.

---

(١) بحار الأنوار، ج٨١، ص٢٦٥.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

بين العلم والتوكل

هناك مسؤوليات على الإنسان أن يقوم بها في حياته، أيًّا كان إنتماؤه، من مثل مسؤولية الحفاظ على الذات؛ فكل إنسان مسؤول عن نفسه بأن يحافظ عليها، ولا يدع الخطر يحدق بها.. والذي لا يلتزم بواجبات هذه المسؤوليّة فإنه متّهم في بشريته وإنسانيته، إذ أنها ترتبط بطبيعة الإنسان ككائن حيّ يعيش على هذه الأرض.

المسؤولية الأخرى، هي مسؤوليّة العلم التي تشبه مسؤوليّة الحفاظ على الحياة لسببين:

- إنّ هذه المسؤوليّة جزء لا يتجزأ من المسؤولية الأولى.

فالعلم هو الذي يدفع عنك الأخطار، وهو الذي يزيل المشاكل.. فالذي يعرف الطريق لا يمكن أن يضلّ ويتيه، ولا تحدق به الأخطار. هكذا فإنّ المعرفة هي التي تجنّب الإنسان من الأخطار.

- إنّ العلم جزء من كيان الإنسان، فإنسانيته ترتبط إرتباطًا وثيقًا بالعلم. فالإنسان مسؤول عن تعلّمه الذاتي.

وللأسف فإنّ كثيرًا من الناس يفقدون الإحساس بهذه المسؤوليّة في حياتهم،

فيفقدون بذلك سرّ النجاح في الحياة، فيحسبون أنّ الآخرين هم المسؤولون عن تعليمهم، في حين أنّهم يجهلون أنّ العلم هو حاجتهم قبل أن تكون حاجة الآخرين. ونحن نستخدم هنا مصطلح العلم في إطاره العام، لا في إطاره الخاص؛ فالعلم ليس فقط ما تدرسه في الكتب، أو تسمعه من الدروس والمحاضرات، بل هو أوسع مدى من ذلك بكثير، إنّه سيطرة الإنسان عقليًّا على الحياة؛ أي أن يعرف الإنسان الوسط المحيط به، وأن يعرف متغيّرات الحياة، والقضايا الإجتماعيّة والإقتصادية والسياسية العامّة والخاصّة، كلّ ذلك يمكن أن نطلق عليه (العلم)، لكي يستطيع الإنسان تكييف نفسه مع ما يحيط به في الحياة.

وعندما أراد الفلاسفة تحديد فلسفة العلم وهدفه وهدف الأحاسيس والمشاعر التي تؤدّي إلى العلم، قالوا إنّ الهدف من كلّ ذلك أن يتكيّف الإنسان مع ما يحيط به. وقولهم هذا صحيح، فالعلم بمعناه الأوسع هو كل ما يسهم في تحقيق هذا التكيّف، وكلّ ما يجعلك تسيطر على حياتك سيطرة أفضل.

وللأسف فإنّ بعض الناس لم يكتشفوا هذا السرّ، فأصبحت حياتهم مظلمة، بعيدة عن العلم والنجاح؛ واكتشاف هذه المسؤولية والإحساس بها، هما من أركان بناء الإنسان لنفسه بناء قياديًّا.

بلى؛ أنّ الإنسان إن لم يدرك أن المسؤول عن تعليمه في الحياة هو ذاته، وأن العلم هو إحدى المسؤوليات الملقاة على عاتقه طبيعيًا كمسؤولية الحفاظ على النفس، فإنّ عجزًا كبيرًا سينفذ في حياته، وهذا العجز سوف يؤدّي به إلى الفشل قطعًا.

والسؤال المطروح هنا هو: كيف يمكن أن يتحسّس الإنسان هذه المسؤوليّة، وكيف يؤدّيها، وكيف يمكن لبعض الناس الذين أصيبوا في بداية حياتهم بعقدة تجاه العلم، فأصبح عبئًا ثقيلًا عليهم أن يقبلوا على التعلّم بنشاط ورحابة صدر من

دون أن يواجهوا الدراسة بكراهية مبطّنة؟.

إنّ على هؤلاء أن يكتشفوا أنفسهم، وأن يزيلوا هذه العقدة، ويوحوا إلى ذواتهم أن الكتاب هو خير صديق للإنسان، وأنّ المعلّم هو أحبّ الناس إليهم، وأنّ ساعة الدراسة هي من ألذّ الأوقات.. فمثل هذا الإيحاء سوف يقضي شيئًا فشيئًا على تلك العقدة الكامنة في نفوسهم منذ أيّام الطفولة، والتي تفصل بينهم وبين الإحساس بضرورة العلم.

وعلى هذا فإنّ العلم له عدّة طرق، والكتاب ليس هو المعلّم الوحيد للإنسان. فالحياة هي بحدّ ذاتها أفضل معلّم للإنسان، ولكنّ الناس لا يبصرون، ولا يستخدمون مشاعرهم وأحاسيسهم ليعرفوا ما يجري حولهم وكيف يجري ليربطوا بين بعض الدلالات والحقائق.

إنّ الكثير من الناس يكتشفون الحقيقة اليوم في حين أنّ البعض الآخر لا يكتشفها إلا بعد عام أو عامين، والفريق الأول ليسوا رجال غيب ولكنهّم بصروا ما لم يبصره الآخرون، وأدركوا أهميّة الدلالات والإشارات المحيطة بالحقيقة، في حين أنّ الآخرين لم يلتفتوا إليها.

ولكي نكون ممّن يكتشف هذه الإشارات قبل الآخرين، لابدّ أن يختلي كلّ واحد منا بنفسه ساعة، ويبتعد عن المؤثّرات الخارجيّة، فهذه الخلوة تقدّم للإنسان منافع كثيرة، منها معرفة طريقة الإستفادة من إيحاءات الحياة. فعندما تجلس وتفكّر فيما جرى حولك؛ مَن الذي أحسن وأصلح؟. ومَن الذي أساء وأفسد؟. مَن يسير في الإتجاه الصحيح، ومَن ينتهج الطريق الخاطىء؟. وما شاكل ذلك من قضايا، فإنّك ستثري بذلك فكرك، وتدفع نفسك إلى اكتشاف الكثير من الحقائق.

إنّ فكر الإنسان يشبه إلى حدّ كبير المصباح الكهربائّي الذي ينتشر ضوؤه في كلّ مكان محيط به، فهو ثابت في نقطة واحدة ولكن أمواجه ترامى وتتسع لتلتقي

هنا وهناك. فمن الطبيعي أنّك عندما تفكّر في قضية فإن فكرك سوف يعمل بشكل متواصل ليكشف لك أكثر من قضية واحدة، وأكثر من علاقة واحدة بين حدثين. وهذا ما يجعلك قريبًا من الحقائق، مكتشفًا لها قبل الآخرين، بل إنك ستكتشف أسلوب الوصول إلى الحقيقة؛ ففي المرّة الأولى التي اكتشفت فيها الحقيقة، فإنّك ستكتشف الطريق المناسب إلى مثيلاتها من الحقائق الأخرى.

إنّ المنطق الذي يبحث في سبل إكتشاف الحقائق مؤخّر عن العلم لا مقدّم عليه، لأنّ الإنسان بعلمه يكتشف شيئًا ثمّ يكتشف المنهج الذي أعانه على إكتشاف هذا الشيء، وبذلك يصل إلى قاعدة من قواعد المنطق. فكلّ إنسان بإمكانه أن يكتشف مناهج جديدة للفهم، شريطة أن تكون له خلوة.

وللخلوة -بالإضافة إلى ذلك- فوائد أخرى، منها تركيز الإرادة، وشحذ العزيمة، واكتشاف النواقص وأسباب العجز الذاتي، والإبتعاد عن المؤثّرات النفسيّة.. ولكن الفائدة الرئيسية التي أريد التحدث عنها هي، فهم الحياة. فلنتدبر في هذه الكلمة، ولنعمل بها، فـ: «**فِكْرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ**»[(١)]، كما قال رسول الله ﷺ؛ فلنجعل منها مفتاح النجاح في حياتنا، فالذي يفشل في الدنيا يفشل أيضًا في الآخرة، لأنّ الإنسان الذي يفقد مفتاح النجاح فإنّما يفقد طريق إنسانيته.

إنّ الإنسان من الممكن أن يصاب بانحرافات كثيرة دون أن يشعر بها، ودون أن تتسنى له لحظة تفكير واحدة يكتشف من خلالها هذه الإنحرافات، فليجعل كلّ واحد منّا من الآخرين مقياسًا لتقييم نفسه. فنحن نعرف أنّ الآخرين لهم إنحرافات، ويعانون من نقاط ضعف، وبالتالي فإنّنا أيضًا قد نعاني من بعض تلك الإنحرافات ونقاط الضعف. من هنا ينبغي أن أجعل من نفسي واعظًا وزاجرًا لها، ولأكن مربّي نفسي بدلًا من الآخرين من خلال الساعات التي أخلو فيها إليها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٥.

ولكي لا ينغّص عليك الشيطان خلوتك هذه، ينبغي أن تكون هذه الساعات، ساعات الإختلاء بالله تعالى أيضًا. ففي نفس الوقت الذي تحاول فيه أن تفكّر، من الأفضل أن تقرأ الأدعية والقرآن وتتدبّر فيهما لكي تتفاعل معهما، وتكون بعيدًا عن الأجواء الماديّة المحيطة بنفسك، وتخرج من تلك القوالب الحديديّة التي وضعت فيها نفسك.. فتكتشف بذلك نواقص نفسك لتبادر إلى إصلاحها.

فلنتفاعل مع آيات القرآن الكريم ومواعظه وعبره، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأدعية والصلاة. فلا بأس أن تفكّر أثناء الصلاة في شؤونك وتتذكّر ذنوبك وأخطاءك التي لو قال الآخرون أنها موجودة فيك لنهرتهم، ورفضت الإستماع إليهم. أمّا في الصلاة فإنّك تشعر بالخجل والحياء من ربّك، ولا تستطيع إنكار وجود تلك الإنحرافات في نفسك، فتبكي أو تتباكى على ذنوبك في الصلاة عند القنوت.

وعندما تقنت إلى ربّك سبحانه، فليس من الضروري أن تكرر نفس العبارات التي تعلّمتها وورثتها من أبيك أو جدّك، بل حاول أن تبحث عن أدعية قريبة من نفسك، ومعبّرة عن واقعك وتطلّعاتك؛ وإذا لم تجد مثل هذه الأدعية، فاقرأ الأدعية المأثورة ولكن إشفعها بأدعية تنطلق من قلبك لتشعر بواقعك، وتذكر ذنوبك، وادعُ الله أن يغفر لك تلك الذنوب، ذنبًا ذنبًا لتكون الصلاة معلِّمة لك. وهذه هي الخلوة المطلوبة التي هي الخلوة الرحمانيّة، لا الخلوة الشيطانيّة.

صحيح أنّ بعض الناس يختلون بأنفسهم، ولكن في أيّ شيء يفكّرون، ولأيّ شيء يخططون؟.

إنّهم يخطّطون ليركزوا مفاسدهم وانحرافاتهم، ويكرّسوا منهجهم المنحرف. أمّا الانسان المؤمن، فإنّه يختلي بنفسه ويرى الله عز وجل شاهدًا عليه، هذا هو سرّ من أسرار النجاح.

وإني إن لم أستطع أن أعبر للقارىء الكريم تعبيرًا دقيقًا عن كلّ ما يحيط بهذه الفكرة، فإنّي أطلب منه أن يجرّب هذه العمليّة بنفسه لكي يكتشف مدى فائدتها، فليجلس بعيدًا عن الأضواء، ولا يفكّر في شيء واحد، بل في مختلف أموره؛ دراسته، موقفه من الحياة، طريقة تعامله معها.. ليفكّر في كلّ هذا. فمجرّد التفكير هو سرّ النجاح في حياة كلّ العظماء الذين درستُ حياتهم، فقد كانت لهم ساعات للتفكير.

وهكذا فإنّ ساعات الخلوة هي ضرورة من ضرورات الحياة، وهذه هي القاعدة الثانية في بناء الإنسان لنفسه. فالإنسان عندما يكون طموحه عاليًا، فإنّ هذا الطموح سوف يصبح وقودًا يدفعه إلى الأمام. وحديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام بليغ كلّ البلاغة في بيان هذه الحقيقة، فهو عليه السلام يقول: «**مَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ**»(١). فإذا كانت نيتك قويّة، وإرادتك فولاذيّة، فإنّ جسمك سيتبعك شاء أم أبى.

إن الهمة العالية هي من طبيعة الإنسان الذي استوعب رسالة السماء، وعرف لماذا خُلق، والى أيّ مدى يستطيع أن يصعد.. ولكنّ المشكلة الأساسية عند الإنسان هي مشكلة اليأس الذي يجب أن يعالج بالتوكّل على الله تعالى. ففي كلّ لحظة نحن بحاجة إلى التوكّل، وخصوصًا القائد. فعندما تختار أن تصبح قائدًا، فهذا يعني أنّك اخترت تحمّل مسؤوليّة الآخرين بالإضافة إلى مسؤوليتك. فالآخرون سوف يحمّلونك مسؤوليّاتهم ومشاكلهم، ويطالبونك بتشجيعهم، بأن تفيض من روحك روحًا عليهم، ومن إرادتك عزيمة.

ولكن كيف تقتبس أنت هذه العزيمة، وتستوحي هذه الروح، وكيف تدفع نفسك إلى الأمام؟.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤٠٠.

إنّ ذلك ممكن من خلال الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه. وعندما أقول إنّنا يجب أن نعالج اليأس بالتوكّل، فإنّ هذا لا يعني أن تأخذ اليأس وترشّ عليه رشة من التوكّل، وعندئذ يموت اليأس إلى الأبد، بل يجب أن تعيش حالة التوكّل دائمًا. فنحن نعيش في كلّ لحظة بين اليأس والرجاء، ولابدّ أن نستمد من التوكل روح الرجاء. وهنا تكمن آفة من آفات القيادة الكبيرة، ألا وهي خور العزيمة، والتردد في اتخاذ القرارات، متعلّلة بذرائع شتى، منها الحرص على عدم إراقة دماء المسلمين.

كلّ ذلك يعني أنّ الإنسان ضعيف، اقتضاء لطبيعته البشريّة، ولكي لا يسيطر الضعف عليه في الأوقات الحرجة في حياته، عليه أن يكتشف الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا أراد أن يصبح قائدًا فعليه أن يكتشف مفتاح التوكّل على الله، لكي يستمد العزيمة من الله كلّما خارت عزيمته هذه، شريطة أن لا نغلق الباب بيننا وبينه سبحانه وتعالى.

إنّ هناك البعض من الناس يدعون إلى التوكّل، ولكنهّم لا يفهمون معناه. فالإنسان العاصي الذي قطع علاقاته مع ربّه، فغضب عليه، مثل هذا الإنسان لا ينفعه توكله، لأن الإنسان المؤمن هو الجدير بالتوكل. قال الله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

فالذي لا يمتلك الإيمان، كيف يمكنه أن يتوكل على الله؟.

وهكذا فإنّ من شروط التوكل، هو فتح الطريق الموصل بينك وبين الله عز وجل من خلال التوبة الدائمة عن المعاصي، ومحاولة تجنّبها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٢

بين تنمية العقل وتراكم المعلومات

ما هي العلاقة بين العقل والعلم؟. ولماذا نجد في آيات الذكر الحكيم وفي السنة الشريفة تأكيدًا على دور العقل، وأيهما الأفضل؛ أن يكون الإنسان عاقلا أم أن يكون عالمًا؟.

لكي نوضح الإجابة على تلك التساؤلات أجدني بحاجة إلى أن أضرب مثلًا؛ لنفترض العقل بمثابة الظرف، والعلم بمثابة ما فيه، فما هي العلاقة بين الظرف والمظروف؟.

لو افترضنا أنك تملك كأسًا، ثم جعلت في هذا الكأس ماءً، فمن الطبيعي أنّ هذا الكأس بإمكانه أن يحمل من الماء بمقدار حجمه.

بين العقل والعلم علاقة مصيرية

والعقل هو ذلك الظرف، والعلم هو بمثابة المظروف، أو ما في هذا الظرف، والعلاقة بينهما هي بمنزلة علاقة الأم بوليدها، والأصل بفرعه، وعلاقة الجذر بالساق؛ فكلما كان الظرف أكبر كلما كان استيعابه للمظروف أكثر، وكلما كان عقل الإنسان أكبر كان استيعابه للعلم أكثر.

وللأسف فاننا نجد أن هناك الكثيرين ممن يقتنون في بيوتهم الكتب الكثيرة في مختلف العلوم، إلا أنّ قدرة استيعابهم للأفكار التي تحويها تلك الكتب ضعيفة، فهم لا يستطيعون الربط بين ما يملكونه من الكتب وبين ما يقدمونه من معلومات، مخالفين بذلك حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إذ يقول: «**حَدِيثٌ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ تَرْوِيهِ**»(١).

وهناك أيضًا الكثير من الطلاب لا يفكرون إلا في زيادة علمهم، وهناك عدد قليل منهم أوتي الحكمة ففكر أن يزيد من عقله؛ أولئك يدخلون الصف فيحدثهم الأستاذ -مثلًا- عن الموت والحياة، ويضرب لهم الأمثال فيحفظونها، ويحفظون النصوص، وينتبهون إلى إعرابها، دون أن يلتفتوا إلى جوهر ما قاله، ودون أن يسائلوا أنفسهم أن الموت هو الذي يهددهم في كل لحظة. وهكذا لا يعملون على زيادة عقولهم، بل يحاولون زيادة محفوظاتهم، في حين أنّ هذه المحفوظات ستزول وتذهب، والعقل هو الذي يبقى ويخلد.

لا شك إن العقل مهما كبر، فإنه غير قادر على استيعاب العلوم الكثيرة الغزيرة. فعلينا أن نجدد منذ الآن موقفنا إزاء العلم، هل هو موقف التكديس والزيادة في المعلومات أم هو موقف رفع نوعية وكيفية تلك المعلومات. فعلينا إذن أن نزداد فهمًا وخبرة وعقلًا، وإلا فما الفائدة من زيادة العلم إذا لم نزدد تدبيرًا، وتواضعًا لله ومعرفة وعرفانًا به سبحانه وتعالى. فإذا أردنا أن تصبح عقولنا أكبر من علمنا، فعلينا أن لا نختار على العقل شيئًا.

والقرآن الكريم نفسه يؤكد على دور العقل في الكثير من آياته، فكثيرًا ما نجد فيه تعبيرات من مثل: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فهي تؤكد على العقل وتمنحه الثقل الأكبر في الحياة. وهذا هو جوهر

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص١٨٤.

الحضارة الإسلامية، في حين أن الحضارات الأخرى تفتقر إلى قدرة العقل الواعية التي من شأنها أن تضبط الجانب المادي من الحضارة.

الإبتعاد عن العقل سبب المآسي

فالعالم اليوم قد قطع أشواطًا طويلة في مجال التقدم المادي، ولكن عقله مع ذلك ما يزال صغيرًا عاجزًا عن ضبط هذا التقدم وتوجيهه إنسانيًا، وكان من نتيجة ذلك أن ارتكب هذا العالم المادي الكثير من الجرائم بسبب غياب العقل. فلقد استطاعت البلدان الغربية وعلى رأسها أميركا إختراع القنبلة الذرية، لتسخرها لأغراض القتل والدمار؛ فلم يحل عام ١٩٤٥م حتى ألقت أميركا قنبلتيها الذريتين على اليابان، لا لشيء إلاّ لتثبت للعالم أنها تمتلك إمكانيات هائلة في مجال التسلح العسكري.

وقد أصبحت هذه الإمكانيات الآن من المفاخر التي تتشدق بها البلدان الغربية، ومن مجالات التسابق المحموم بينها، في حين أن الأزمات الإقتصادية تعصف بالبلدان الغربية، ومع ذلك نرى حكوماتها مشغولة بانفاق الأموال الطائلة على التسلح بدلًا من مبادرتها إلى حل تلك الأزمات.

كل ذلك يعني أنّ العالم يمتلك العلم، ولكنه يفتقر إلى العقل. فالعالم اليوم هوعالم غير رشيد، قد قطع أشواطًا بعيدة في مضمار التقدم المادي، ولكنه لم يقطع ولو شوطًا بسيطًا في مجال الرقي العقلي.

زيادة العقل هدف الأنبياء

ولقد جاء الأنبياء عليهم السلام لإكمال وإنضاج عقول البشر، وليس لزيادة علمهم؛ فرسالتهم تستهدف رفع المستوى العقلي للناس، ومنحهم الرشد الفكري.. ولكننا نجد للأسف الشديد عكس هذه الحالة، حتى في بلداننا الإسلامية.

من كل ذلك نستنتج أن على طلبة العلوم الدينية أن يفكروا في رفع مستواهم

الفكري والعقلي قبل أن يفكروا في التعلم وزيادة المعلومات، كما على كل واحد منّا أن يفهم طبيعة مجتمعه، وأن يستوعب المعلومات التي يتلقاها إستيعابًا عميقًا من خلال التفكر والإعتبار.

بين العلم والمعلومات

هناك فرق بين العلم والمعلومات، وعصرنا هو عصر المعلومات، ولذلك فإنّ من أراد أن يكون عالمًا فإنّه سيتحرّك باتّجاه مضادّ للتيّار السائد. فالمعلومات هي هذه الأخبار والأفكار والتحليلات التي تلفظها المطابع يوميًا بكميّات هائلة، وتبثّها محطات التلفزيون والإذاعة، وتختزنها الكومبيوترات ذات القدرة الهائلة على التخزين. في حين أنّ العلم هو مقدار استيعاب الإنسان لهذه المعلومات، بالإضافة إلى قدرته على تقييمها، وعرضها على ما يمتلكه من قيم.

مشكلة تضخيم المعلومات

إنّ هذا التعارض يشتد يومًا بعد آخر في عالمنا، لأنّ عمليّة نقل المعلومات من مكان إلى آخر تزداد سرعة، وتزداد إتساعًا؛ فإلى الأمس القريب كان الكومبيوتر شيئًا مثاليًّا بالنسبة إلى الإنسان، ووجودًا مقتصرًا على وزارات الدفاع والتخطيط والجامعات الكبرى في العالم.

وإلى الأمس القريب أيضًا كان الكومبيوتر يتّسع حجمه لغرفة كاملة، في حين أنك اليوم تستطيع أن تضعه في جيبك، بل إنّ الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم الثماني سنوات بدؤوا الآن يتسلّون به، ويزوّدونه بالبرامج.

وعلى هذا فإنّ العالَم يتّجه اليوم إلى تضخيم المعلومات، علمًا أنّ هذه المعلومات كلّما ازدادت وتضخّمت فإنّ قدرة الإنسان على استيعابها سوف تقل، لأنها قدرة محدودة، ولذلك فإنّ الكثير ممّن يستمعون إلى نشرات الأخبار لا يستطيعون أن يخبروك بدقّة كاملة عندما تسألهم عن النتيجة التي خرجوا بها، بل

إنّ أكثر الذين يطالعون الصحف ليس بمقدورهم أن يزوّدوك بشيء، ذلك لأنّ هذه الصحف لم تضف الجديد إلى حياتهم الداخليّة والعمليّة.

ولذلك فإن أحد الكتاب في الغرب يعرب في هذا المجال قائلًا: إن أكثر الناس أصبحوا اليوم أميين، رغم أنّهم يتعاملون مع أجهزة علميّة بالغة الدقة والتقنية، ذلك لأنهم لم يستوعبوا في الواقع المعلومات التي حصلوا عليها.

وهكذا فإن مثل الناس اليوم أصبح كمثل الشاحنة الكبيرة التي وضعت فيها معلومات الأولين والآخرين، ولكنّ صاحب الشاحنة لا يعرف عن المعلومات شيئًا. إنّ قدرة الإنسان على الإستيعاب شرط لمقدار ومدى استفادته من العلم.

ونحن إذا أردنا أن نخرج من هذا المسار الخاطىء الذي وقع فيه الآخرون، فلابدّ أوّلًا وقبل كلّ شيء أن نعرف أنّ المسافة بين العلم والمعلومات كالمسافة بين الإنتاج والإستهلاك. فالعلم يشبه الإنتاج، بينما المعلومات هي كالإستهلاك. فكما أنّ الإنسان يميل إلى الإستهلاك أكثر من ميله إلى الإنتاج، فإنّه كذلك يميل إلى المعلومات أكثرمن ميله إلى العلم.

وعلى هذا فإننا إذا ما أردنا أن نقاوم هذا التيّار، فإنّ علينا أن نغيرّ مسيرتنا من الإستهلاك إلى الإنتاج؛ ومثل هذا التغيير بحاجة إلى عزيمة، والى تحمّل الصعوبات.. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ**»(١).

فمن الصعب علينا أن نستوعب حديثًا في مستوى القرآن الكريم، أو في مستوى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام، إلاّ إذا كانت لدينا الإرادة الكافية لتحمّل الصعوبات.

---

(١) نهج البلاغة، (١٨٩) من كلام له عليه السلام في الإيمان ووجوب الهجرة.

كيف نستفيد من المطالعة؟

أمّا السبيل إلى ذلك، فيتمثّل في أن نخصص جزءًا من أوقاتنا لدراسة الكتب التي هي في مستوى ثقافتنا. وعلينا أن لا ننهزم أمام صعوبة الكتاب، لأنّ هذه الحالة تكرس فينا التخلف والضعف.. فنحن عندما نستمرّ في قراءة الكتاب المفيد، مهما كان صعبًا، فإنّنا سنشعر بالرقي والتفوق.

وهكذا فإنّ علينا أن نفكر كثيرًا فيما نقرؤه، وأن لا نفكر في إتمام مطالعة الكتاب، وحفظ المعلومات التي جاءت فيه.. فهذا الأسلوب مغلوط في تعلّم العلم، ولذلك فإنّ طرق التعليم في جامعاتنا كانت فاشلة، لأنها كانت تعتمد على ذاكرة الطالب وقدرته على الحفظ وتخزين المعلومات. وللأسف فإنّ بعض الإسلاميّين قد وقعوا أيضًا في أسر هذا الأسلوب.

وبناءً على ذلك، فإنّ من الواجب علينا في هذا المجال أن ننظر إلى الكيفيّة؛ فعلينا أن نطالع الكتاب دون أن تهمّنا نهايته، فلنقرأ ما وراء سطوره. وهكذا يجب أن يكون همّنا استيعاب ما في الكتاب وفهمه، لا أن نصل إلى نهايته.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ علينا أن نسجّل دائمًا ما يتبادر إلى أذهاننا من أفكار، ونقاط حسّاسة، أينما تبادرت هذه الأفكار والنقاط إلى أذهاننا؛ فمثل هذه اللحظات الإكتشافّية، لا تأتي إلا بعد معاناة طويلة، ونحن نحتاجها في معرفتنا للحقائق، لأنّ تلك الأفكار سوف تبقى وتترسّخ في أذهاننا، وتصبح جزءًا من وجودنا.

فإلى مزيد من العلم، حتىّ وإن كان ذلك على حساب المعلومات، لأنّ هذه المعلومات من دون العلم لا يمكن أن تعود على الإنسان بفائدة، سوى أنّها ستجعله حمّالًا دون أن يعي ويستوعب ما يحمله.

بين العلم والمال

تعتمد الحياة على قاعدتين أساسيتين هما: العلم والعمل، والعمل حينما يتكثف يتحول إلى رصيد متراكم يسمى مالًا. فالمال في الواقع ليس إلاّ عملًا مركزًا ومتراكمًا، أما العلم فهو جانب الرؤية إلى الحياة، ومعرفة الأنظمة والسُّنن السائدة فيها، وطريقة تسخير الأرض، ومعرفة النظام الكوني الذي نعيش فيه.

العلم هو المقياس المتفوق

وحينما نقيس العلم والمال، فلا ريب أن العلم يسمو على المال؛ فلولا معرفة الإنسان للحياة، لما كان هناك فرق بين البشر وسائر الأحياء، بل لما كان هناك فرق بين الإنسان والطبيعة. فالإنسان إنما سخر الطبيعة بعلمه، ولذلك نجد الآيات القرآنية تذكِّر بهذه الحقيقة، حيث يقول الله تعالى في قصة نبينا آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣١-٣٤.

فالملائكة سجدت للإنسان، لأن الله علّم الإنسان ما لم يعلم حينما زوَّد الله تعالى أبانا آدم عليه السلام بالعلم. وإذا كانت الملائكة هي الحقائق الغيبية الموكلة بالطبيعة، فلقد أسجد الله للإنسان كل الطبيعة، وسخرها له باستثناء شيء واحد هو نفس الإنسان الأمارة بالسوء، التي تمثل تمرُّد إبليس وعصيانه لأمر الله جل شأنه. وإذا استطاع الإنسان أن يُخضع نفسه الأمارة بالسوء، فعندها سينتصر على الشيطان، وبذلك تكون الطبيعة قد سُخِّرت للإنسان بشكل تام، ويكون قد حقق السيادة الكلية على الكون، وهذا هو ما يريده الله عز وجل.

بالعلم نكبح جوامحنا

والآن يتبادر إلى الذهن السؤال التالي:

كيف يستطيع الإنسان إخضاع نفسه الشهوانية لعقله النيِّر، وينتصر على عدوه الأكبر الشيطان؟.

إن هذا يتم بالعلم أيضًا، ذلك العلم الإلهي الذي أودعه الله تعالى في الإنسان. فإبليس حينما عصى وتمرد لم يكن خارجًا عن حكم الله وسلطانه، فالله تعالى قادر على أخذه متى شاء. فكذلك الإنسان الذي يحمل العلم الإلهي بامكانه أن يقهر إبليس وينتصر عليه إذا أراد ذلك، كما أشار إلى ذلك ربنا سبحانه في الآيات التالية:

- ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[2].

- ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٩.

(٢) سورة الحجر، آية: ٤٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٧٦.

وعندما يُسلب من الإنسان علمه، فإنه لا يصبح كسائر الحيوانات فحسب، وإنما أقل قيمة منها وأضل سبيلًا؛ والسبب في ذلك أن الحيوانات التي لم تزوَّد بالعلم قد زُوِّدت بالغرائز وبالقدرة على التكيّف مع ظروف البيئة وقوانين الحياة، في حين أن الإنسان لم يزوَّد على نفس المستوى بهذه القدرات، وإنما وُهب له ما هو أفضل من ذلك، ألا وهو العقل الذي يتعلم به الطريق إلى التغلب على الطبيعة.

فالطير -مثلًا- يطير في السماء بغريزته وقدرته على التكيف مع المجال المغناطيسي للأرض، ولذلك نجده يستطيع أن يهتدي إلى عشه حتى وإن كان يبعد عنه عشرات الكيلومترات دون أن يخطأ. ولكن الإنسان لا يستطيع الطيران، ولا يمتلك في جسمه جهازًا راداريًا، غير أنه بعقله وعلمه استطاع أن يتفوق على الطير، فاخترع الطائرات السريعة الجبارة، واخترع أجهزة الرادار الألكترونية التي مكنته من الإتصال بكل بقعة من بقاع الأرض بحرية وسهولة وسرعة.

وكذلك الحال بالنسبة إلى قدرة السمع عند الإنسان، فإنها أقل بكثير مما عند بعض الحيوانات، ولكن الإنسان المزوَّد بالعلم استطاع أن يخترع أجهزة سمع كالتلفون واللاسلكي.. وإذا به يتفوق على الحيوانات بخطوات شاسعة، ويتمكن من سماع أصوات تصدر على بعد آلاف الأميال.

وعندما نقارن بين العلم والمال نجد أن المال أقل قيمة من العلم، ولو قارنا أيضًا العمل بالعلم لوجدنا أن العمل لا قيمة له إلا إذا إهتدى بضوء العلم. ولذلك نرى الإمام علي عليه السلام يؤكد على أفضلية العلم على المال في حديثه المعروف مع كميل بن زياد، حيث يقول عليه السلام: «**يَا كُمَيْلُ؛ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ**»[1].

---

(١) نهج البلاغة، (١٤٧) من كلام له عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه.

العلم بدون التقوى

ولكن هل يستطيع العلم وحده أن يقود المجتمع ويدير شؤونه؟. وهل تنجح دولة تقام على أسس علمانية مادية مجردة وبعيدة عن القيم؟.

وعندما نطرح هذين السؤالين على الإسلام، فسرعان ما سيجيبنا بالنفي. فالعلم بدون التقوى لا ينفع شيئًا، بل إن ضرره يكون أكبر من نفعه. فالعلم طاقة كبرى، كما أن المال طاقة كبرى أيضًا؛ وإذا وجه العلم أو المال باتجاه الشر، فسوف يكون ضررهما كبيرًا بقدر خطورة وعظمة هاتين الطاقتين.

إن العلم والمال إذا أسيء استعمالهما، فسيكونان سببًا في تدمير العالم من خلال نتاج الأسلحة المدمرة وما إلى ذلك من وسائل الدمار، وإذا ما وجها توجيهًا خاطئًا فسيكونان أداة بيد الأجهزة الحاقدة في العالم التي تسعى لتحطيم الحضارة الإنسانية. والعلم عندما لا يُحدَّد بالتقوى، فإنه سيصبح أداة بيد شخص مثل (بلعم بن باعوراء) الذي استعمل علمه لتدمير حياة المجتمع من خلال دعمه لسلطة الطاغوت، وبيد شخص مثل (شريح القاضي) الذي أفتى بقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام في جريمة نكراء لم يشهد ولن يشهد التاريخ لها مثيلًا، وقد أحسن الشاعر عندما قال في بيان عدم قيمة العلم دون التقوى:

لَو كانَ لِلعِلمِ دونَ التُقى شَرَفٌ ... لَكانَ أشـرَفُ خَلقِ اللهِ إبليسُ

العلماء الأبرار وعلماء السوء

ولذلك يفصل الإسلام –وبكل قوة– السلطة عن أصحاب المال، ليؤسس نظامًا إقتصاديًا وإجتماعيًا رصينًا لا ينفذ فيه صاحب المال إلى مركز السلطة، وهذه قضية أساسية في تركيبة المجتمع الإسلامي. وهكذا الحال بالنسبة إلى العلم، فمع أن الإسلام يعطي المزيد من الوجاهة لأهل العلم والعلماء، إلا أنه يفصل فصلًا واضحًا بين العلماء الأبرارالأتقياء، وبين علماء السوء. وبهذا الفصل يبعد الإسلام

عن المجتمع أولئك الذين يستخدمون العلم من أجل إشباع شهواتهم، وبالتالي فإنهم يجعلون العلم تابعًا للمال. فالإنسان الذي يرتزق بعلمه فيبيعه لمن يؤمّن له مصالحه، يجعل بعلمه هذا أصحاب المال والثروة قادة للأمة.

وإذا أردنا مثالًا على هذه الظاهرة السلبية التي طالما حطمت العالم، وسحقت المحرومين، وعذبت البشرية المستضعفة، يكفينا أن ننظر إلى مراكز السلطة وأصحاب المال، لنجد أن بروفسورًا قضى عمره في البحث والدراسة يصبح موظفًا بسيطًا عند حاكم متسلط أو صاحب مال ليدعمه بالعلم الذي أنعم الله به عليه، فيُقهر به المستضعفين ويهضم حقوقهم، بينما جعله الله وسيلة لتحرير الإنسان من ضعفه وعجزه ومحدوديته.

لذا يجدر بالإنسان عدم بيع العلم بدراهم معدودة؛ فمهما كان الثمن المدفوع ضخمًا، فإنه لا يساوي شيئًا أمام قيمة العلم الذي هو دائمًا أغلى من كل شيء ولا يقدر بثمن. ولذلك نرى أن أول ما يبادر إليه الإسلام هو فصل العلم عن المال، وفصل العلم المفرَّغ من التقوى عن إدارة المجتمع، ولذلك فإن الإسلام لا يقول (إن اكرمكم عند الله أعلمكم)، بالرغم من أنه يقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]، بل يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، جاعلًا التقوى أساس التفاضل.

صحيح إن العلم فضيلة، ولكنه لا يكون في قمة الهرم الإجتماعي إلا حينما يكون مؤطرًا بالتقوى، والذي يحدد الإتجاه الصحيح للعلم هو الله عز وجل عبر مناهجه المنزلة على أنبيائه. ولذلك لا تجد آية أو رواية تذكر العلم، وتضفي على العلماء الأهمية، إلا وتشترط أن يكون هؤلاء العلماء على الخط الصحيح. وفي الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنه قال: «**مَنْ كَانَ مِنَ**

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

الْفُقَهَاءِ صَائِناً لِنَفْسِهِ، حَافِظاً لِدِينِهِ، مُخَالِفاً عَلَى هَوَاهُ، مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ، فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»(١).

خطورة علماء السوء

وكم هي كثيرة الأحاديث التي تحذرنا من خطورة علماء السوء، ففي رواية أن رسول الله ﷺ سئل: «أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟. قَالَ ﷺ **الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا**»(٢).

وجاء عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في خطورة علماء السوء، أنه قال: **«وَهُمْ أَضَرُّ عَلَى ضُعَفَاءِ شِيعَتِنَا مِنْ جَيْشِ يَزِيدَ عَلَيْهِ اللعْنَةُ عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّهُمْ يَسْلُبُونَهُمُ الْأَرْوَاحَ وَالْأَمْوَالَ، وَهَؤُلَاءِ عُلَمَاءُ السَّوْءِ النَّاصِبُونَ الْمُتَشَبِّهُونَ بِأَنَّهُمْ لَنَا مُوَالُونَ، وَلِأَعْدَائِنَا مُعَادُونَ، يُدْخِلُونَ الشَّكَّ وَالشُّبْهَةَ عَلَى ضُعَفَاءِ شِيعَتِنَا، فَيُضِلُّونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ عَنْ قَصْدِ الْحَقِّ الْمُصِيبِ»**(٣).

العلماء الأبرار قدوة المجتمع

وفي مقابل هذه الفئة من علماء السوء، هناك العلماء الأبرار الذين هم القدوة الحقيقية للمجتمع، لأنهم من جهة مزوَّدون بطاقة العلم، ومن جهة ثانية يتمتعون بقدرة توجيهية لهذه الطاقة؛ فهم لا يستغلون العلم من أجل تكريس شهواتهم وتحقيق مآربهم الشخصية، ولا يوظفون العلم للحصول على بعض الدراهم، والوقوف على أبواب السلاطين أو على أعتاب أصحاب الثروة والمال.

هذه هي خلاصة رؤية الإسلام حول قيادة المجتمع المتمثلة في ضرورة أن يكون رأس الهرم الإجتماعي تقيًا قبل كل شيء، ثم تأتي بعد ذلك الصفات الأخرى كالعلم والكفاءة الإدارية.

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٣١.
(٢) تحف العقول، ص٣٥.
(٣) الإحتجاج، ج٢، ص٢٦٤.

صفات القائد في القرآن

الصفات الأساسية للقيادة الإسلامية في القرآن الكريم، إنما هي صفات ذات درجات مختلفة متفاوتة، ويشترط الإسلام في أولئك الذين يريدون أن يصبحوا أئمة للناس، أن تتوفر فيهم أعلى درجات الصفات الأساسية للقيادة العامة، وفي مقدمتها التقوى. فالتقوى التي يجب أن يتزوَّد ويتسلَّح بها الإمام القائد، هي التقوى التي تصل إلى درجة الصبر والصمود أمام عواصف الشهوات، ونزول المصائب، واشتداد المكاره.. فلا تتأثر إرادته بالضغوط المختلفة وإن عظمت وتصاعدت. ولذلك يؤكد القرآن الكريم على ذلك قائلًا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[١].

ومن هنا فإن الإسلام لا يرتضي لك بأن يقودك إنسان عالم أيًّا كانت درجة علمه، بل يوجب عليك أن تبحث عن أعلم الناس وأتقاهم في نفس الوقت لتتخذه إمامًا لك، وقد جعل الله تعالى هذا الإنسان إمامًا لأن قيمتي العلم والتقوى كلما زادتا في شخص كلما كانت قيادته أكثر كفاءة. ولذلك فإن القرآن الكريم عندما يذكرنا بشروط القيادة الإسلامية، فإنه يذكر لنا كلمتين هما (الربّيّون) و(الأحبار)؛ فالربّيّون هم العلماء الممحصون في إيمانهم بالله، الأتقياء أولًا والعلماء ثانيًا، ولذلك فإنهم القادة الحقيقيون للمجتمع. وفي حالة افتقارنا إلى الربّيّين تأتي آنئذ مرحلة الأحبار، وهم العلماء أولًا والأتقياء ثانيًا. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[٢].

ومن هنا يجدر بنا أن نبحث عمن تتوفر فيه الصفات القيادية حسب ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام، لنقتدي به.

(١) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٤

بين العلم والعمل

يسجل التاريخ الحديث اليوم منعطفين خطيرين نمر بهما معًا هما:

- منعطف للأمة الإسلامية.
- منعطف لطلائع الأمة وشبابها المؤمن.

فمنعطف الأمة الإسلامية هو حالة الهيجان الجماهيري المتجسدة على هيئة الانتفاضات والثورات، بينما المنعطف الثاني، وهو ما يرتبط بطلائع الأمة وشبابها الغيارى المؤمنين الذين يرسمون خريطة مستقبلهم ومستقبل الأمة بالوعي وبالإعتماد على النفس.

والمنعطف التاريخي قد يتكرر، ولكن المنعطف الشخصي لا يمكن أن يتكرر. فكل إنسان يمر بمرحلة الشباب مرة واحدة في حياته، وفي هذه المرحلة بالذات يمر الإنسان بالمنعطف التاريخي حيث يصوغ شخصيته من جديد. ففي مرحلة الطفولة والشيخوخة لا يمكن للإنسان أن يمسك فيها بزمام نفسه بشكل كامل، وذلك لاعتبارات خاصة بهاتين المرحلتين، أما في مرحلة الشباب فالأمر على العكس تمامًا، والشاعر يؤكد ذلك في قوله:

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا عَدَّلْتَهَا اعْتَدَلَتْ وَلاَ يَلِينُ وَلَـو لَيَّنْتَهُ الْخَشَبُ

والشباب المؤمن مكلَّف في هذا الوقت بأن يخطط لمستقبله ومستقبل أمته.

وعندما يتزامن هذان المنعطفان، فإنهما سيضعاننا أمام مسؤوليتنا التي يجب أن نضطلع بها كي نكون ممن يؤثر في تاريخه تاثيرًا عميقًا لا يزول.

مسؤوليتنا في هذا المرحلة

إن شباب الجيل السابق كانت لهم أهدافهم الخاصة، التي تقتضي منهم أن يصلحوا ما فسد من أمورهم. ونحن اليوم أيضًا مسؤولون عن تعيين مصيرنا ومصير أمتنا، ولذلك فإن مسؤوليتنا تعد خطيرة جدًا؛ فالله عز وجل سيسألنا غدًا عن سبب تهاوننا وتكاسلنا في هذه المرحلة الحساسة التي تمر بها الأمة الإسلامية.

ولكي نقوم بأعباء هذه المسؤولية على أتم وجه، علينا أن ننمو نموًا متكاملًا لا أحاديًا. فالنمو الأحادي أو ذو البعد الواحد، ينتج جسمًا ضخمًا وإرادة ضعيفة، أو إن العلم سيزداد في حين سيقل العمل، والعكس صحيح. وبعبارة أخرى؛ تتواجد قدرة جيدة لدى الفرد على التطبيق والتنفيذ، ولكن لا توجد لديه قدرة على التحكم بالإرادة، وهذا كله نمو في بعد واحد، وهذا الشكل من النمو يشكل خطرًا على مستقبل الفرد والأمة، ذلك لأن الفرد لا يستطيع أن يتلافى ما حدث من إهمال بعد عدة سنوات، وعلى هذا فإن النمو ينبغي أن يكون متكاملًا من جميع الجهات.

إن الله عز وجل خلق جميع أعضاء الإنسان متناسقة على الرغم من تباين أشكالها، فلا يمكن لأيّ واحد منا أن يدعي أنه يستطيع أن يعوض بحاسة السمع عن البصر، أو إستخدام رجليه بدلًا من يديه.. فلقد وضع الله كل شيء في مكانه، في تنسيق بديع، وحكَّم المخ على جميع تلك الأعضاء.

وكما إن الإنسان قد احتوى على هذه الكمالات البشرية التي لا تناقض بينها،

فإنه لا تناقض بين العلم والعمل أيضًا. فالعلم يشبه العين التي ترى وتستطلع، والعمل يشبه اليد التي تنفذ. فيجب- إذن- أن نقرن العلم بالعمل، لأن القول بأن التناقض موجود ما هو إلا فكر مدسوس من أفكار الشيطان. فليس صحيحًا أن لا أعمل، لأني أدرس، أو أن لا أدرس لأني أعمل.

وعلى هذا يجب على طلاب الحوزات العلمية أن يربّوا أنفسهم، ويكملوا جميع أبعاد حياتهم علمًا وعملًا، وعبادة وزهدًا، وقدرة على تحمل الصعاب، واكتساب الكفاءات.. بل عليهم أن يكونوا دورة حضارية متكاملة قائمة بذاتها، تنعكس في وجودهم الحضارة الإسلامية بكل أبعادها.

سبيلنا إلى التكامل

إن الوصول إلى مرحلة التكامل يعد أمرًا صعبًا وهامًا في الوقت نفسه، وإذا ما أردنا أن نعيش ونرسم مستقبلنا ومستقبل أمتنا فعلينا أن نتكامل من خلال عدة وسائل وطرق، منها:

- الإقدام على العمل، وعدم الهروب منه.
- التوكل على الله، والاستعانة به على أداء أعمالنا.
- المشاركة في اللجان الفاعلة في نهضة الأمة نحو آفاق الإزدهار.

وعلى كل واحد منا أن يحمل بين جنبيه أملًا وهدفًا في حياته، فالذي لا يحمل أي هدف يعيش كما تعيش الأنعام. ولأجل أن يتحقق الهدف الذي نطمح إليه، علينا أن نتكامل، كي نظفر بالتوفيق والنجاح.

ولكي يتحقق التكامل التام، على طلبة العلم إتباع الأساليب التالية:

- ضبط الوقت فيما يتعلق بالدرس

فالحضور المتواصل والمنتظم في الحلقات الدراسية، ينعكس على ما يتلقاه

الطالب من العلوم، ومقدار فهمه للدروس بصورة متكاملة وصحيحة.

- تركيز النظر والفكر على حديث المدرس.

وهذا أمر هام جدًّا يجعلنا لا ننسى الدرس على الاطلاق.

- تلخيص الدرس ومراجعته.

وعلى هذا فالمطلوب أن نربي أنفسنا على مختلف الكمالات؛ من تزكية النفس، إلى التعلم، ومختلف الممارسات العملية، حتى نجعل من شخصيتنا شخصية متكاملة تنفع الأمة الإسلامية في منعطفاتها.

بين التجزئة والشمولية

من المشاكل التي ابتلي بها العالَم اليوم، مشكلة التجزئة المتوغّلة إلى حدود عميقة وبعيدة في كيان هذا العالَم. فلقد توجّه العلم الحديث نحو التحليل والتجزئة إلى درجة، أنّه أنسى العالَم الرؤية التكامليّة الواحدة، والإطار المشترك الذي يجمع الأفكار والمعلومات المختلفة، على الرغم من أنّ حكماء عصرنا قد انتبهوا إلى نقطة الضعف هذه، وحذّروا منها، مثل العالم المعروف (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل في كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول)، فهو يحدّثنا باسهاب عن مشكلة التجزئة في العلم الحديث، وكيف أنّ هذه الأزمة جعلتنا لا نعرف ذواتنا التي هي أقرب الأشياء إلينا.

مظاهر التجزئة في العلم الحديث

ويضرب هذا المفكّر لذلك مثلًا عن الإنسان، وكيف أنّه جزّء روحه عن جسمه، وفصل علم النفس الإجتماعي عن علم النفس الفردي، وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية فروع علم النفس التي فصلها هي الأخرى عن علم التربية والأخلاق والعلوم الفلسفية المرتبطة هي أيضًا بالإنسان. ولم يكتف بذلك، بل إنّه عمد إلى تجزئة علم الإقتصاد عن علم السياسة، وعلم السياسة عن علم الإجتماع، والأخير عن علم النفس.

وعلى سبيل المثال فإنّك إذا درست في كليّةٍ مّا، فإنّك بعد فترة قصيرة سترى نفسك تبحث عن قضيّة جزئيّة جدًا، لينسيك هذا البحث فهم القضايا الأخرى. ولذلك فإنّ الإنسان اليوم ينظر إلى بُعد واحد في كافّة أموره، وقد كتب عالم النفس (هربت ماركوس) كتابًا حول هذه المشكلة إسمه (الإنسان ذو البعد الواحد)، وقد فجّر هذا الكتاب ثورة الشباب في فرنسا عام ١٩٦٨م.

وعلى الرغم من تحذير الحكماء والمفكرين في العصر الحديث من هذا التوجه والمبالغة في التجزيئيّة، إلاّ أن وجهة العلم الحديث تنطلق وبسرعة نحو التحليل والتجزئة ووضع الحدود الفاصلة بين الحياة الواحدة، وبين المجتمع الواحد، والنفس الواحدة.

مخاطر منهج التجزئة

مثل هذه التجزئة تشكلّ خطورة للبشريّة، وخطورتها تكمن في أنّ الله تعالى لم يخلق مجتمعًا من دون فرد، ولا فردًا من غير مجتمع، ولا نفسًا تعيش في عالم الإجتماع، وأخرى في عالم الإقتصاد أو في عالم السياسة... فالله سبحانه خلق الكون وحدة واحدة مترابطة الأجزاء، ولا يمكن فهم هذا الكون من دون الرؤية التكاملية.

وهذه الخطورة تتضاعف عندما تدخل هذا الروح التجزيئية البعيدة عن الرؤية التكامليّة إلى بلادنا، ذلك لأنّ الإنسان في العالم الغربيّ إن كان له إختصاص في فرع معيّن، فإنّ هناك أشخاصًا آخرين مختصين في فروع أخرى، وبالتالي فإن جهودهم المختلفة تنصبّ في إطار واحد.

أمّا نحن فقد أردنا تقليد الغرب ولكننا نسينا في غمرة هذا التقليد قيمنا، فعندما نفذت فينا تلك الروح سبّبت لنا مأساة، وهي أنّك ترى -على سبيل المثال- طبّنا متخلّفًا، وخبراتنا معطّلة.. فترى حملة الشهادات يقدمون من أوروبا وهم مزوّدون بأعلى الخبرات والتجارب، ولكنهم للأسف الشديد لا يوظّفون في إختصاصاتهم.

وهكذا فإن مشكلتنا تتمثل في أنّ الواحد منا يعمل على الإختصاص في علم ما، ولكنّه يواجه بعدم وجود علوم أخرى تكمل إختصاصه.

وبناء على ذلك فإنّنا نعتقد أن التوغّل في التحليل دون الإهتمام بالرؤية التكامليّة هو اتجاه مغلوط، كما ونعتقد أنّ هذا الخطأ يتضاعف أثره عندما يدخل إلى بلادنا التي تعيش مرحلة متأخّرة من التقدّم الحضاريّ، في حين أنّ الإسلام يأمرنا بأن نكون تكامليّين في تفكيرنا، ويطلب منّا أن نكون قادرين على أن نعرف كلّ شيء، بحيث تعطينا هذه المعرفة بصيرة في تعاملنا مع مفردات الحياة؛ فإن لم يكن الإنسان المؤمن عالِمًا، فإنّه خبير في علم النفس، وفي علم الإجتماع بقدر حاجته، خبير في الطبّ بقدر حاجته أيضًا، ذلك لأنه متكامل، ولأنه كيّس فطن، ولا يؤخر عمل اليوم إلى غد.. فالإسلام كلّه يتكامل في ذاته، بحيث يتحوّل إلى مشروع حضاريّ متكامل.

المنهج الإسلامي شامل ومتكامل

وفي نفس الوقت فإنّ الإسلام يأمر المؤمنين جميعًا بأن يسيروا في الأرض فينظروا ويتفكّروا ليعقلوا ويبصروا. وعندما يوجّه الإسلام كلامه إلى قمّة المجتمع الإيماني، فإنّه يحدّثنا عن هذه الميزة بصورة أدقّ حينما يحدّد لنا من هو العالِم الذي ينبغي أن تعطى له مهمّة قيادة المجتمع الإيماني. فترى الإسلام يأمره أن يكون شمولي النظرة والبصيرة، شموليّ العمل. فالعالِم لا يمكن أن يقول: أنا مهمّتي أن أدرس، وأنتم مهمتكم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر. فالإسلام يأمره هو الآخر أن يقوم بهذه الفريضة، كما يأمر الشرائح الأخرى من المجتمع بها، بل إنّ هذا الواجب يعدّ من ضمن أهداف هذا العالِم.

وهكذا الحال بالنسبة إلى السياسة، فليس من حقّ العالِم أن يكون جاهلًا بالسياسة؛ فالفقه في الحقيقة هو حكم السياسة والإقتصاد والإجتماع والأسرة وجميع مجالات الحياة، فهو مرتبط إرتباطًا وثيقًا بواقع الإنسان.

إنّ أولئك الذين يدّعون أن الحوزات العلميّة ينبغي أن لا تشتغل في السياسة، إنّما هم في الحقيقة متأثّرون إمّا بالفلسفة اليونانيّة القديمة أو بالفلسفة الأوروبيّة الحديثة التي تذهب إلى تجزئة العالم؛ في حين أنّ الإسلام لا يعترف بهذه التجزئة، فليست هناك حدود بين السياسة والإقتصاد، والسياسة والفقه في الإسلام.

الفرائض الإسلاميّة غير قابلة للتجزئة

ونفس القول نقوله للذين يقولون بأنّ على المؤمن أن يدرس لكي يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في حين أنّه ما من فقيه من الفقهاء يقول إنّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من شروطه التفرغ للدراسة.

إنّ الإسلام يأمرنا بكلمات صريحة بأن نقوم كلّنا بتلك الفريضة الإلهّية، من خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَ كُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١)، وحديثه صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنَادِي يَا لَلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»(٢).

إنّ هذه الأحاديث وغيرها صريحة في وجوب الإهتمام بأمور المسلمين أينما كانوا، وعليه فليس من حقّي أنّ أواصل دراستي وأنتظر إلى أن أتخرّج لأفكر في أحوال الناس وما يعيشونه من أزمات.. فمثل هذه التبريرات والأعذار لا نجدها في النصوص الشرعيّة.

وهناك من ينشغل بالحديث ضدّ هذا وذاك، في حين أنّه ترك العمل ولم يدخل الساحة؛ فهو يريد أن يبرّر تقاعسه بإلصاق التهم بالعاملين، والاكتفاء بالإشارة إلى الأخطاء دون أن يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أشار ربنا سبحانه إلى هذا الفريق في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

(١) عوالي اللآلي، ج١، ص٣٦٤.
(٢) الكافي، ج٢، ص١٦٣.

﴿السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

وهكذا نزل العذاب على الذين سكتوا، ولم يقوموا بدورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم ينج سوى أولئك الذين أدّوا هذه الفريضة.

الحوزات العلميّة علم وعمل

إنّ من خصائص الحوزات العلمية أنها تدخل ساحة العمل بصورة مباشرة؛ فكلّ فرد منها لا يرى نفسه بعيدًا عن الساحة، حتّى في مرحلة دراسته. أفليس من المؤسف بعد ذلك أن نرى في الجامعات الحديثة التي تنطلق من مبدأ التجزئة، وتخضع لقوانين الفصل بين العلوم المختلفة، تكتّلات سياسيّة، وتظاهرات وتحدّيات.. ثم لا نجد مثل ذلك في حوزاتنا العلميّة؟!.

إنّ كلّ فرد في الحوزة العلمية ينبغي أن يتحسّس بمسؤولياته، وأنّ من الواجب عليه أن يطبّق تشريعات الإسلام، فكما أنّ طالب العلم لا يجوز له أن يترك صلاته، فإنّه لا يجوز له أيضًا ترك مهامه الرسالية متذرّعًا بالدراسة. والإتجاه التقاعسي يجعلنا نفقد طاقاتنا، في حين أنّ الله تعالى أودع فينا كنوزًا لابدّ أن نكتشفها ونستخرجها.

والمهمّ في ذلك أن يستغل الإنسان الوقت، فتأتي البركة والتوفيق من الله عزّ وجل. فمن كان هدفه الله ورضوانه، فإنّ الله تعالى سوف يبارك له، بدليل قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٢).

فجاهد وتحرّك لله لكي يوفقك، وفتّش عن الطريق إلى ذلك، عن عمل يتناسب مع اختصاصك.

صحيح إنّني لا أستطيع أن أكون حاضرًا عند المسلمين في أنحاء العالم،

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٤-١٦٥.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

ولكنني أستطيع أن أخطب وأكتب وأرسل الرسائل إلى الناس أعظهم من خلالها، فإن لم أعرف لغتهم فبإمكاني تعلّمها، وهذا هو مقدّمة الواجب.

وعلى هذا فإنّ من خصائص الحوزات العلميّة أنّها تجمع بين العلم والعمل، ليس بعد التخرّج فحسب، وإنّما في أثناء الدراسة أيضًا. فالإنسان المؤمن لا يستكفي من العمل الصالح، لأن هذا العمل يرفعه الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[(١)].

فالإنسان المؤمن مستعد للقيام بأي عمل صالح، مهما كان بسيطًا، لأنه يرجو أن يرفعه الله إليه، وبذلك يكتسب العزة. وفي هذا المجال روي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه خاطب الحواريين ذات مرة قائلًا: «**يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ؛ لِي إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ، اقْضُوهَا لِي. قَالُوا: قُضِيَتْ حَاجَتُكَ يَا رُوحَ اللهِ. فَقَامَ فَغَسَلَ أَقْدَامَهُمْ. فَقَالُوا: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا يَا رُوحَ اللهِ!. فَقَالَ** عليه السلام: **إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالِمُ، إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لِكَيْمَا تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ، كَتَوَاضُعِي لَكُمْ**»[(٢)].

فتواضعوا لمن تتعلّمون منه، وتواضعوا لمن تعلّمونه، ولنُسْقِط هذه الحجب والتبريرات الشيطانية، ولنعلم أنّ العمل لله تعالى يمكن أن يتجسّد في كلّ شيء. أمّا الإنسان الذي يتعلّم ولكنّه غير قادر على القيام بأيّ عمل، فهو بمثابة كائن جامد لا يُرجى منه أيّ نفع.

إذن؛ فإنّ من الأخطاء التي تورّطت فيها الحضارة الحديثة، تجزئة العلم، وقد ازدادت خطورة هذا الخطأ في بلادنا التي تعتبر متخلّفة إلى حدّ ما، في حين أنّ الحوزات العلميّة انطلقت في مناهجها من مبدأ الجمع بين العلم والعمل، وهي إنّما تفعل ذلك لتكون مركزًا لإنطلاق الحضارة الإسلامية الرشيدة بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٢) الكافي، ج١، ص٣٧.

الفصل الرابع: سمات المعهد الإسلامي

- حَقِيقَةُ العِلْمِ
- اسْتِقْلَالُ العِلْمِ
- اسْتِقَامَةُ المَعْهَدِ
- هَدَفِيَّةُ المَنْهَج
- المُدَرِّسُ النَّاجِحُ
- المَنْهَجُ الأَمْثَلُ

حقيقة العلم

إنّ موقف الإنسان من العلم كثيرًا ما يحدّد اتجاهه في الحياة، فالعلم كأيّة قوة أخرى في الحياة قد يتّخذه الإنسان سلاحًا له، وقد يتخذه سلاحًا ضده. والعلم يرفع الله تعالى به رجالًا فيجعلهم في الخير أئمّة، وللناس هداة.. وهو الذي يجعل بعضًا من الناس في مصاف الأنبياء عليهم السلام، وبه جعل علماء أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنبياء بني إسرائيل، فيجعل منهم الفقهاء الذين فرض الله طاعتهم على عباده فرضًا.

ومع ذلك فإن العلم قد يكون ذلك السلاح الرهيب الخطير الذي نشر الرعب في العالَم، فإذا بالملايين من البشر يراودهم هاجس تطوّر هذا العلم. فبالعلم استعمر بعض المفسدين في الغرب والشرق ملايين المستضعفين من البشر ومن ضمنهم نحن، لأنهم سبقونا في مجال العلم والتقنية، ولو كنّا مثلهم نعلم أسرار الحياة لما استضعفونا، ولما زعموا أنّهم أولياؤنا في كلّ صغيرة وكبيرة.

إنّ العلم هو ذلك السلاح ذو الحدّين، ونحن يجب أن نحدد موقفنا منه؛ فلا الرفض المطلق، ولا القبول التام. فالرفض المطلق هو الذي أدّى بشعوبنا إلى حالة التخلّف والتبعيّة، وهو الذي جعل الشعوب التي يقال أنّها متقدّمة ومتحضّرة تستكبر في الأرض. ففي بداية هذا القرن أو في نهاية القرن الماضي، كانت هناك

معابد أقيمت في البلدان الأوروبية لعبادة العلم، فانخدع الناس بهذه الآلة الجديدة فجعلوها معبودًا مطلقًا وتركوا القيم والمعنويات، فاعتقدوا أنّهم ما داموا متقدّمين في العلم فقد حقّ لهم أن يكونوا قادة للناس، ومستكبرين في الأرض.

وهكذا لابدّ أن نتّخذ بين الموقفين موقفًا معتدلًا؛ فالعلم هو خادم للقيم، والمحقّق لأهداف الإنسان العليا. أما العلم الذي يقف في مواجهة القيم فهو مرفوض، بل هو محارب من قبلنا بكلّ ما أوتينا من قوة. فبينما نجد في الآيات القرآنية أن الله تعالى يرفع العالِم درجات، إذ يقول الله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١]، نجد مرّة أخرى في القرآن ذاته نعتًا لصاحب العلم المفرَّغ من التقوى بأنّه كالكلب الذي يلهث،إذ قال الله سبحانهً: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

العلم والعلماء في الإسلام

والأحاديث الشريفة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام، تبين مدى سمو درجات العلماء الربانيين، حيث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»[٣]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْأَنْبِيَاءُ قَادَةٌ، وَالْفُقَهَاءُ سَادَةٌ، وَمُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ**»[٤]. وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ**»[٥]. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَاكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا أَوْرَثُوا أَحَادِيثَ مِنْ أَحَادِيثِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ**

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

(٣) عوالي اللآلي، ج٤، ص٧٧.

(٤) بحار الأنوار، ج١، ص٢٠١.

(٥) الكافي، ج١، ص٣٣.

بِشَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَخَذَ حَظًّا وَافِرًا، فَانْظُرُوا عِلْمَكُمْ هَذَا عَمَّنْ تَأْخُذُونَهُ؟»[١].

وفي المقابل هناك من الأحاديث ما توبخ علماء السوء وتحذر الناس منهم.. فقد قال رسول الله ﷺ: «**الْفُقَهَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي الدُّنْيَا. قِيلَ**: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا دُخُولُهُمْ فِي الدُّنْيَا؟. قَالَ ﷺ: **اتِّبَاعُ السُّلْطَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَاحْذَرُوهُمْ عَلَى دِينِكُمْ**»[٢].

وَقَالَ ﷺ: «**أَوْحَى اللهُ إِلَى دَاوُدَ** عليه السلام: **لَا تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِماً مَفْتُوناً بِالدُّنْيَا فَيَصُدَّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، فَإِنَّ أُولَئِكَ قُطَّاعُ طَرِيقِ عِبَادِيَ الْمُرِيدِينَ. إِنَّ أَدْنَى مَا أَنَا صَانِعٌ بِهِمْ أَنْ أَنْزِعَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي عَنْ قُلُوبِهِمْ**»[٣].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِأَهْلِهَا**»[٤].

القيم معيار

وعلى هذا فإنّ موقفنا من العلم يرتبط بموقفه من القيم، وموقفنا من العلماء مرتبط بموقفهم هم الآخرون من القيم، وهذا الموقف يجب أن لا يكون محدودًا بمجموعة معيّنة من العلماء، بل يجب أن يكون معمّمًا على المجتمع كلّه؛ فإذا أراد أبناء المجتمع لأنفسهم الخير والفضيلة، وإذا أرادوا لأنفسهم السعادة والفلاح، والرقي والتقدم.. فيجب أن تكون مواقفهم من العلم والعلماء مواقف سليمة نابعة من القيم، لا من الإنبهار المطلق بالعلم، ولا من الرفض الجاهلي له.

---

(١) الكافي، ج١، ص٣٢.
(٢) الكافي، ج١، ص٤٦.
(٣) الكافي، ج١، ص٤٦.
(٤) الكافي، ج١، ص٤٧.

إنّ مواقف الأفراد كأفراد تتركز عند القيادات، وفي الموقف الإجمالي للمجتمع تجاه العلماء. فلننظر في حياتنا الإجتماعية، ولنبحث عميقًا عن الأسباب التي تؤدّي إلى تخلّف بلادنا، والى العوامل التي تؤدّي إلى عبوديّة شعوبنا، وكيف تتحرر من نير الظالمين وهي لمّا تتحرر من إرهاب علماء السوء وإغوائهم واستضعافهم؟. ولنحاول البحث عن الجذور؛ فبدون اقتلاع هذه الجذور النتنة، فإنّ من المستحيل أن تتحرّر شعوبنا. وكيف يمكن لمن يعبد الشيطان أن يتحرّر من علماء السوء الذين هم شياطين الإنس؟.

فعلماء السوء هم الجبت الذي يمهّد للطاغوت، وهم الذين يزيّنون للناس أخطاءهم، ويبرّرون لهم أوضاعهم المتردّية، وهم الذين يقفون عقبة أمام حركات التحرّر، ويشيعون الأراجيف حول كلّ مصلح.. هؤلاء هم علماء السوء.

دور علماء السوء في تكريس التخلّف

وهكذا ففي بلد تحيط به الأفكار المضلّلة، والأفكار التبريريّة والتخاذليّة، كيف يتسنى لأهله أن يحرّروا أنفسهم؟.

إن أكبر قوة للإنسان هي قوة الإيمان، ومع ذلك فإنّها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من دون العلم، لأنّ العلم هو مطيّة الإيمان، ولكنّ علماء السوء يسرقون هذه المطيّة، ويسلبون أمضى سلاح بيد الجماهير، ألا وهو سلاح الوعي. فإذا كان الطغاة يستعبدون الناس في أموالهم وأنفسهم، فإنّ علماء السوء يستعبدون الناس في عقولهم وعلومهم ووعيهم.. إنّهم يسرقون أغلى ما يمتلكه البشر، ألا وهو العقل والوعي.

ولو لم يفهم الإنسان أنّ السارق الأكبر هو هذا العالِم المخادع الذي باع نفسه وعلمه وشعبه ببضعة دراهم؛ لو لم يفهم الشعب هذه الحقيقة لبقي إلى الأبد متردّيًا في أوضاعه الفاسدة، ولا يمكن له النجاة منها أبدًا. ونحن إذا أردنا حريتنا

واستقلالنا، وإذا أردنا إنقاذ بلادنا، لابد أن نقول للعالَم بعد ذلك إنّنا بشر مثلكم.

وهكذا يجب علينا أن نحدّد موقفنا من الطواغيت ومن علماء السوء السائرين في ركابهم، وإلاّ فإن التخلف والذل والهوان.. سيستمر في بلادنا.

مقاطعة وسائل التضليل الإعلامي

وقديمًا عندما بدأت طلائع الهجمة الإستعماريّة على بلادنا وشعوبنا، أفتى فقهاؤنا بحرمة الإحتفاظ بأجهزة الراديو في البيوت، ونحن الآن نفهم لماذا فعلوا ذلك، فقد كانوا يؤكّدون على أنّ الراديو هو جهاز ضلال، لذلك حرّموا -آنذاك- الإحتفاظ به في البيوت، لأنّ مثل هذه الأجهزة الإعلاميّة بُنيت على أساس الفساد، وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام محمد الجواد عليه السلام، أنه قال: «**مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ**»(١).

فلماذا ننادي بالتحرر، في حين أننا ما زلنا نعتمد على هذه الأجهزة الإعلاميّة المضللة؟ فلنقاطعها؛ فإن أردنا حريّتنا لابدّ أن نحرّر أفكارنا، ونتّخذ موقفًا واضحًا من الكذبة والفاسقين، وأن نبني كياننا العلمي المستقل.

أساس العلم يجب أن يكون سليمًا

وهكذا يجب أن يكون الأساس سليمًا وقائمًا على التقوى، وأن يكون تعلّمنا قائمًا على كلمة التقوى. فإذا تعلّمنا العلم لإرضاء شهواتنا وطموحاتنا، ولكي نصبح شيئًا مذكورًا بين الناس، ولمنافسة الآخرين.. فإنّ الله تعالى سيجعل هذا العلم وبالًا علينا، لأنّ أساس هذا العلم فاسد. فالعلم الذي تطلبه لغير الله هو علم فاسد يجرك إلى النار، فإذا أمسكت بيدك القلم فاسأل نفسك: لماذا أكتب، وما

---

(١) الكافي، ج٦، ص٤٣٤.

الدافع وراء كتابتي؟. ولا تسجل إسمك في قائمة الموالين للظلم والجور. فمجرّد الكتابة في مجلاّت وصحف الأنظمة الظالمة هو حرام، واعلموا أن القلم النزيه يفضّل أن يكتب على الجدران على أن يكتب في تلك الأوراق الصقيلة التي يزوّد بها الظالمون المرتزقةَ من أصحاب القلم.

ومتى ما قاطعت الجماهير أولئك الكتّاب، وتلك الصحف والمجلاّت، فإنّ جيلًا جديدًا من الرساليين سيولد، ويخرج إلى الساحة رافعًا راية التغيير والإصلاح.

كيف نقتلع جذور الفساد؟

والإسلام يأمرنا أن نقتلع جذور الفساد عبر الخطوات التالية:

- مقاطعة كلّ علماء السوء، وجميع الوسائل الإعلاميّة الناطقة بإسمهم.
- بناء جهاز علميّ نزيه ومتكامل، وقائم على أساس التقوى من خلال التعلّم لله، والعمل والتعليم له تعالى.
- مقاطعة الطغاة بالوسائل الماديّة المختلفة.

وهكذا فإنّ أهمّ مسؤوليّة ملقاة على عاتق شعوبنا، هي مسؤوليّة التبشير والإنذار، ولو تحمَّلت هذه المسؤوليّة وعملت بها فإنّ الله عز وجل سوف يمدّ إليها يد نصرته. قال الله سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

(١) سورة عمران، آية: ١٦٠

استقلال العلم

ما هي علاقة العلم بالمال، وما هو الضمان الذي يعطيه الإسلام للعلم لكي يبقى مستقلًا وبعيدًا عن ضغوط الجبابرة، وعن إستغلال القوى المنحرفة في المجتمع، وكيف يحصّن العلماء أنفسهم إزاء هذه الضغوط الهائلة؟.

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لابد أن نعرف أن ما وصل إليه العالم من تقدّم ورقي إنّما هو رهين العلم والعلماء، لا الحكام والجبابرة، ولكن مشكلة البشرية هي أن الطغاة كانوا دائمًا يسرقون مكاسب العلماء، ويوظّفونها لصالحهم.

فعلى طول التأريخ كان العلم أداة مستغَلَّة بأيدي الطغاة والجبابرة لتطويع الشعوب وترويضها. فلقد كان لكلّ فرعون هامان يؤيّده ويؤازره، وبلعم بن باعوراء يؤمّن له التغطية الدينية المزيفة. وأيضًا لكلّ معاوية محرِّفون من أمثال كعب الأحبار، ولكلّ يزيد مضلِّلون من مثل شريح القاضي، ولكل طاغوت مجموعة من عماء السوء المرتزقة سواء تستّروا بستار الدّين أم بستار مادي.

لابد من إستقلالية العلم

وتأكيدنا على إستقلالية العلم لايعني عدم التأكيد على أهميّة العلم ذاته،

والمكاسب العلمية الهائلة التي بلغتها البشرية بالعلم؛ فتخلّف بلادنا لا يعود إلى وجود الأنظمة الفاسدة فيها، وتسلط الدكتاتوريّات الإرهابية عليها فحسب، وإنّما بالإضافة إلى ذلك لعدم إهتمام شعوبنا بالعلم والتعلّم. فالتخلف واقع فاسد له مظاهر عديدة، منها الأنظمة الفاسدة، ومنها البؤس والحرمان، وتفشي الجهل والأميّة، وفقدان الرعاية الصحّيّة.

ونتساءل: لماذا نجد شعبًا آسيويًّا -هو الشعب الياباني- يعيش في منطقة فقيرة في الموارد الطبيعية، وغير ستراتيجية، يتقدّم يومًا بعد يوم، ويبدء الثورة الثالثة في عالم الصناعة، ويغزو بانتاجه أسواق أوروبا وأميركا؟.

يجيب الباحث الاميريكي جان جاك سونان، مؤلف كتاب: التحدي العالمي، عن هذه التساؤلات قائلًا: إذا كان ثمّة عامل يفسّر النجاح الياباني، فهو البحث الجماعي الدائم عن المعرفة. وعندما أعلن دانيال بيل، وبيتر داركر، وآخرون بداية مجتمع ما بعد الصناعة الذي تحلّ فيه المعرفة كمورد أساسي محل رأس المال، لم يكونوا يتصوّرون إلى أي حدّ سيشق هذا المفهوم الجديد طريقه وبسرعة خاطفة في جميع الأوساط القيادية في اليابان، ثمّ في كلّ شرائح الشعب. لقد أجمع العالَم على الأهمية القصوى التي يجب أن تولى إلى متابعة التعليم والمعرفة باستمرار طوال سنوات العمر[1].

ضمانات الإسلام لاستقلال العلم

وهناك عدة ضمانات يعطيها الإسلام لاستقلال العلم، وهي:

١- قيمة العلم الذاتية

منح العلم قيمة ذاتية ليكون هو والعلماء محورًا يستقطب حوله قدرات الجماهير وطاقاتهم وإمكانياتهم. وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه

---

(١) الباحث هو أحد أساتذة جامعة هارفارد، وقد أقام في اليابان مدة طويلة ليتعرف على السبب الحقيقي لتقدم الشعب الياباني.

قال: «**أَشَدُّ مِنْ يُتْمِ الْيَتِيمِ الَّذِي انْقَطَعَ عَنْ أَبِيهِ، يُتْمُ يَتِيمٍ انْقَطَعَ عَنْ إِمَامِه، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا يَدْرِي كَيْفَ حُكْمَهُ فِيمَا يُبْتَلَى بِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِهِ**»(١).

فمع أن اليتيم الذي يفقد أباه في صغره يعاني الكثير من الآلام في حياته، إلّا أنّ من ينقطع عن إمامه هو في الحقيقة أشد معاناة وأكثر خسارة، ذلك لأنه بانقطاعه عن إمامه سيخسر الطريق الذي يصل عبره إلى سعادته في الدنيا والآخرة.

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى** عليه السلام: **حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ؟. قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلَائِي وَنَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي؛ فَلَأَنْ تَرُدَّ آبِقًا عَنْ بَابِي، أَوْ ضَالًّا عَنْ فِنَائِي، أَفْضَلُ لَكَ مِنْ عِبَادَةِ [مِائَةِ] سَنَةٍ بِصِيَامِ نَهَارِهَا وَقِيَامِ لَيْلِهَا.**

قَالَ مُوسَى عليه السلام: **وَمَنْ هَذَا الْعَبْدُ الْآبِقُ مِنْكَ؟. قَالَ: الْعَاصِي الْمُتَمَرِّدُ.**

قَالَ: فَمَنِ الضَّالُّ عَنْ فِنَائِكَ؟. قَالَ: الْجَاهِلُ بِإِمَامِ زَمَانِهِ تُعَرِّفُهُ، وَالْغَائِبُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَرَفَهُ، الْجَاهِلُ بِشَرِيعَةِ دِينِهِ تُعَرِّفُهُ شَرِيعَتَهُ، وَمَا يَعْبُدُ بِهِ رَبَّهُ، وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ.

ثُمَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: **فَأَبْشِرُوا [مَعَاشِرَ] عُلَمَاءِ شِيعَتِنَا بِالثَّوَابِ الْأَعْظَمِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَرِ**»(٢).

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**يُقَالُ لِلْعَابِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: نِعْمَ الرَّجُلُ كُنْتَ، هِمَّتُكَ ذَاتُ نَفْسِكَ، وَكَفَيْتَ النَّاسَ مَئُونَتَكَ، فَادْخُلِ الْجَنَّةَ. أَلَا إِنَّ الْفَقِيهَ مَنْ أَفَاضَ عَلَى النَّاسِ خَيْرَهُ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَوَفَّرَ عَلَيْهِمْ نِعَمَ جِنَانِ اللهِ، وَحَصَّلَ لَهُمْ رِضْوَانَ اللهِ تَعَالَى.**

وَيُقَالُ لِلْفَقِيهِ: يَا أَيُّهَا الْكَافِلُ لِأَيْتَامِ آلِ مُحَمَّدٍ، الْهَادِي لِضُعَفَاءِ مُحِبِّيهِمْ

---

(١) عوالي الئالي، ج١، ص١٦.

(٢) مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣١٩.

وَمَوَالِيهِمْ، قِفْ حَتَّى تَشْفَعَ لِمَنْ أَخَذَ عَنْكَ، أَوْ تَعَلَّمَ مِنْكَ. فَيَقِفُ فَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَعَهُ فِئَاماً وَفِئَاماً وَفِئَاماً، حَتَّى قَالَ: عَشْراً، وَهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُ عُلُومَهُ، وَأَخَذُوا عَمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ، وَعَمَّنْ أَخَذَ عَمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَانْظُرُوا كَمْ فَرْقٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ»(١).

الفئام في اللغة تعني مائة ألف إنسان، تعبيرًا عن الكثرة الهائلة. فأنت إذا ألفت كتابًا، فكلّ من قرأ كتابك واهتدى به يستطيع أن يدخل معك الجنة، أو حتى من قرأ كتابًا مقتبسًا من كتابك، وهكذا إلى يوم القيامة.

وقال رسول الله ﷺ: **«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ سَبْعِينَ [سَبْعُونَ] دَرَجَةً، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الْفَرَسِ سَبْعِينَ عَاماً، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَدَعُ الْبِدْعَةَ لِلنَّاسِ فَيُبْصِرُهَا الْعَالِمُ فَيَنْهَى عَنْهَا، وَالْعَابِدُ مُقْبِلٌ عَلَى عِبَادَتِهِ لَا يَتَوَجَّهُ لَهَا وَلَا يَعْرِفُهَا»**(٢).

وقال ﷺ -أيضًا-: **«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»**(٣).

وقال رسول الله ﷺ: **«فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»**(٤).

وقال ﷺ: **«يَجِيءُ الرَّجُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ كَالسَّحَابِ الرُّكَامِ أَوْ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذَا وَلَمْ أَعْمَلْهَا؟. فَيَقُولُ: هَذَا عِلْمُكَ الَّذِي عَلَّمْتَهُ النَّاسَ يَعْمَلُ بِهِ مَنْ بَعْدَكَ»**(٥).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«مُعَلِّمُ الْخَيْرِ تَسْتَغْفِرُ لَهُ دَوَابُّ الْأَرْضِ وَحِيتَانُ الْبَحْرِ، وَكُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي أَرْضِ اللهِ وَسَمَائِهِ»**(٦).

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٤.
(٣) بصائر الدرجات، ص٧.
(٤) عوالي اللآلي، ج١، ص١٨٩.
(٥) بصائر الدرجات، ص٥.
(٦) بصائر الدرجات، ص٤.

وعلينا أن لا ننسى أن أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلًا ثمّ خالفه إلى غيره، كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام «فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾(١)، قَالَ عليه السلام: **مَنْ وَصَفَ عَدْلاً ثُمَّ خَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ**»(٢).

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٣)، قَالَ -الإمام محمد الباقر عليه السلام-: «**مَنِ اسْتَخْرَجَهَا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ**»(٤).

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**لَمْ يَمُتْ مَنْ تَرَكَ أَفْعَالًا يُقْتَدَى بِهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ نَشَرَ حِكْمَةً ذُكِرَ بِهَا**»(٥).

ويمثل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم العلماء كنجوم السماء يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، فيقول: «**إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ، كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا طُمِسَتْ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ**»(٦).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا أَهْدَى الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عَلَى أَخِيهِ هَدِيَّةً أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةِ حِكْمَةٍ يَزِيدُهُ اللهُ بِهَا هُدًى وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدًى**»(٧).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبيّن منزلة العلماء في الجنة: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ أَقْوَامٍ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، بِمَنَازِلِهِمْ مِنَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ**. فَقِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟. قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **هُمُ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ عِبَادَ اللهِ إِلَى اللهِ، وَيُحَبِّبُونَ عِبَادَ اللهِ إِلَيَّ**. قَالَ: **يَأْمُرُونَهُمْ بِمَا يُحِبُّ اللهُ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُ اللهُ**

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٩٤.
(٢) المحاسن، ج١، ص١٢٠.
(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.
(٤) مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٣٩.
(٥) مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٢٩.
(٦) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥.
(٧) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥.

فَإِذَا أَطَاعُوهُمْ أَحَبَّهُمُ اللهُ»(١).

كلّ تلك الأحاديث والعشرات من أمثالها إنّما جاءت لتوضّح قيمة العلم والعلماء، وأن العلماء هم محور المجتمع، وهذا هي من الضمانات الأساسية لاستقلال العلم عن المال والقوّة.

٢- تزكية دوافع طلب العلم

عندما يوقّع الطالب الجامعي على وثيقة يتعهّد بموجبها أن يخدم المعهد الذي يدرس فيه لمدة خمس أو عشر سنوات، فإنّما يوقّع في الحقيقة على وثيقة ارتباطه بذلك المعهد، لأنه لم يوفر الإمكانات لهذا الطالب إلا لكي يوظفه بعد تخرّجه في المجال الذي يخدم مصالح المعهد نفسه. وهكذا يصبح العلم وبشكل تلقائي تابعًا للمال، فترى الطالب يطلب العلم لا لكي يخدم الناس وإنما لكي يكتسب قيمة بينهم، كأن يصبح وزيرًا يخدم في إحدى وزارات السلطة الحاكمة.

إزاء ذلك نرى النصوص الإسلامية تؤكد تاكيدًا بالغًا على ضرورة أن تكون نيّة طالب العلم نقيّة؛ بأن يكون طلب العلم لله وحده، وحينما يكون كذلك فإنّه سيكون للناس؛ أي للمصلحة العامّة.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام عليّ عليه السلام، أنه قال: «**طَلَبَةُ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، أَلَا فَاعْرِفُوهُمْ بِصِفَاتِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ، صِنْفٌ مِنْهُمْ: يَتَعَلَّمُونَ لِلْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ: يَتَعَلَّمُونَ لِلاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ: يَتَعَلَّمُونَ لِلْفِقْهِ وَالْعَقْلِ.**

فَأَمَّا صَاحِبُ الْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ، تَرَاهُ مُؤْذِيًا مُمَارِيًا لِلرِّجَالِ فِي أَنْدِيَةِ الْمَقَالِ، قَدْ تَسَرْبَلَ بِالتَّخَشُّعِ وَتَخَلَّى مِنَ الْوَرَعِ، فَدَقَّ اللهُ مِنْ هَذَا حَيْزُومَهُ، وَقَطَعَ مِنْهُ خَيْشُومَهُ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الِاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيلُ عَلَى أَشْبَاهِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ،

---

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج١، ص١٢.

وَيَتَوَاضَعُ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنْ دُونِهِمْ، فَهُوَ لِحَلْوَائِهِمْ هَاضِمٌ، وَلِدِينِهِ حَاطِمٌ، فَأَعْمَى اللهُ مِنْ هَذَا بَصَرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ آثَارِ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الْفِقْهِ وَالْعَقْلِ، تَرَاهُ ذَا كَآبَةٍ وَحَزَنٍ، قَدْ قَامَ اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ، وَقَدِ انْحَنَى فِي بُرْنُسِهِ، يَعْمَلُ وَيَخْشَى خَائِفًا وَجِلًا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنْ كُلِّ ثِقَةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ، فَشَدَّ اللهُ مِنْ هَذَا أَرْكَانَهُ، وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَانَهُ»(١).

فصاحب الفقه والعمل، لايثق بمن يحوم حوله من شياطين الإنس؛ هؤلاء الذين يدورون حول العلماء، ويمثلون بطانتهم الفاسدة، التي يستطيع أعداء الدين عبرها التأثير على العلماء.

٣- إقصاء علماء السوء من المجتمع

ويكون ذلك من خلال تزويد الناس بمقاييس ثابتة وواضحة يمكنهم بواسطتها التعرّف على علماء السوء، وبالتالي طردهم من أوساط المجتمع. والقرآن الكريم يضرب لنا أمثالًا تأريخية على علماء السوء، ويصف بعضهم بأنّه (كلب) والآخر بأنه (حمار)، يقول الله تعالى وهو يحدثنا عن قصة بلعم بن باعوراء، العالم الذي استخدم علمه لضرب نبيّ الله موسى عليه السلام ورسالته: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٢).

الغواية هي الضلالة بوعي واختيار. فقد يضلّ إنسان طريقه وهو غافل، وقد يضلّ طريقه عامدًا، وهذا الأخير كان واعيًا، ولكنّه لم يتّبع وعيه، فأضلّه الله وكان من الغاوين.

ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ

---

(١) الأمالي، (الشيخ الصدوق)، ص٦٢٩.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٥.

﴿الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

فقد كان بامكان ابن باعوراء أن يسمو بعلمه إلى أعلى عليين، ولكنّه أخلد إلى الشهوات، فكان مثله كالكلب الذي يلهث بمناسبة وبغير مناسبة.

وفي سورة المؤمن يحدّثنا القرآن الكريم عن العلماء الذين يغترّون بعلمهم، ويتصوّرون أنّ ما عندهم من علم يغنيهم، فيستهزؤون برسالات الله، ولكنّهم ينسون أن ما توصلوا إليه من علم ما هو إلا قطرة من بحر، ولذلك فإنّ ما يجهلونه سيحيق بهم فيهلكهم ويدمّرهم.

قال الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٢).

وفي سورة الجمعة يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

وفي السُّنة الشريفة أحاديث كثيرة تستهدف ذات الهدف الذي يدور حديثنا حوله، وهو ضرورة فصل علماء السوء عن المجتمع. ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**الْعُلَمَاءُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ عَالِمٌ آخِذٌ بِعِلْمِهِ فَهَذَا نَاجٍ، وَعَالِمٌ تَارِكٌ لِعِلْمِهِ فَهَذَا هَالِكٌ. وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَتَأَذَّوْنَ مِنْ رِيحِ الْعَالِمِ التَّارِكِ لِعِلْمِهِ، وَإِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النَّارِ نَدَامَةً وَحَسْرَةً، رَجُلٌ دَعَا عَبْدًا إِلَى اللهِ، فَاسْتَجَابَ لَهُ وَقَبِلَ مِنْهُ، فَأَطَاعَ اللهَ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَأَدْخَلَ الدَّاعِيَ النَّارَ بِتَرْكِهِ عِلْمَهُ، وَاتِّبَاعِهِ الْهَوَى وَطُولِ الْأَمَلِ، أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَطُولُ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ**»(٤).

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.
(٢) سورة المؤمن، آية: ٨٣.
(٣) سورة الجمعة، آية: ٥.
(٤) الكافي، ج١، ص٤٤.

ومن هنا يبدو أن اتباع الهوى وطول الأمل، من الأسباب المهمة التي تؤول إلى ترك العالِم لعلمه، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ**»(١).

ولاشك أن العالم الذي يعلم أن الموت مصيره، ولا يمكن الفرار منه، بالتأكيد لا يسمح لنفسه بطول الأمل. فقد روي «أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ اشْتَرَى وَلِيدَةً بِمِائَةِ دِينَارٍ إِلَى شَهْرٍ، فَسَمِعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: **أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِي إِلَى شَهْرٍ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شُفْرَيَّ لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي، وَمَا رَفَعْتُ طَرْفِي وَظَنَنْتُ أَنِّي خَافِضُهُ حَتَّى أُقْبَضَ، وَلَا تَلَقَّمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنْ لَا أُسِيغَهَا أَنْحَصِرُ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ**»(٢).

فالعالم الذي يتّبع علمه يدرك أنّ عشرات الألوف من أسباب الموت تحيط به من كلّ جانب ومكان، والذي يحفظه إنّما هم الملائكة الذين سخّرهم الله تعالى لحفظه، وحينما يحين أجله فإنّه يعجز عن دفع الموت عن نفسه. فالحفظة الموكّلون به قد انتهت مهمّتهم، وصدر إليهم الأمر بمغادرته، فيقع حينئذ ضحيّة أول سبب يعترضه من أسباب الموت.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**قَطَعَ ظَهْرِي رَجُلَانِ مِنَ الدُّنْيَا: رَجُلٌ عَلِيمُ اللِّسَانِ فَاسِقٌ، وَرَجُلٌ جَاهِلُ الْقَلْبِ نَاسِكٌ. هَذَا يَصُدُّ بِلِسَانِهِ عَنْ فِسْقِهِ، وَهَذَا بِنُسُكِهِ عَنْ جَهْلِهِ، فَاتَّقُوا الْفَاسِقَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالْجَاهِلَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ. أُولَئِكَ فِتْنَةُ كُلِّ مَفْتُونٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **يَقُولُ: يَا عَلِيُّ؛ هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**»(٣).

وروي عن النبي عيسى عليه السلام، وهو يشبِّه علماء السوء تشبيهًا لطيفًا، إنه قال:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٦.

(٢) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج٢، ص٤٣٧.

(٣) الخصال، ص٦٩.

«**الدِّينَارُ دَاءُ الدِّينِ، وَالْعَالِمُ طَبِيبُ الدِّينِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الطَّبِيبَ يَجُرُّ الدَّاءَ إِلَى نَفْسِهِ فَاتَّهِمُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ غَيْرُ نَاصِحٍ لِغَيْرِهِ**»(١).

الزهد من أهم صفات العلماء

الزهد هو أهم صفات علماء الدين، الذين من المفترض أن يصبحوا قادة للأمّة. ففي دعاء الندبة الذي يحدد فيه الإمام الحجة المنتظر عليه السلام صفات أولياء الله الصالحين، نقرأ هذه الفقرة: «**بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَزُخْرُفِهَا وَزِبْرِجِهَا**»(٢).

فالله سبحانه فوّض أولياءه مسؤولية قيادة الناس بعد أن أخذ عليهم العهد بأن يزهدوا في متاع الدنيا وزينتها، وهذه هي أهم الشروط التي اشترطها الله على عباده الذين خوّلهم مسؤولية الإمامة.

ومن حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَى أَخِي عِيسَى** عليه السلام: **يَا عِيسَى؛ لَا تُحِبَّ الدُّنْيَا فَإِنِّي لَسْتُ أُحِبُّهَا، وَأَحِبَّ الْآخِرَةَ، فَإِنَّمَا هِيَ دَارُ الْمَعَادِ. يَا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنَّ جَبْرَئِيلَ** عليه السلام **أَتَانِي بِخَزَائِنِ الدُّنْيَا عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ. فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ؛ هَذِهِ خَزَائِنُ الدُّنْيَا، وَلَا يَنْقُصُكَ مِنْ حَظِّكَ عِنْدَ رَبِّكَ. فَقُلْتُ: يَا حَبِيبِي جَبْرَئِيلُ؛ لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا، إِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُ رَبِّي، وَإِذَا جُعْتُ سَأَلْتُهُ**»(٣).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ فِي جَهَنَّمَ رَحًى تَطْحَنُ، أَفَلَا تَسْأَلُونِّي مَا طِحْنُهَا؟. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا طِحْنُهَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟. قَالَ** عليه السلام: **الْعُلَمَاءُ الْفَجَرَةُ، وَالْقُرَّاءُ الْفَسَقَةُ، وَالْجَبَابِرَةُ الظَّلَمَةُ، وَالْوُزَرَاءُ الْخَوَنَةُ، وَالْعُرَفَاءُ الْكَذَبَةُ**»(٤).

---

(١) الخصال، ص١١٤.

(٢) إقبال الأعمال، ص٢٩٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٢.

(٤) بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٧.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَالِمَ مُحِبًّا لِدُنْيَاهُ، فَاتَّهِمُوهُ عَلَى دِينِكُمْ، فَإِنَّ كُلَّ مُحِبٍّ لِشَيْءٍ يَحُوطُ مَا أَحَبَّ**. وَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَوْحَى اللهُ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام: لَا تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِماً مَفْتُوناً بِالدُّنْيَا، فَيَصُدَّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، فَإِنَّ أُولَئِكَ قُطَّاعُ طَرِيقِ عِبَادِيَ الْمُرِيدِينَ، إِنَّ أَدْنَى مَا أَنَا صَانِعٌ بِهِمْ أَنْ أَنْزِعَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي عَنْ قُلُوبِهِمْ**»[1].

طبقات العلماء

وفي تفسير الآية الكريمة: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[2]، قَالَ (الإمام محمد الباقر عليه السلام): **هَلْ رَأَيْتَ شَاعِرًا يَتَّبِعُهُ أَحَدٌ؟. إِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ تَفَقَّهُوا لِغَيْرِ الدِّينِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[3].

ويبيّن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث له، منازل العلماء الأشرار في نار جهنم فيقول: «**إِنَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَخْزُنَ عِلْمَهُ، وَلَا يُؤْخَذَ عَنْهُ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ إِذَا وُعِظَ أَنِفَ، وَإِذَا وَعَظَ عَنَّفَ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَرَى أَنْ يَضَعَ الْعِلْمَ عِنْدَ ذَوِي الثَّرْوَةِ، وَلَا يَرَى لَهُ فِي الْمَسَاكِينِ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ الثَّالِثِ مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَذْهَبُ فِي عِلْمِهِ مَذْهَبَ الْجَبَابِرَةِ وَالسَّلَاطِينِ، فَإِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، أَوْ قُصِّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ غَضِبَ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ الرَّابِعِ مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَطْلُبُ أَحَادِيثَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِيَغْزُرَ بِهِ عِلْمُهُ، وَيَكْثُرَ بِهِ حَدِيثُهُ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ الْخَامِسِ مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا، وَيَقُولُ: سَلُونِي، وَلَعَلَّهُ لَا يُصِيبُ حَرْفاً وَاحِدًا، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَلِّفِينَ، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ السَّادِسِ مِنَ النَّارِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَّخِذُ عِلْمَهُ مُرُوءَةً وَعَقْلًا، فَذَاكَ فِي الدَّرْكِ السَّابِعِ مِنَ النَّارِ**»[4].

---

(١) الكافي، ج١، ص٤٦.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢٢٤.

(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٨.

(٤) الخصال، ج٢، ص٣٥٢.

وهؤلاء هم الذين يستغلون علمهم في سبيل الإستعلاء على الناس، كالكهنة الذين كانوا في بعض مراحل التأريخ أعلى شأنًا من الملوك؛ فهم الذين كانوا يستغلون الجماهير بعلمهم وفطنتهم، ولم يوظّفوا في نفس الوقت علمهم من أجل السلاطين، ولا من أجل أصحاب المال والنفوذ، وإنّما من أجل أنفسهم، إرضاء لشهوة التسلّط والتحكّم عندهم.

العلماء النموذجيون

والأحاديث الشريفة في هذا المجال كثيرة، وما ذكرناه منها ليس إلا جزء بسيط منها، ولقد كان الحديث يدور حول ذمّ علماء السوء الذين باعوا علمهم من أجل شهواتهم. أمّا العلماء الصادقون الذين تعلّموا لله، وعلموا لله، وطبقوا علمهم على أنفسهم قبل أن يصدعوا به، وقاوموا في سبيل ذلك كلّ الضغوط، وصمدوا كالجبل الأشمّ في وجه جميع الإنحرافات، فهم الذين يجب أن نعرفهم حقّ المعرفة، كي نتمسك بهم، ونتخذهم قدوة صالحة لنا في الحياة.

وهؤلاء العلماء هم الذين تجد في الأحاديث الشريفة صفاتهم أنّهم ورثة الانبياء، وهم كأنبياء بني اسرائيل، وأن منزلتهم لمع الشهداء والصديقين، وأن نومهم بالليل خيرمن قيام العابد، وجلوسهم في بيوتهم خير من سفر المجاهدين، ومدادهم يرجح على دماء الشهداء، وأن النظر إلى وجوههم وأبواب بيوتهم عبادة، وإذا مات أحدهم ثلم من الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء..

وثمن كلّ هذا التعظيم، وتلك المنازل الرفيعة التي يمنحها الإسلام لعلماء الدين الربانيين، إنما هو إستقامتهم على نهج الإسلام، وتضحيتهم في تبليغ رسالته، وصمودهم في وجه الظالمين، وتحديهم للطغاة والمستكبرين.

استقامة المعهد

من المعلوم أن قراءة القرآن والدعاء، ليست من الأمور الواجبة، وإنما هي تمهيد لكثير من الواجبات الشرعية التي نقوم بها، وهي بالإضافة إلى ذلك تمثل الحصانة والمناعة ضد أمراض هذا العالَم المادي الذي نعيش فيه.

والعالِم الرباني عليه أن ينبري لمقاومة المفاسد الإجتماعية والإنحرافات الدينية.. ولأنه مسؤول عن التصدي لها، فهو -إذن- يقترب منها كثيرًا؛ وكما أن من الممكن أن يؤثر هذا الإنسان في تلك المفاسد ويعالجها، كذلك فإن من الممكن أن يتأثر بها ويتورط فيها.

كيف يحصن عالم الدين نفسه؟

وبناء على ذلك فمن الضروري أن يتحصن الإنسان الذي أخذ على عاتقه معالجة الناس المنحرفين، وحصانته تكون من خلال قراءة القرآن والأدعية بعمق وتدبر، والإستمرار والمواظبة على قراءتها، وخصوصًا عندما يكون بمفرده. فعندما يتهجَّد الإنسان ليلًا بالذكر وبالآيات القرآنية الكريمة، يشعر بلذة منقطعة النظير، لا تتوفر في غيرها من الممارسات العبادية. ففي الحديث عن الإمام جعفر

الصادق عليه السلام، أنه قال: «**الْمُنْجِيَاتُ؛ إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(١).

فالمرحلة الأولى -إذن- هي تحين الفرص للإبتعاد عن الناس، ليتسنى للفرد هداية نفسه، ومن ثم هداية مجتمعه في المرحلة الثانية.

فالضمير الإنساني يمنع الإنسان من إرتكاب المعاصي، ولكنه قد يرتكبها، إلا أنه سرعان ما يتوب. أما الذي يرتكب الذنب ولا يتوب منه، فعليه أن يتذكر ذنوبه ويعددها في حين خلوته وتوجهه إلى الله تعالى.

وقد كان آية الله العظمى الميرزا مهدي الشيرازي رحمه الله من هؤلاء الواعظين لأنفسهم، حيث كان يحمل معه دفترًا يكتب فيه ما يعظ به نفسه، وما يزجرها عن إتيان المعاصي. ولرسوخ إرادة التغيير في نفسه، إستطاع إحداث التغيير الإجتماعي أيضًا؛ فلقد تصدى هذا العالِم الكبير للمد الشيوعي في العراق، ومروجي الأفكار الزائفة والمنحرفة، وقام بمقاومة الفساد حتى وافاه الأجل.

فالدنيا مشحونة بالسلبيات، وهي كلها إمتحان. فقد يرى البعض السلبيات، ويهرب منها، بدلًا من أن يبادر إلى معالجتها. والعالِم يشبه الطبيب إلى حد بعيد، فالطبيب يعالج المريض ولا يستطيع أن يهرب منه ويتركه، ولكن يمكنه أن يتحصَّن لمواجهة المرض؛ وكذلك هو العالم. ويتم التحصن من خلال المزيد من تلاوة القرآن وقراءة الأدعية، وبالإستفادة مما نقرؤه من كتب.

ولطالب العلم محفزات كثيرة تدفعه لطلب المزيد من العلم؛ منها ما قد يتمثل في الإمتيازات التي تتمتع بها بعض المدارس، بالإضافة إلى تشجيع الأسرة.. وهناك محفزات أقوى، منها محفز الإيمان بالهدف والتضحية من أجله. وهناك بالإضافة إلى ذلك الكثير من الدوافع التي تثير في النفس الرغبة في التعلم والتعليم، وهذا

---

(١) الكافي، ج٤، ص٥١.

ما تدفعنا إليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، كقول رسول الله ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ مِنْ مَظَانِّهِ، وَاقْتَبِسُوهُ مِنْ أَهْلِهِ. فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ لِلهِ حَسَنَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَالْمُذَاكَرَةَ بِهِ تَسْبِيحٌ، وَالْعَمَلَ بِهِ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى**»(١).

ومن الواجبات على طالب العلم أن يكون واعيًا عند تلقيه للعلم، مفتوح القلب ليستوعب مفردات الدرس، لأن الروح هي التي تدرس لا الجسد. فعندما يكون الطالب في حالة تلقي الدرس، يجب أن يتحول إلى أذن صاغية للمدرس، ويستجمع شتات فكره لفهم ما يلقيه المحاضر عليه.

إصلاح النفس منطلق التغيير

وعلى الفرد أن يصلح نفسه، ليصلح من ثَمَّ مجتمعه. فالشخص الذي تكون معلوماته مهزوزة وضعيفة، ومطالعاته سطحية، لايمكنه مواجهة الأمراض الاجتماعية، والمفاسد الخلقية.

وطلاب العلم ملزمون اليوم أن يكونوا هم الأفضل في المجتمع، لكي يكونوا قدوات حية لغيرهم. ولكي يكونوا قدوة حسنة يجب أن يكونوا ملمين بالكثير من العلوم؛ فلا يكفي أن يتعلموا الفقه والأصول فقط، بل يجب عليهم أن يتعلموا السياسة والإقتصاد والإجتماع والأخلاق وما إلى ذلك.

وعليه؛ فالمطلوب منا أن نجمع بين العمل في سبيل الإسلام، وتعلم العلوم الحديثة من مسائل سياسية وأدبية وقراءة مختلف الكتب، وبين التعمق في الفقه والأصول.. ولكي نثبت هذه النظرية، علينا أن نهتم بكلا الجانبين، لأن الجمع بين مختلف العلوم يثمر أفضل النتائج، وكذلك العمل إلى جانب التعلم. فحياة الكسل والجبن والإضطراب والتوتر يجب أن نبتعد عنها، لنقبل على حياة جديدة مليئة بالنشاط

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٧١.

والعمل، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(١).

الخطوط الرئيسية للحياة

وهناك ثلاثة خطوط تتحرك بشكل متواز حتى يسترجع الله عز وجل أمانته من الإنسان، المتمثلة في روحه الكائنة بين جنبيه:

- **الخط الأول: خط العلم.**

قال رسول الله ﷺ: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ**»(٢).

- **الخط الثاني: خط الورع والتقوى وبناء الذات.**

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

- **الخط الثالث: خط العمل.**

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(٤).

وللأسف فإن المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أقل ما يقال عنه أنه لا يجسد تعاليم الإسلام، فلو كان هذا المجتمع يطبق تعاليم الإسلام كلها لما وصل إلى ما هو عليه الآن، لأن مجتمعاتنا تابعة ومرتبطة بحكام الجور. فلابد أن نغير هذه المجتمعات بعد أن نغير أنفسنا، وهي عملية ليست بالسهلة، والأصعب منها والأكثر ضررًا هو أن لا نعمد إلى تغيير أنفسنا، وربنا المتعال قالها بصراحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٥).

---

(١) سورة الإنشقاق، آية: ٦.

(٢) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج١، ص١١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) سورة الانشقاق، آية: ٦.

(٥) سورة الرعد، آية: ١١.

بين طلب العلم وممارسة الأنشطة الأخرى

قد يقترح البعض تشكيل لجان نعمل ضمنها، وقد يسود الاعتقاد أن العمل ضمن هذه اللجان يتنافى مع دراسة طالب العلم. في حين أن هذا الإعتقاد مغلوط، لأن دماغ الإنسان يجب أن يكون واسعًا يستوعب جميع الأعمال؛ كلاًّ في وقته. فلا يصح أن يتذرع طالب العلم الرسالي بأنه مشغول في الدراسة، بل عليه أن يمارس جميع الأعمال وفق تنظيم خاص، مثله كمثل الأشخاص الذين يمارسون شتى أنواع الأعمال من الصباح حتى المساء، ودونما كلل أو ملل.

إن العمل ضمن اللجان والإشتراك في أنشطتها وإدارتها، هي مجموعة ممارسات رياضية من شأنها بث الطاقة الحيوية في أرواح الشباب المؤمن، وتدفعهم إلى المزيد من العمل والإنتاج والإبداع. فالذي يتحرك جسده يتحرك وينشط عقله تبعًا لذلك.

من هنا ينبغي أن نغرس في نفوسنا بذور الروح الشابة المتفاعلة التي يستهدف الإسلام ترسيخها في نفوسنا، ووصولًا إلى تحقيق الشخصية المثالية التي يجب أن يتمتع بها طالب العلم.

هـدفيـة المنـهج

قد نتعلم عندما نتلو آيات الذكر الحكيم، والنصوص الإسلامية الأخرى، المضامين المباشرة التي تدل عليها ألفاظها وكلماتها، أو قد نتعمق فيها لنصل إلى تلك القيم التي تهدي عقولنا. وإذا بلغ الإنسان بالآيات الكريمة إلى هدى العقل، فإنه سيصبح من أولي الألباب الذين يبحثون عن الجوهر والمغزى، ولا يكتفون بالحدود والأطر والمظاهر. قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**إِنَّ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً. فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام. وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ**»(١).

فالحجة هي التي تهدي الناس إلى الحق؛ وبما أن الحق واحد، فالحجتان اللتان تهديان الإنسان إلى ذلك الحق ينبغي أن تكونا واحدة، حيث إن كليهما يصبان في مصب واحد، ويهديان إلى حقيقة واحدة؛ فالعقل يهدي إلى الحق، والشرع يهدي إلى الحق ذاته. ولكن متى نعرف ونفهم الشرع بشكل كامل؟.

حينما نصل بالشريعة والآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة إلى ذات الحقيقة التي نصل إليها عبرعقولنا، فحينئذ نكون قد فهمنا الشريعة فهما حقيقيًا. فإذا قرأنا

(١) الكافي، ج١، ص١٥.

-مثلًا- آية قرآنية تأمرنا بالعدل فسوف يستقيم الأمر لدينا آنئذ، لأن العقل دلنا على ما قد دل عليه الشرع.

أما إذا دلنا العقل على شيء، والشرع على شيء آخر مخالفًا للأول، فحينئذ علينا أن نتهم أنفسنا لأننا لم نفهم الشريعة.

وفي هذا المجال نسوق مثالًا تأريخيًا في تلك الفرقة التي كانت تزعم أن الله سبحانه وتعالى يُرى يوم القيامة، وأن المؤمنين بامكانهم أن ينظروا إليه، مستندين إلى قول الله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

فالعقل لا يمكنه أن يحكم بأن الإنسان يستطيع أن يرى الله تعالى، وهو الذي خلق الرؤية والعقل، وخلق الإنسان والعالَم، وخلق الكون بما فيه، فيستحيل علينا الإحاطة بجميع المخلوقات، ذلك لأن العين لا يمكنها أن ترى أكثر من مسافة قصيرة، فكيف تستطيع أن ترى المجرات، بل وخالق هذه المجرات؟.

فهذه الآية يجب أن تؤول، لكي يكون فهمنا لها فهمًا دقيقًا. وهذا المبدأ لا ينطبق على المجالات العقائدية فحسب، وإنما يمكننا تطبيقه والقياس عليه حتى في المجالات الحياتية بأجمعها.

حقيقة الإخلاص في العمل

والإخلاص في العمل -وهو الخلوص الذي أُمرنا أن نستحضره في أنفسنا قبل البدء بأعمالنا- ليس مجرد نية نمارسها قبل الصلاة كأن أقول: أصلي صلاة الصبح ركعتين لوجوبها قربة إلى الله تعالى (رغم أنّ الأفضل عدم التلفظ بالنية)، بل إن النية والخلوص فيها لا يعنيان مجرد هذا الكلام، ومجرد خطور هذه الفكرة في الذهن. فالإخلاص في النية مقياس يهدي العقل، وينعكس أيضًا على الأعمال

---

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢-٢٣.

والممارسات حتى نجد أنفسنا قادرين على اكتشاف المخلص من غيره بشكل واضح وسريع، لأن حياة الإنسان المخلص، وممارساته وأهدافه تختلف جذريًا عن حياة وأهداف وممارسات غيره من الناس.

لقد صرح ربنا سبحانه في القرآن المجيد: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾، فقد كان الكفار سابقًا يقولون بأن لله سبحانه ولدًا، ثم دخلت هذه الفكرة الخاطئة المذهب المسيحي فيما بعد وعبر مجموعة من الفلاسفة كان في طليعتهم (افلاطون)، وكما دخلت هذه الفكرة المسيحية فقد دخلت أيضًا اليهودية من قبل. ثم يحذر الله تعالى القائلين بهذه الفكرة في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. أي: إن أهل الكتاب من نصارى ويهود اتخذوا المسيح وعزيرًا عليهما السلام أربابًا من دون الله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، والشرك الذي ورد في هذه الآية ليس شركًا داخليًا فحسب، وإنما ينعكس على هيئة مظاهر متعددة. وكما أن الشرك يظهر في صورة أعمال، فإن الإخلاص أيضًا يتجسد على شكل أعمال.

وقبل أن يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، كما أنه -تعالى شأنه- لم يقل: (اتخذوا المسيح)، في حين أن الوجه البارز فى المسيحية المنحرفة هو إتخاذ المسيح ربًا من دون الله؛ فهم يعتقدون أنه ابن الله، ولكن القرآن يقول: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾، لأن القول بربوبية المسيح ينعكس في واقعهم على شكل عبادة الأحبار والرهبان، ولذلك جاء الحديث على النحو التالي بأن ذكر القرآن في البدء عبادة الأحبار والرهبان، ثم المسيح، ثم قال في النهاية: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٠-٣١.

الإخلاص واقع سلوكي أم نية مجردة؟

وعلى هذا فإن الشرك ليس مجرد عقيدة، وإنما هو واقع سلوكي، كما أن الإخلاص هو أيضًا واقع سلوكي في حياة الإنسان. فالخطيب الذي يتحدث بإخلاص، يختلف عن الخطيب الذي يتحدث من دونه؛ ويتضح لنا ذلك -أي حالة الإخلاص- في حيوية كلامه، واختياره لموضوعاته، ومدى قوة التحدي فيها للطغاة والمنحرفين.

ولكننا نرى في المقابل بعض الخطباء يرتبكون ويرتجفون فوق المنابر، ويفقدون كل المميزات التي وهبها الله إياهم، ويكتمون كلمة الحق، ويخشون أن يصدعوا بها عندما يجد طاغية ما أو أحد ممثليه جالسًا في مجلسه، وهو يعلم -أي الخطيب- أن الله أخذ عليه المواثيق والعهود بالإخلاص في كلامه وسائر جوانب حياته.

وعلى هذا فإن الإخلاص ليس مجرد حديث، ولا مجرد نية تلفظ، أو خطور في الذهن، بل هو خلوص النية لله، ذلك الخلوص الذي ينعكس على مختلف جوانب حياة الإنسان، وإذا انعكس على حياة الانسان أثم. أما إذا كان مجرد لقلقة لسان، أو خطور نية، فانه سوف لا يتمخض عن أية نتيجة.

الإخلاص منطلق عمل الحوزات العلمية

والحوزات العلمية لابد أن تستوحي من هذا الإخلاص برامج عملية لدروسها، ذلك لأن سيرتها الدراسية لابد أن تكون متوافقة مع أوامر الله جل وعلا. فالهدف هو الذي يحدد الوسيلة، وبالتالي فإننا عندما نريد أن نصل إلى هدف معين فلابد أن نبحث عن الوسيلة المناسبة التي توصلنا إليه.

علينا أن نسأل أنفسنا لماذا ندرس الفقه والنحو والتفسير والمنطق، ولماذا

ندرس الاصول والتأريخ؟.

فإن لم تكن أهدافنا من هذه الدروس واضحة، فإننا سنتورط، وستنقلب علينا وبالًا. فعندما ندرس الفقه -مثلًا- فإننا لا ندرسه من أجل أن نتعلم منه البيان والبديع، بل نريد أن ندرسه لنفهمه هو نفسه، وما ينطوي عليه من أحكام الله. وأما العبارات الفصيحة والبليغة، فيجب علينا أن نتعلمها من كتب البلاغة.

أهداف الدراسة على ضوء الإخلاص

وبناء على ذلك فإن للدراسة أهدافًا خاصة منها:

١- **التركيز على المحتوى لا الإطار.** فإذا وقفت العبارات المعقّدة في بعض الكتب دون وصولنا إلى هذا الهدف، نستطيع أن نتبع شتى السبل لإزالة مثل هذه العقبة، كأن نغير الكتاب وندرس كتابًا آخر يكون محتواه أبسط. فأنْ يدرس الإنسان طيلة حياته مادة ما، ومن ثم عندما يتعرض للإستفسار عنها لا يجيب إجابة وافية، فهذا يعني أنه لم يعرف الهدف الذي درس من أجله هذه المادة. وفي هذا مضيعة للوقت والجهد، وتأخر عن ركب الحضارة.

٢- **التطبيق والممارسة.** كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فلكي يفقه طلاب العلم معارف القرآن والسنة، ولكي يطلعوا على واقع الأمة ومتطلباتها، عليهم أن يتحركوا وينفروا ليكتسبوا بالتالي المزيد من المعلومات والتجارب.

فعلينا إذن أن نطلب العلم بهدف التعمق فيه، ومن ثم لأجل ممارسته وخدمة

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

الناس من خلاله. فعندما ندرس النحو -مثلًا- علينا تطبيقه في حياتنا اليومية، والافادة منه في تصحيح الأخطاء والألفاظ الدخيلة في كلامنا، وكتابة المواضيع الأدبية بعد الاستعانة بكل ما درسناه في علم النحو. وهكذا فإن التطبيق هو أحد أهدافنا الرئيسية التي نتوخاها من طلب العلم.

وكذلك الحال بالنسبة إلى السياسة، فعندما أدرس هذا العلم يجب أن لا يكون هدفي فهم المصطلحات السياسية فحسب، وإنما ينبغي أن نفهم السياسة حتى نصل إلى مرحلة نستطيع فيها أن نصون أنفسنا من المؤامرات الإستكبارية العالمية.

وكذلك عندما ندرس التأريخ يجدر بنا أن نستهدف معرفة تلك القوانين والسنن الإلهية المتحكمة في التأريخ، لكي نأخذ الدروس والعبر منه.

إن طالب العلم الذي لا يضع أهداف الدراسة نصب عينيه، سيكون في المستقبل وبالًا على أمته، بل إنه قد يقودها إلى دار الخراب والبوار.

ويعتبر القرآن أبرز الدروس وأعظمها، فنحن عند دراستنا إياه ينبغي علينا أن نهدف من هذه الدراسة الوصول إلى مرحلة التدبر في القرآن، لكي لا نشك في جدوى دراستنا له.

ونحن عندما نستشكل وننتقد، فإن إشكالاتنا وإنتقاداتنا هذه لا تقع على الجهلة من الناس، ولا تنصبّ على العلماء، بل إنها تقع على أنصاف العلماء الذين يفتقرون إلى العلم الكامل، ومع ذلك يفتون الناس بعلمهم الناقص.

والمطلوب منا اليوم أن نجعل الحوزات العلمية منتجة للعلماء الحقيقيين، ومربية لمن يفهم ويعرف القرآن والتدبر فيه، والفقه والسياسة، وغير ذلك تمام الفهم والمعرفة، ويتعمق حتى يصل إلى أهداف كل تلك العلوم، وهذه الاهداف هي التي تحفزنا للبحث عن كتاب دون آخر؛ وإن كانت الدعايات القوية تحيط ببعض الكتب غير المفيدة، ولكن الذي يبحث عن الدعاية لا يمكنه أن يبحث عن

أهدافه، ولذلك كان لزامًا عليه أن يبحث عن الهدف، لا عن الإعلام والدعاية، ولا عما يجب عليه أن يفعله طلبًا للشهرة، لأن ذلك ليس من الإخلاص في شيء.

إن ما ذكرناه كان ملخصًا لما أردنا تبيانه لطلاب العلم في مجال العلوم، وكل واحد منا قد يكتشف من خلال ممارساته، وقيامه بالتبليغ بين الناس، أن هناك علمًا آخر لابد أن نتعلمه، فيضغط على الحوزة العلمية باتجاه تعلمه. فنحن نريد أن نبحث عن المجتمع الذي يمكننا أن نمارس عملية التبليغ فيه، وما يحتاج إليه هذا المجتمع، ثم نتحرك متوكلين على الله تعالى، ومستمدين العون والتوفيق منه.

المدرس الناجح

المدِّرس هو الشخص الوحيد الذي يفهم بالضبط ما يقوله في فصل الدراسة، وكل من يمارس دور التعليم يدرك ذلك بعمق، وتبعًا لذلك لا يمكن أن يكون هناك طالب يفهم المادة مثل ما يفهمها الأستاذ.

المباحثة منهج علمي متطور

وأي واحد منا لو مارس دور الطالب فقط في حياته، فإنه سوف لا يفهم ما يلقى عليه من دروس بشكل كامل إلا إذا قام بدور المدِّرس. ولذلك بات منهاج المباحثة والمذاكرة من أفضل البرامج والمناهج الموضوعة في الحوزات العلمية، لأن ذلك يمنح وبشكل متناوب فرصة ممارسة دور المدِّرس ولو بصورة جزئية.

وطريقة المباحثة تتلخص في أن يقرأ عدد من الطلاب من ذوي مستويات دراسية واحدة أو متقاربة، يقرؤون كتابًا ما، فيقوم أحدهم بدور المدرس ليشرح الدرس، وفي اليوم التالي يحل دور الطالب الآخر ليكون مدرسًا يشرح الدرس لزملائه. كما تُمارَس هذه الطريقة بالنسبة للدروس التي يتلقونها من المدِّرس فيتباحثون في الدرس فيما بينهم.

وفي التدريس والمباحثة فرصة ثمينة يتاح لنا من خلالها فهم ما درسناه من جديد، أضف إلى ذلك أن ما نستفيده من التدريس يفوق بكثير ما كنا نستفيده من الدراسة والمدرسين، كما أن الفهم العميق للدروس الإبتدائية والذي نحاول أن نصل إليه عند المباحثة يساعدنا كثيرًا على فهم الدروس المتقدمة؛ فالذي يدرس النحو -مثلًا- فإن أول كتاب سيطالعه هو (المنهاج)، ثم يأتي بعد ذلك (النحو الواضح) أو (قطر الندى وبل الصدى)، ومن ثم (شرح ابن عقيل).. فالذي لا يفهم المنهاج يصعب عليه فهم غيره من الكتب، أما إذا درسه بفهم وعمق وتمكن منه، فإنه يستطيع فهم ما سواه.

التدريس مناعة ضد النسيان

ومن الفوائد الكثيرة الأخرى التي نحصل عليها من أسلوب المباحثة والتدريس، إستيعاب الدروس جيدًا، لما يتطلبه التدريس من إعادة للدرس وتكراره لمرات عديدة، وبالتالي عدم نسيانه، والتخلص من هذه الآفة التي يشير إليها الرسول الأعظم ﷺ: «**آفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ**»(١).

وأهمية التدريس، أو محاكاته من خلال المباحثة، تكمن في هذا الجانب، وهو ما يحصل عليه الطالب بواسطة التدريس والمتمثل في الفهم العميق، والحفظ الجيد للعلوم التي يتلقاها.

مشاكل التدريس

وهكذا فإن المباحثة في الدروس تفيد -إضافة إلى ما ذُكِر- أنها تُعدّ الطالب للقيام بالتدريس بنجاح.

والتدريس ليس مجرد تقديم معلومات للطالب، وإنما هو حالة في نفس

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧١.

الإنسان، أو بتعبير آخر؛ هو حالة متكاملة في النفس يستطيع الفرد من خلالها التغلب على المشاكل التي تعترض هذه الوظيفة الإنسانية. ومن هذه المشاكل:

- **التهيب**؛ الذي يمثل أول مشكلة تواجه الطالب عند دخوله الصف، وعليه أن يتجاوزها.
- **لا مبالاة الطلاب حيال المادة**؛ ولكي لا يواجه المدرس هذه المشكلة، يجب عليه أن يجذب الإنتباه نحو المادة.
- **صعوبة المادة بالنسبة إلى الطلاب**، وعليه في هذه الحالة أن يستعين بالأمثلة المبسطة ليوضح المادة، ويوصلها إلى أذهان الطلاب سهلة مستساغة.

وكل هذه الخطوات لا ترتبط بالضرورة بفهم المادة، وإنما تدخل ضمن مجموعة حقول كحقل علم النفس والتربية والإجتماع، وحقول أخرى مختلفة.

واجبات المدرس في الصف

فعلى المدرس -مثلًا- النظر في أعين الطلاب ليكتشف كل من يزيغ ذهنه عن الدرس، وعليه أيضًا أن يحدد ما يشغل بال الطالب، ثم يحاول أن يجذب إنتباه الجميع بأن يغير اسلوبه على الفور، أو يغير كلامه، أو يحاول أن ينبه الطالب الشارد الذهن بأي شكل من الأشكال.

ومن هذا الطريق -طريق دراسة نفسية الطلاب- يمكنني أن أكون مدرسًا ناجحًا، أقرأ ما يدور في خلد الطلاب من خلال عيونهم وأمور أخرى كثيرة. ولذلك نرى أن رجال المباحث والاستخبارات يرتدون دائمًا نظارات داكنة، حتى لا يفهم الآخرون كيف وبماذا يفكرون، وكذلك نرى أن بعض السياسيين يرتدون أثناء المفاوضات المهمة نظارات داكنة، أو لا ينظرون إلى الطرف المقابل، حتى لا يكتشف الأخير ما يدور في خلده. فعندما يقص عليك شخص ما قصة غريبة لم تسمعها، فإن علامة التعجب سترتسم في عينيك. ولذلك فإن في دراسة علم النفس

فائدة عظيمة يحصل عليها المدرس في ممارسته لوظيفته.

ووظيفة المدرس في الصف لا تتلخص في إنهاء الوقت كيفما اتفق، بل يجب على المدرس أن ينظر نظرة تقديس إلى الوقت، وخصوصًا بالنسبة إلى الطالب. فكل مدرس إنما يأخذ في الحقيقة أربعين دقيقة من وقت عدد من الطلاب، نفترض أنهم يبلغون خمسة عشر طالبًا، وبحساب ذلك رياضيًا نجد أنه يأخذ ستمائة دقيقة، وهو وقت لا يستهان به.

وعلى هذا فإن على المدرس أن يقوم في هذا الوقت بعدة وظائف، إذ عليه أن يُفهّم المادة بشكل سريع وعميق للطلاب، بحيث تترسخ في أذهانهم، وهذه عملية هامة ومعقدة في مهمة التدريس.

الأسلوب الصحيح في التدريس

ونحن نرى بعض الطلاب يتذكرون موضوعًا ما بعد عشرات السنين، ذلك لأن الأستاذ درسهم إياه بأسلوب صحيح، بأن دعم الموضوع بالأمثلة وما إلى ذلك مما جعل الطلاب يذكرون هذا الموضوع بعد سنين. وهذا فن يجب على كل مدرس أن يتعلمه من خلال الممارسة، لأن المدرسة لا تعلمنا مثل هذه الأمور، فعلينا- إذن- أن نكتسبها من خلال التجارب والممارسات. فالمدرس الجيد هو الذي يمهد للطلاب السبيل لفهم أكثر الكتب تعقيدًا وصعوبة.

وفي هذا المجال أنقل هنا إحدى تجاربي الشخصية عندما كنت أَدْرُس مع مجموعة من الطلبة كتاب (كفاية الأصول) الذي كان أكثر الكتب صعوبة، وقد كنا ندرسه عند سماحة آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس سره. وكنا نذهب عنده في زحمة ما يشغله من الأعمال، فنأخذ من وقته نصف ساعة ليدرسنا هذا الكتاب، فكان يدرسنا خلال ربع ساعة، وفي الربع الثاني يحدثنا عن السياسة وقضايا أخرى. وقد كانت الدقائق الخمسة عشرة التي كان يدرسنا فيها تعادل على الأقل ساعة مما

يدرسه الآخرون، مضافًا إلى ذلك عدم إحساسنا بالملل، فقد كان يكفي أن نجلس ثم يشرح لنا الموضوع بأسلوب مبسط للغاية، فيحل ألغاز الكتاب وغوامضه حتى تكشف لنا، وكان من ميزاته أيضًا أنه كان يتكلم بسرعة خلافًا لما اعتاد عليه بعض المدرسين.

وفي الوقت الذي كنت أدرس فيه هذا الكتاب (كفاية الأصول) عند سماحة السيد المرجع الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كتبت أنا أيضًا شرحًا لكتاب الكفاية، وقد رآه أحد العلماء من مراجع النجف مدونًا في دفتر، فاطلع عليه فأعلن أنه يصلح لأن يطبع لاحتوائه على شرح جيد.

ولقد كان عمري في تلك الأيام التي درسنا فيها الكفاية دون العشرين، ولكني استطعت وبفضل التدريس الجيد أن أكتب شرحًا للكفاية، والفضل في ذلك يعود إلى فن التدريس الذي كان الأستاذ يتقنه، والذي يتبلور في إهتمامه بالطلاب، ومتابعته للموضوع، وتعمقه في المادة، ومحاولة البحث عن الأمثلة التي تقرب إلى أذهان الطلاب معلومات الدرس.

خلق الجو الحيوي من شروط المدرس الناجح

ومن الأمور الأخرى المرتبطة بالتدريس، أن الحديث في الصف لا ينبغي أن يكون مقتصرًا على الدرس فحسب، لأن فكر الإنسان يتعب ويرهق من جراء الخوض في موضوع علمي واحد مركز. فالفكر بحاجة إلى طرائف ليس من الضروري أن تكون مضحكة، كأن تكون استطرادًا حلوًا لغرض تلطيف الجو، وقد يكون هذا التلطيف من خلال التعليق على حدث سياسي ما، أو سرد قصة معبرة لطيفة، وما إلى ذلك.

المدِّرس وكسب القلوب

وعلى هذا فإن على المدرس أن يتبع جملة أمور يستطيع عبرها النفوذ إلى قلب الطالب بشخصه ودرسه، وهذه الأمور هي:

١- **التواضع،** لأنه يؤدي إلى كسر الحواجز القائمة بين المدرس والطالب، وبالتالي فإنه يسهل عملية فهم كل منهما للآخر. فالصف الدراسي (أو الحلقة الدراسية) ليس ثكنة عسكرية يلقي فيها المدرس بأوامر عسكرية من عليائه ويطلب من التلاميذ تنفيذها وإن لم تكن صحيحة.

٢- **تهوين الدرس وإظهاره بمظهر البساطة للطلاب،** وذلك من خلال إلقاء الأمثلة والقصص والطرائف.

٣- **مراعاة مشاعر الطلاب والإهتمام بهم، وعدم توجيه النقد الجارح إليهم.** فكما يصعب عليك تقبل النقد، فإن غيرك يصعب عليه ذلك أيضًا. فعلى المدرس أن لا ينسى أن وظيفته التربوية التي تعتبر في مقدمة وظائفه لا تمنحه حق إهانة الطلاب أو توجيه النقد اللاذع إليهم. أما إذا كان نقده ضروريًا، فعليه أن يحاول جاهدًا تخفيف وقعه إلى أدنى حد ممكن، حتى يسهل على الطالب تقبّله واستيعابه.

وعلى هذا فإن فن التدريس يعد من القضايا الأساسية، كما أن له -بالإضافة إلى أهميته العلمية- أهمية إجتماعية وتربوية ونفسية. فعلى المدرسين أن يحولوا قاعة الدرس إلى جو يسوده المرح والنشاط والحيوية والتفاهم والإنسجام والمتابعة، فتطرح فيه الأفكار، وتثار المناقشات من دون تشنج وعصبية. وعلى المدرسين أيضًا أن يحسنوا الإستفادة من مركزهم ووظيفتهم بأساليب سليمة وذكية، طالبين في ذلك التوفيق والسداد من الله تعالى.

المنهج الأمثل

يقرر خبراء الأعصاب أن في دماغ الإنسان عشرات الملايين من الخلايا تبقى معطلة عنده حتى موته، وحتى أولئك الذين يديمون التفكر، ويستمرون في تلقي العلوم المختلفة، لا يستخدمون خلايا دماغهم إلا بنسبة قليلة، فهذه الخلايا بإمكانها إستيعاب العلوم المختلفة مهما كانت.

ومن الناحية البيولوجية والفسيولوجية يقرر القرآن الكريم أن أجساد الأنبياء عليهم السلام لا تختلف عن أي جسد آخر، إذ يقول: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[1]، ومع ذلك فإن أدمغة الأنبياء وقلوبهم بإمكانها أن تحتمل علمًا لا يمكن أن تحتمله ملائكة الله المقربون؛ فهم على عظمتهم، واطلاعهم على عالم الغيب، أُمِروا أن يتعلموا الأسماء من آدم أبي البشر عليه السلام.

آفاق المعرفة الواسعة

ومن المعلوم لدى الجميع أن أفضل الأنبياء وسيدهم هو نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي أُمِر أن يسأل ربه زيادة العلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، وفتحت أمامه

(١) سورة إبراهيم، آية: ١١.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

آلاف الأبواب من العلم والمعرفة، ينفتح من كل باب ألف باب.

ولك أن تتصور حينئذ آفاق المعرفة أمام الإنسان؛ هذا العالم الكبير، والآية العظمى، والكيان الذي سجدت له ملائكة الله المقربون. فلقد خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وأودع في وجوده القابلية لأن يبلغ مبلغ أولياء الله.. وهذه الآفاق الواسعة مفتوحة أمام الإنسان، وطرق الوصول إليها عديدة ومتنوعة، والمهم أن نبحث عن أقصر الطرق. وللأسف فإن أغلب الناس يختارون أبعد الطرق للوصول إلى أهدافهم، في حين أن الطريق القريب لتحقيق الأهداف الإلهية هو سبيل الله الذي نطلب من الله تعالى دومًا اهتداءنا إليه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[(١)] لكي لا تضيع جهودنا، ولكي لا تذهب أوقاتنا هدرًا.

أفضل طرق المعرفة

فالمؤمن الملتزم بمناهج الوحي يدرك أن عمره قصير، فيبادر إلى إستغلال كل فرصة تسنح له، ويحاول أن يستغل كل طاقة من طاقاته من خلال البحث عن الطرق السليمة، ومنها طريق القرآن الذي يهدينا إلى العلم واليقين، والذي يتطلب منك أن تكون بكل وجودك عند الحقيقة فتشاهدها من خلال إسقاط الحجب عنها، ومشاهدتها بشكل مباشر. وهذه الطريقة هي التي توصل إلى الهدف في أقصر مدة زمانية ممكنة.

وللأسف فإن الكثير منا يخطىء الطريق، فيسد عينيه ويصم أذنيه. وفي هذا المجال يُروى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ**. فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه، ثم قال: **الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ**»[(٢)].

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٦.

(٢) نهج البلاغة، (١٤١) من كلام له عليه السلام في النهي عن سماع الغيبة..

والسبب في ذلك أن أكثر الإشاعات والأحاديث التي تأتي من هنا وهناك ما هي إلا أوهام، فليس من الصحيح أن تعتقد بكل ما يُقال لك، لأنه من الممكن أن يكون مجرد وسوسة وتشويش وإلقاء للأفكار المغلوطة.

وللأسف فإن هناك من لا يريد أن يبحث ويتأكد بنفسه عن الحقيقة، فتجده يعرِّض نفسه لموجات متلاحقة من الأفكار الباطلة؛ ومثل هذا الإنسان يعتبر بعيدًا عن الحقيقة، وهو يحتاج إلى وقت طويل لكي يتخلص من تلك الوساوس والظنون التي تدخل إلى القلب مباشرة بمجرد أن تكون المنافذ مفتوحة، وبالتالي فإن رؤيته للحقائق ستكون رؤية مشوهة.

الطريقة القرآنية في الوصول إلى الحقائق

أما الطريقة القرآنية للوصول إلى الحقائق، فهي أن تعتمد على نفسك، وأن تلقي السمع وأنت شهيد، فتحاول -مثلًا- أن تتفهم بنفسك الكتب التي تُعرض عليك، وأن تعتمد في الحكم على الظواهر من خلال مشاهداتك الشخصية؛ ولنا في الشخصيات المعروفة الناجحة خير مثال على ذلك، تلك الشخصيات التي فتحت باب فهمها، ففكرت وحاولت مشاهدة الواقع.

أما نحن فللأسف الشديد نعتمد في إصدار أحكامنا على ما نقرأه في الكتب، وعلى ما يتحدث به هذا الخطيب أو ذاك.. في حين أنه إنسان مثلي، لذا فلنحاول أن نفكر في ما يعرض علينا من معلومات وأفكار مختلفة.

والقرآن الكريم أيضًا يحثنا على التفكر؛ فمن خلال التفكر يستطيع الإنسان أن يكتشف حقائق كثيرة، بل إن حياة الإنسان نفسها عبارة عن حلقات متلاحقة من الإكتشافات، ولكننا نرى -للإسف الشديد- أن البعض لا يكلف نفسه عناء إكتشاف واستغلال طاقاته الذهنية والنفسية.

والسبب في كل ذلك يعود إلى عدم تنظيمنا لحياتنا، وعدم برمجتها، وبدون

هذا التنظيم والبرمجة لا يمكننا أن نكون متحركين. ولنا في حياة رسول الله ﷺ وأئمتنا الأطهار عليهم السلام والعلماء الربانيين الأسوة في ذلك، فقد كانوا يسيرون في حياتهم وفق برنامج ونظام دقيقين. فلنكن منظَّمين في حياتنا، وليشمل هذا النظام حتى التفاصيل والجزئيات، لأن سيادة الفوضى فيها من الممكن أن تقوم بدور سلبي في حياتنا.

ولا بأس في هذا المجال أن نتبع الطرق والأساليب العلمية الحديثة في تنظيم حياتنا، وخصوصًا فيما يرتبط بالمناهج التعليمية في الحوزات العلمية، ونخص بالذكر هنا منهج تعلّم اللغة العربية. فبإمكان الطالب -إذا لم يكن من الناطقين بهذه اللغة- أن يتعلم هذه اللغة خلال ستة أشهر، إن لم نقل أقل، وذلك إذا ما اتبعنا المناهج الحديثة في تعليمها. وهكذا الحال بالنسبة إلى المواد الدراسية الأخرى التي بإمكاننا أن نختصر المسافة الزمنية لدراستها من خلال تحديث مناهج وطرق التعليم. فبدلًا من أن ندرس مادة المنطق -مثلًا- خلال سنين عديدة، يمكننا أن ندرسها ونستوعبها خلال فترة قصيرة. وكما هو الحال الآن في الجامعات الحديثة التي تعمد إلى تدريس هذه المادة خلال فترة لا تتجاوز البضعة أشهر، من خلال سلوك أقصر الطرق في التعليم.

استنفار الطاقات في طلب العلم

ومن أجل تحقيق كل ذلك، علينا أن نستنفر طاقاتنا، وأن نحافظ على فاعلية العمل والنشاط في نفوسنا. أما إذا أُصبنا بالعقم في التفكير والجمود والخمول، فسوف نبقى نراوح في أمكنتنا دون أن نغير من أوضاعنا شيئًا. وتُعتبر هذه الميزة من أبرز مزايا الجامعات المتقدمة في العالم، فهي تحث الطالب على أن يفكر ويكتشف المعلومات بنفسه. فالمهم أن ينمو عقلك وفكرك، وتنمو قدرتك على التفكير.

وآيات القرآن الكريم تحرض الإنسان على التفكير، وتقرر أن الأعمى والبصير

لا يمكن أن يستويا. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، فالأعمى الحقيقي هو الذي يمتلك العين ولكنه لا يريد أن يرى بها. وبعبارة أخرى؛ هو الإنسان الذي يمتلك الطاقات والمواهب ولكنه لا يستغلها، ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۝ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، وفي هذا التعبير كناية عن الإنسان الذي لا يفكر ولا يمتلك البصيرة، حتى وإن نزل عليه القرآن الكريم. فالإنسان الذي لا يدرك ولا يفهم، هو في الحقيقة ميت، لا فرق بينه وبين من يرقد في القبر. ويخاطب القرآن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلًا: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾[1].

فالمعلم والمرشد هما بالنسبة إليك مجرد أدلّاء على الطريق، فإن ضيَّعتَ الطريق دلّوك عليه بالإشارة إليه. فعليك إذن أن تستعمل بصيرتك، لا أن تغمضها ثم تسأل الآخرين عن الطريق.

المبادرة إلى طلب العلم

والإنسان هو الذي يجب أن يبادر إلى العلم، لا أن ينتظر أن يقدمه إليه الآخرون جاهزًا. إذ الإنسان العالِم هو الوحيد الذي يخشى الله حقّ خشيته من بين الناس، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2]، وكما جاء في الحديث الشريف عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْخَشْيَةُ مِيرَاثُ الْعِلْمِ**»[3]. فليس هناك فائدة من قراءة الكتب، في حين أن قلبي لا يخشع لله، وعيني لا تدمع من خشيته، لأن قراءتي لهذه الكتب ما هي إلا تكديس للمعلومات دون أن أتفاعل معها.

وفي الجانب الآخر نرى أن هناك أناسًا يقرؤون القرآن بتفاعل وتأمل، وكأن

---

(١) سورة فاطر، آية: ١٩-٢٣.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص٥٢.

القرآن يخاطبهم، في حين أن هناك أناسًا آخرين يقرؤون القرآن وهم ساهون، يقرؤونه وأفكارهم مشغولة بمشاكلهم.

القلوب أوعية للعلم

يقول الإمام علي عليه السلام: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا**»[1].

والوعاء يعني الظرف، فكلما كان القلب أوسع كلما استطاع أن يستقبل المعلومات بشكل أفضل. ونحن نطالب إخواننا في الحوزات العلمية أن يبحثوا عن أقرب الطرق إلى تحصيل العلوم، وخصوصًا علم تفسير القرآن، الذي يعتبر من العلوم الواسعة المتشعبة.. ففي آية واحدة يمكننا اكتشاف آفاق واسعة، وحقائق كثيرة.

فعلينا أن لا نكون -لا سمح الله- مصداقًا للآية القرآنية القائلة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

فهذه الآية لم تنزل على اليهود فحسب، بل إن مصداقها ينطبق على كل إنسان لا يستفيد ولا ينتفع من علمه، ولا يتفاعل معه، ولا يخشى الله نتيجة لهذا العلم الذي يحمله.. فإذا حدثت الخشية فنحن نعد حينئذ علماء، والخشية لا يمكن أن تحدث إلا عندما نحصل على العلم بالتفكر والتبصر والبحث الشخصي.

التدبر والتأمل سبيلا الدراسة الواعية

فعلينا -إذن- أن نقرأ بتدبر، ونحاول استيعاب ما نقرأه، وأن نأخذ الدروس والعبر من حياة قادتنا العظماء، وعلى رأسهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان

---

(١) نهج البلاغة، (١٤٧) من كلام له عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه.
(٢) سورة الجمعة، آية: ٥.

يجتهد في العبادة دون ملل أو كلل.. فلنسأل أنفسنا، هل تمثلنا هذه الحالة، وهل تصورنا هذه الشخصية، أم كانت تلك الروايات مجرد كلمات تطرق أسماعنا دون أن نتعمق فيها؟.

هذه هي مشكلتنا المتمثلة في أننا نطفو دائمًا على السطح دون أن ننفذ إلى ما وراءه، وهذا هو سبب أن البعض يشكو من نسيان العلوم بعد قراءتها ودراستها، ذلك لأن دراستهم لها لم تكن دراسة متعمقة واعية.

إن القراءة الحقيقية هي القراءة التي يصاحبها التفكير والتعمق في المعلومات التي تُقرأ، فلنسأل أنفسنا: ماذا تعني هذه المعلومات، وما هي أبعادها ؟ وحينئذ سوف لا ننسى هذه المعلومات، حتى وإن مرت عليها سنين طويلة.

الفصل الخامس: تطور المعهد الإسلامي

- آفاقُ التَّطويرِ
- ضرورِيّاتُ التَّطويرِ
- التَّركيزُ والفاعِليَّةُ
- ضرورَةُ الإدارةِ
- القِيادةُ النَّاجِحَةُ

آفاق التطوير

لا زال يدور في خلد الكثيرين ضرورة تنظيم الحوزات العلمية وفق الأسس التي تتطلبها المرحلة الراهنة، تماشيًّا مع تطورات العصر، وتقدم الزمان. ومنذ أكثر من خمسين سنة مضت، تتردد هذه الدعوة من قبل كبار العلماء، ولا زالت هذه الدعوة تتكرر مرات ومرات.

ومن هنا ينبغي على كل من أوتي حظًا من الحكمة، ونصيبًا من العلم، أن يدلي بدلوه في هذا المجال، ويبدي خبرته وفكرته ورأيه بما يتناسب وأهمية هذا الموضوع، عسى أن يتحقق -بإذن الله تعالى- بأحسن وجه.

وفي إطار هذا الموضوع، هناك عدة ملاحظات مهمة هي:

١- عظمة دور الحوزات

ذكر أن علماء المنهج الحديث لم يأتوا بأي جديد، لأن علماء الإسلام قد غطوا جميع جوانب المناهج وأبعادها تغطية كاملة، فلم يبق لهم أي جديد، لأن الزخم العلمي الذي ضخه الإسلام في نفوس المسلمين كان قويًا إلى درجة لا يكاد يصدقه الإنسان، ولأن الدقة والعمق والموضوعية والتجرد والاهتمام عند علمائنا

السابقين بالموضوعات العلمية قد بلغ حدًا إقترب من الكمال.

ففقهاؤنا في الحوزات العلمية كانوا يصنعون المعاجز أو ما شابه المعاجز في معالجتهم لأدق المسائل العلمية والفلسفية والفقهية والتشريعية.. ومن يقارن بين الفقه الإسلامي الذي تطور على أيدي فقهائنا الأجلاء، والفقه الغربي، يجد البون الشاسع بينهما. كما أن من يدرس علم النفس أو علم الأخلاق عند علمائنا، يدرك أن حظ الغربيين في علم الإجتماع أو علم النفس أو العلوم الإنسانية عمومًا، لا يمكن أن يبلغ حظ علمائنا.

ومن هنا فإن إهتمامنا بتنظيم الحوزات العلمية لا يعني أبدًا الإنتقاص من قيمة هذه الحوزات، أو عدم الإنتباه إلى دورها الكبير والفعال في تطوير العلم، وفي الإبقاء على جوهر الحضارة الإسلامية.

٢- استقلال العلم

إن أهم مبدأ يجب التأكيد عليه في أوساط الحوزات العلمية، ولابد من الإبقاء عليه وتكريسه، هو ضرورة إستقلال العلم عن السلطة والنفوذ والثروة. فعلماؤنا السابقون حافظوا رغم فقرهم المادي، والصعوبات الكبيرة التي كانوا يعانون منها، حافظوا على إستقلال العلم، فلم يمدوا أيديهم لا لمصافحة صاحب السلطة ولا لمصافحة صاحب المال.. فكان عنوانهم في حياتهم، قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الْمُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَى النَّاسِ وَالْعُلَمَاءُ حُكَّامٌ عَلَى الْمُلُوكِ**»[1].

لقد نعى الفكر الغربي إستقلالية العلم، وتحسر عليها اليوم علماء أوروبا وأميركا، لأنهم قد فقدوها منذ زمن بعيد، فأصبح العلم خادمًا على أبواب المال والسلطان، وبالتالي فقد أصبح في خدمة الهوى، في حين أن قيمة العلم تكمن في ترويض الهوى وتوجيه الإنسان.

(١) مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٣١٦.

٣- تنظيم الجوانب الجذرية

إن عملية تنظيم الحوزات العلمية يجب أن لا تنصب على الجوانب الفوقية والسطحية، بل على الجوانب الجذرية فيها؛ بمعنى أن علينا أن نجمع بين الخصائص الإسلامية التي كانت متوفرة في الحوزات العلمية سابقًا كخصيصة الحرية ضمن إطار النظام والتقوى، وتركيز الإهتمام على العلم أكثر من أي شيء آخر، ثم جمع هذه الخصائص مع ميزات العصر وحاجاته.

كيف يمكننا أن نحقق ذلك؟.

فيما يلي نقترح بعض الخطوات العملية في هذا المجال:

ألف: قتل الأنانيات في الحوزة

نحن المسلمين نعيش تخلفًا سلوكيًا وفكريًا؛ وبتعبير آخر، نعيش تخلفًا حضاريًا منذ عدة قرون، وعلى الحوزات العلمية أن تعالج هذا التخلف.

ومن ألوان تخلفنا، تربيتنا الفردية في مقابل جمعية الحضارة. فأية حضارة تذوِّب الفرد في بوتقة الجماعة، وينتهي فيها (الأنا) ليبدأ (نحن). أما التخلف فهو على العكس من ذلك تمامًا، فما هو الفرق- مثلًا- بين الحجارة التي تنتجها مصانع الحجارة، وبين البناء؟.

الفرق أن تلك الأحجار هي حجارات مفردة، بينما البناء يمثل حجارات مجتمعة إلى بعضها البعض تشكل كلها وحدة واحدة.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الفرق بين حالتنا الآن، وحالتنا سابقًا.

وفي الحوزات العلمية ينبغي أن تموت الأنانيات، وأن تكون الحوزات بوتقة لصهر المجموعات المنتمية إليها. فمن نذر نفسه لله لابد أن ينصهر في الجمع

الرباني ولهدف موحَّد، وينبغي أن لا يكون هذا مجرد قرار أو شعار، بل أن يكون ممارسة عملية. ففي الحوزات يجب أن تمارس السلوكيات التي تثير في الإنسان الجوانب الإجتماعية، كما هو الحال في المخيمات الكشفية، فقد أثبتت التجارب الحديثة أن أثر هذه المخيمات في إنماء الروح الجماعية عند الإنسان كبير جدًا، فينبغي أن تكون الحوزات العلمية متجهة إلى العمل والدراسة الجمعية وأن ينحسر نطاق الفردية فيها.

باء: تعميق الصلة بالنصوص الشرعية

ينبغي أن يكون الإتجاه في الحوزات العلمية نحو الإتصال الأعمق والأمتن بالنصوص الشرعية، فنحن لا نريد أن ننتزع أنفسنا من واقعنا المتخلف لنعلقها في الفراغ، بل نريد أن ننتشلها من هذا الواقع الفاسد لنربطها بذلك الواقع الحضاري المتكامل، وهو واقع القرآن الكريم وسيرة رسول الله والأئمة الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. علينا أن نتمثل سيرة نبينا الأعظم ﷺ، وسيرة أئمتنا الطاهرين عليهم السلام وحوارييهم، فنستلهم منهم السيرة السليمة في حياتنا استلهامًا كاملًا، كما علينا أن نعود إلى النصوص القرآنية، ونكثر من قراءتها ونحاول تفسيرها وتأويلها والإتعاظ بها، فنجعل القرآن شعارنا، ونعيش في واقعنا معه، لا أن نتخذ منه دثارًا نتدثر به في أوقات الحاجة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأحاديث الشريفة.

إن دراسة المتون الدراسية قد أشغلت حوزاتنا عن دراسة المتون الأخرى، وكأننا لسنا بحاجة إلى دراسة نهج البلاغة أو الصحيفة السجادية.. وكأن وصايا رسول الله ﷺ، ووصايا أئمتنا عليهم السلام، ووصايا السابقين من علمائنا التي تستهدف صياغة الشخصية الإيمانية المتكاملة لا تعنينا أساسًا.

إن ثلث الدراسات الحوزوية ينبغي أن تتمحور حول متون القرآن والأحاديث الشريفة وتأريخ السابقين من علمائنا.

جيم: معرفة اللغة العربية

إن اللغة العربية هي لغة العالم الإسلامي، فعلم الإسلام وفقهه كُتِبَ باللغة العربية، فلا ريب إن معرفة هذه اللغة بجميع خصائصها وآدابها ضرورة، ولكننا نلاحظ في بعض الحوزات العلمية إهتمامًا بدراسة النحو والصرف والمعاني والبيان وما شاكل ذلك دون الإهتمام بذات اللغة العربية، فينبغي أن نعود إليها بالذات، وأن يكون إتقان هذه اللغة شرطًا مسبقًا لدخول الحوزات، ليدرس الطالب جميع الكتب بهذه اللغة. وأهمية هذه الملاحظة تأتي من أهمية العودة إلى النصوص التي ذكرناها في الملاحظة الثالثة.

دال: الإرتباط بين النظرية والتطبيق

إيجاد العلاقة بين ما يدرس في الحوزة وبين ما تتطلبه الظروف المستحدثة. فليس كل علم نافعًا، وليس كل تعليم مطلوبًا، فلابد أن نجعل الحاجات العملية أساسًا للتعلم. فلكي نعمل، علينا أن نتعلم، ولذلك يجب أن لا نتعلم إلا ما ينفع عملنا.

هاء: الإهتمام بالبحوث والدراسات العليا

فمن أولى الضرورات هو الإهتمام بالبحوث والدراسات العليا التي تحتاجها الأمة الإسلامية.

من الملاحظ أن إهتمامات علمائنا إنصبت على مسائل فرعية، وإن كانت لا تخلو من أهمية، ولكنها قد أشبعت بحثًا ودراسة من قبل علمائنا السابقين، كالبحث عن الحقيقة الشرعية، واجتماع الأمر والنهي، والدلالات اللفظية، وما أشبه ذلك من موضوعات أشبعت بحثًا ودراسة، لا يمكن أن يضيف إليها الباحثون الجدد إلا قليلًا. في حين أن مسائل من مثل التنمية الإقتصادية، والتربية الإسلامية التي ما

زالت أصولها ومناهجها غير معروفة، لم تبحث بالشكل المطلوب.

إن الحوزة العلمية لو اتجهت في هذا الإتجاه لأفادت العالم الإسلامي الكثير والكثير. فمن الضروري أن تكون دراسات هذه الحوزة في اتجاه ما تحتاجه الأمة. ولو تأملنا الرواية الشريفة عن الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف، وبالذات عبارة: «**وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ، فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا**»(١).

لوجدناها تدل على الحوادث التي تقع، والتي يمكن أن تقع؛ أي الحوادث الفرضية التي قد تكون واقعية.

أما المشاكل المستحدثة والجديدة والقضايا التي لم تقع سابقًا، فهي التي تحتاج إلى استنباط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(٢).

فالإستنباط لا يكون إلا في الأمر الجديد، وفي القضايا الحديثة التي تطرح لأول مرة، أو القضايا التي نحن بحاجة ماسة إلى تحديد حكمها.

واو: الإهتمام بروح المبادرة

الإهتمام بأن نكون قدوة صالحة لغيرنا، فالذي يؤثر في الإنسان هو القدوة الحسنة، لا الحديث، ولا الموعظة. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كُونُوا دُعَاةً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ، لِيَرَوْا مِنْكُمُ الْوَرَعَ وَالِاجْتِهَادَ وَالصَّلَاةَ وَالْخَيْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ**»(٣).

ولا ريب إن الحوزات العلمية كانت ناجحة في هذا المجال، ولكن ينبغي الإهتمام أكثر، كالإهتمام بتزكية النفس والأخلاق الحسنة، كالتواصي بالحق

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٤٠.
(٢) سورة النساء، آية: ٨٣.
(٣) الكافي، ج٢، ص٧٨.

والتكافل الإجتماعي، وما شاكل ذلك من أمور لو اهتمت الحوزات العلمية بها فإن ثورة ثقافية، بل موجة حضارية سوف تنبعث من تلك الأراضي المقدسة التي احتضنت الحوزات العلمية.

ومن أجل أن نقوم بذلك، فإننا لسنا بحاجة إلى قانون يصادق عليه أحد المسؤولين، بل نحن بحاجة إلى نهضة تنبع من داخل الحوزات.

والحوزات العلمية بحاجة إلى حركة جذرية ذاتية تنبع من ضميرها، وتسد النقائص الموجودة فيها. أما إذا انتظرنا الآخرين لكي يأتوا إلى الحوزات ويصلحوها ولكن بقيمة القضاء على إستقلالها، فهذا ليس بالعلاج الجذري، لأن إستقلال الحوزات هو أهم إرث ورثته الأجيال الحاضرة عن الأجيال السابقة من فقهائنا الأبرار رضي الله عنهم.

وإني أوجه هذا النداء بالخصوص إلى طلاب الحوزة العلمية، فهم الذين يجب أن يبدؤوا ويبادروا إلى القيام بتلك الخطوات الإصلاحية؛ فالتحرك هو منهم، ورفض الواقع الناقص والعاجز ينبغي أن يصدر منهم.. وذلك لدفع مسيرة الحوزة العلمية باتجاه الاقتراب من الواقع والحياة العملية، والمشاركة الفعالة في صنع الأحداث وتوجيهها خطوات واسعة إلى الأمام.

ضروريات التطوير

من الضروريّات الأوليّة التي يجب أن يتحلّى بها عالم الدين، أن يكون مواكبًا لعصره؛ أي أن يستطيع تجديد أساليب العمل وفق متغيّرات العصر وضروراته، والتأثير على المجتمع تأثيرًا دينيًا إيجابيًّا حسب الظروف المستجدّة في حياتهم.

إنّ هذه الضرورات تعتبر من المسلّمات لدى جيل من الرجال الذين نذروا أنفسهم لله تعالى، بينما هناك جيل آخر وضعوا أنفسهم في إطار من الجمود على التقاليد.

وهناك في هذا المجال عدّة أسئلة؛ السؤال الأوّل هو:

ماذا يعني التجديد؟.

والثاني: كيف يستطيع الإنسان الإستمرار في حركة التجديد؟.

والثالث: ما هي ضروريات التجديد؟.

ماذا يعني التجديد؟

وللإجابة على السؤال الأول نقول: إنّ التجديد يعني أن يكون عالم الدين

قادرًا على العمل وفق المرحلة التي يعيشها. فالإنسان -على سبيل المثال- يمرّ في حياته الخاصّة بمراحل ثلاث، هي: مرحلة الطفولة، ومن ثم الشباب والفتوة، وأخيرًا مرحلة الإكتمال والرجولة. والإنسان العاقل والحكيم هو الذي يعمل في كلّ مرحلة من هذه المراحل الثلاث طبقًا لمتطلّباتها؛ ففي مرحلة الطفولة ينبغي أن يتلقى التربية السليمة، وأن يتعلّم مختلف العلوم والفنون، وأن يكون متواضعًا لمن هو أكبر منه سنًّا، وما إلى ذلك.

أمّا في مرحلة الشباب فيجب عليه تحمّل المسؤوليّات، والإنضباط وفق الأفكار الحكيمة والرؤى الصائبة، والإستفادة من تجارب الآخرين؛ أي إنّ عليه أن يجدّ ويعمل ليلًا ونهارًا في سبيل الوصول إلى الكمال.

أمّا مرحلة الرجولة فتعني أشياء كثيرة أخرى. وهذه المراحل الثلاث لو حاول الإنسان تغييرها، وتبديل نظامها وسيرها الطبيعي؛ كأن يتصرف الطفل وكأنه رجل؛ أي أن يعتقد الطفل أنّه أصبح رجلًا فيتقمّص شخصيّة الكبار وصفاتهم من وقار ورزانة، فإنّه يكون بذلك قد عرّض نفسه للتهكم والاستهزاء، ذلك لأنّ الإنسان عندما يتقمص شخصيّة أخرى غير شخصيته فإنّ ذلك يعني أنّه لا يعرف قدر نفسه، وبذلك فإنّه سوف يتعرّض للإستهزاء.

المراحل التي تمرّ بها الأمّة

وهكذا الحال بالنسبة إلى الأمّة، فإنّها تمرّ بمراحل مختلفة، وعليها في هذا المجال أن تعتبر بالمراحل التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة في عهد النبيّ ﷺ، والتي كانت مرحلتها الأولى؛ مرحلة العمل في سبيل جذب الناس إلى الدين الإسلاميّ، والعمل بسريّة تامّة، وعدم الجهر بالإسلام. أمّا المرحلة الثانية؛ فقد كانت مرحلة الهجرة، ثمّ مرحلة الجهاد والدفاع، وأخيرًا مرحلة الحكم.

كلّ تلك المراحل التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة كانت لها مواصفاتها

وشروطها وظروفها وواجباتها، فلو أن قائدًا دخل بالإمّة الإسلاميّة في المرحلة الأولى ثمّ أراد أن يطبّق واجبات المرحلة الأخيرة لكان مصيره الفشل، ولو أنّ رجلاً اعتنق الإسلام ثم شهر سيفه ليدخل الناس في الإسلام بالقوة، فإنّ هذا الرجل لم يماش عصره؛ وبتعبير آخر إنّه شخص غير عصريّ، لأنه لا يعيش متطلّبات عصره، بل إنّه يتجاوز مرحلته.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأمّة تمرّ بمراحل، كما أنّ الفرد يمرّ بمراحل، والحياة تمرّ بمراحل. ولإيضاح هذه الفكرة نقول: إن (٧٠٪) من المخترعات الحديثة لم تكن موجودة قبل سبعين عامًا، وهذا يعني أن حياة الإنسان في ذلك العصر كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عمّا نجده اليوم. وعلى سبيل المثال فإنّ السفر بالطائرة كان أمرًا عجيبًا آنذاك، أمّا الآن فقد أصبحت واسطة النقل هذه الأكثر إنتشارًا في العالم، وهكذا بقية الأمور.

ضرورة مواكبة العصر

وبناء على ذلك فإنّ عصرنا الآن يختلف عمّا كان عليه قبل ثلاثين عامًا، وكما إنّ هذا العصر قد اختلف، فعلى أهل العصر أيضًا أن يتغيّروا. أمّا إذا أراد الإنسان أن يعيش عيشة الأجيال السابقة، لكان مصيره الفشل الذريع.

إنّ الإنسان حاليًّا بحاجة إلى مجهود هائل من أجل أن يواكب تطوّر عصره، وذلك لأن العصر في حالة تجدّد وتغير مستمرّين. ولكلّ مرحلة من مراحل عصرنا متطلبات وظروف وواجبات، ففي يوم من الايام كان أحسن الخطباء أعلاهم صوتًا، لأنه كان يجب عليه أن يوصل صوته إلى أكبر عدد ممكن من الناس لعدم وجود مكبّرات الصوت. وقديمًا كانت الخطابة من أفضل وسائل التبليغ، ولكنّ الأمر يختلف الآن لوجود طرق أخرى لإيصال الحقائق إلى الناس مع تطوّر وسائل الإعلام.

وعندما نقول إنّ الإنسان يجب أن يكون عصريًّا، فإنّ هذا يعني أن يعمل حسب المرحلة التي يعيش فيها، مع الأخذ بنظر الإعتبار المكان الذي يعيش فيه؛ فعلى سبيل المثال إنّ الإنسان الذي يعيش في العراق قد تختلف مرحلته عن ذلك الذي يعيش في الكويت، وهكذا.

كيف يكون الإنسان مجدّدًا في حياته؟.

وهنا نحاول الإجابة على السؤال الثاني وهو: كيف يكون الإنسان مجدّدًا في حياته؟.

إنّ التجديد يحتاج إلى إعدادين رئيسيين، هما: الإعداد النفسي، والإعداد الجسدي. فالإعداد الأول يعني أن نكون مستعدين لتغيير حياتنا متى ما تطلّبت الظروف ذلك منّا.

إنّ رجل الدين كان سابقًا يعيش البساطة في حياته، فلم يكن يستخدم وسائط النقل لتسهيل عمله، ولكن الظروف تغيرت الآن، فهي تتطلب منه الآن قيادة السيارة، والقيام بأعمال مختلفة حسب الظروف، ومثل هذه الأعمال بحاجة إلى إعداد نفسي؛ بأن نوحي إلى أنفسنا بأنّ علينا أن نعمل بالواجبات أنّى كانت.

أمّا الإعداد الجسدي فيعني أن تدرّب نفسك على كافة الأعمال البدنية لمواجهة كل الإحتمالات الممكنة. فالجندي في المعركة لا يتدرّب على السلاح الشخصي فقط، بل يتدرب على جميع أنواع الأسلحة، لأنّ الظروف قد تتطلّب منه استخدام سلاح معيّن غير السلاح الذي تدرب على استعماله.

لنعتبر أنفسنا جنودًا في جيش الإسلام، ولنتدرّب على مزاولة كافة الواجبات كالخطابة، والكتابة، والعلوم المختلفة، والقدرة على الحوار، والإدارة، وجميع المهارات التي تتطلّبها المهن والأعمال التي قد توجبها علينا المرحلة التي نمرّ بها، فإنّ من الواجب علينا أن نتدرّب عليها.

وهناك مجال آخر يجب أن نحدث التطوير فيه، وهو الأجهزة البشرية التي تحمل رسالة السماء إلى الحياة. فالكثير من الناس يتصوّرون أنّ الدين يشبه التراث الشعبي الذي يجب الإبقاء عليه كما كان سابقًا، وهناك آخرون يعتقدون بضرورة التطوّر، ولكنهم يكتفون بتطوير بعض الجوانب السطحيّة من الدين، ويدعون القضايا الجوهريّة المهمّة.

وهناك فريق آخر يدرك ضرورة التطوّر إلاّ أنّ التطوّر هذا يصطدم إصطداماً مباشرًا مع مصالحهم الذاتية، ومع المرحلة التي يعيشون فيها، وبالتالي فإنّ مسألة التطوّر تبقى نظرية يتحدثون عنها دون أن يطبّقوها بشكل عملي على الواقع. ومثل هذا التصّور سبب للأمة الإسلامية مشاكل عديدة نذكر ثلاثة منها:

١- الحقّ بحاجة إلى أداة تنفيذ

المشلكة الأولى تتمثل في أن الحق المجرد من القوّة لا يعني شيئًا، كما أنّ العدالة بدون السيف تبقى أمرًا نظريًا. فالإستدلال نظريًّا على أنّك على حق لا يكفي، إلاّ إذا استطعت أن تترجم هذا الحقّ إلى قوّة فعليّة معاشة. فليس من الكافي أن تقول إنّك الأقوى، والأحق، والأصوب طريقًا من غيرك، إلا أن تثبت للناس عمليًّا أنّ طريقتك أفضل.

إن النبي ﷺ عندما أعلن رسالته لأهل الجزيرة العربية، بادر إلى ترجمة هذه الفكرة إلى قوّة استخدمها في معركة بدر، فكانت هذه المعركة نقطة التحوّل الأساسيّة في حياة الجزيرة العربيّة، أثبت النبيّ ﷺ من خلالها أحقيّة رسالته.

وفي القرآن الكريم نرى تأكيدًا متواصلًا على هذه الفكرة من خلال قول الله تعالى في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١

فالله تعالى يقول لنا -حسب هذه الآية الكريمة- إنّ أولئك الذين كانوا على باطل كان مصيرهم الإنقراض والزوال، فلم يبق منهم أثر، بل تحوّلوا إلى أحاديث تاريخية، لأنّ هناك لإتصالًا وإرتباطًا وثيقين بين أن يكون الإنسان على باطل وبين عدم بقائه، وبين أن يكون على حقّ وبين بقائه وخلوده.

وبناء على ذلك فلا يكفي أن نقول إنّ الإسلام على حق إلاّ إذا ترجمنا هذه الفكرة إلى عمل. والسؤال المطروح هنا هو: كيف يستطيع المسلمون إثبات أنفسهم، هل من خلال استخدام الأساليب التي استعملها أسلافنا؟.

لكلّ عصر-بالطبع- رجال وعادات وضرورات، كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

فالأمم التي مضت، مضت معها وسائلها وعاداتها وأساليبها، ونحن نعيش الآن حياة جديدة. فالتطوير ضروريّ في حياتنا لكي نثبت أنفسنا، لأنّ الأساليب الماضية لا يمكنها أن تصمد إزاء الأساليب الحديثة؛ فهل يستطيع الخنجر والسيف أن يقاوما الصاروخ أو القنبلة الذريّة، وهل يستطيع الحصان أن يسابق الطائرة؟.

فلكي نحافظ على ديننا لابدّ أن نكون أقوياء، ولكي نكون أقوياء لا مناص لنا من أن نطوّر أنفسنا، خصوصًا ونحن الآن نعيش في عصر متقدّم للغاية في كافة مجالات الحياة.

٢- ضرورة التنازل عن المهمّ في سبيل الأهمّ

يجب أن نتنازل عن المهمّ في سبيل الحفاظ على الأهم، ومن أجل أن نوضح هذا الموضوع نقول: إنّنا لكي نحافظ على الصلاة فإنّ الواجب علينا أن نصليها مع

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٤

الوضوء، وباتجاه القبلة، مع الحرص على أن تكون ملابسنا طاهرة، وما إلى ذلك من الواجبات. ولكنني لو ابتليت بمرض ولم أستطع الصلاة قيامًا، فإنّ هذا ليس معناه أن أترك الصلاة بالمرّة، بل أحاول أن أترك الفرع وأتمسّك بالأصل؛ كأن أترك الصلاة قيامًا لأصلّيها جلوسًا، أو أن أتركها جلوسًا لأصلّيها في حالة الإسترخاء، لكي نحافظ بذلك على جوهر الصلاة.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الدين، فإنّ له جوهرًا وله مظاهر. وبعبارة أخرى؛ فإنّ له أمورًا ذات أولويّة، وأمور غير ذات أولوية، فالأمور الأولى تجب المحافظة عليها في مختلف الأوضاع والظروف.

وعلى سبيل المثال فإنّ العدالة الإجتماعية هي ضرورة من ضرورات الحياة والدين، بل إنّ الإسلام شرّع مختلف التشريعات من أجل المحافظة على العدالة الإجتماعيّة، وهناك أيضًا قوانين للملكية الخاصة على اعتبار أنّ الناس مسلّطون على أموالهم وأنفسهم؛ أي إنّ الإنسان يستطيع التصرّف بأمواله كيف يشاء، وهو ما يسمّى حاليًا بـ(الملكية الفرديّة)، ولكنّ هذا النوع من الملكيّة إذا تحوّل إلى وسيلة لاستغلال الناس، وامتصاص دمائهم، مصطدمًا مع مفهوم العدالة الإجتماعية في الإسلام، فإنّ هذه الملكيّة سوف تكون مرفوضة، لأنها تتعارض مع القيمة الأساسيّة للدين.

وعلى هذا فإنّ من الواجب علينا أن نفكر بجد في تطبيق الدين، وأن نرى ماذا يتطلّب منّا؛ لا أن نتمسّك بظاهره وقشره، ونترك جانبًا جوهره ولبّه.

وهكذا فإنّ علينا أن نتنازل عن بعض الأمور من أجل المحافظة على الدين، لأنّ عملية المحافظة عليه تتطلّب التضحية ببعض الجوانب.

وللأسف فإنّ البعض من الناس لا يقوم بكثير من الواجبات من أجل الإبقاء على القشور والمظاهر، فتراهم يعملون بالمستحبّات، في حين يتركون الواجبات، وهذه هي النظرة القشريّة.

٣- الجمود يعني الموت

المشكلة الثالثة تتمثّل في أننّا سنصبح خارج التأريخ، وميّتين بين الأحياء عندما نضع الأساليب التي ننتهجها والأفكار التي نحملها في إطار من الأجواء البعيدة عن الواقع المعاش.

وبالفعل فإنّ بعضًا من علماء الدين أصبحوا خارج التأريخ، ولا يعرفون شيئًا عن التطوّر، وكيفيّة استخدام وسائله. وبالفعل فإنّ الإنسان لا يلبث أن يتحوّل إلى كائن غريب عندما لا يواكب تطورات العصر؛ فالتطوّر ليس معناه قراءة الكتب والجرائد.. فالحياة أسرع من ذلك بكثير، ولذلك فإنّ الواحد منّا قد يتحوّل إلى رجل غائب عن عصره، لا يمكنه القيام بأيّ عمل، ولا تربطه مع عصره أيّة لغة تفاهم. ونحن نربأ بأنفسنا أن نكون من هذا النوع، خصوصًا وأنّنا نمتلك هذا الدين المرن الذي يمكنه التكيّف مع جميع الظروف، وتلبية احتياجات العصر، ومماشاة التطوير مهما كان سريعًا.

التركيز والفاعلية

هناك ميزتان يجب أن تتحلى بهما الحوزات العلمية:

الميزة الأولى: التفاعل العميق بين فروع العلم المتعددة، وبالذات بين علوم الحياة النظرية والعملية.

الميزة الثانية: أن تكون هذه الحوزات الدينية علمية ومتفاعلة مع الساحة الإجتماعية بكل أبعادها.

شر الدواب عند الله

إن الله جل وعلا يسوق لنا ذكرًا لبعض الأقوام الذين يشبهون الدواب، أو هم شرّ من الدواب، على أن تشبيههم بالدواب لا يعني أنهم مسلوبوا العقل، بل لقد أوتي هؤلاء الناس قدرة الفهم، وأتيحت لهم فرصة العلم والمعرفة ولكنهم لم يغتنموا هذه الفرصة؛ فهم يمتلكون العقل، ويمتلكون فرصة الاستفادة منه، ولكنهم مع ذلك لا يوظفونه ولا يستخدمونه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

والمشكلة الأساسية المتأصلة عند أمثال هؤلاء أنهم مفرغون من عامل الخير؛ فنيّاتهم طالحة، وأهدافهم خبيثة، وقلوبهم لا تنطوي على الإرادة والعزم والصلاح. ومن أجل ذلك لم يجد الله تعالى فائدة تُرجى منهم، فحسر عنهم توفيقه وهدايته. قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ﴾[1].

فهؤلاء القوم يعيشون حالة متردية للغاية، الأمر الذي يحول بينهم وبين الاستفادة من أشعة الهداية؛ فحتى لو شاء الله أن يسمعهم ويغمرهم بهدايته، فإن نفوسهم المنطوية على الخبائث وإرادتهم الفاسدة تجعل كل ذلك يذهب أدراج الرياح.

ثم يؤكد لنا القرآن الكريم حقيقة جلية، هي أن هؤلاء الذين شبههم بـ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ سيكون إعراضهم وتحديهم وعنادهم وبالًا عليهم، ذلك لأنّ القرآن إنما يدعو إلى الحياة. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

القرآن دعوة إلى تغيير السلوك

وهذه الدعوة التي يوجهها القرآن إلينا، ويدعو إليها الرسول الأعظم ﷺ، هي دعوة واقعية وليست قشرية ظاهرية؛ أي إنّ الإسلام لا يدعو إلى شرائع وقوانين في صدور العلماء، ولا يدعو إلى تعاليم أخلاقية وقوانين تزين بها الجدران، بل يدعو إلى علم في القلب، وتعاليم أخلاقية في السلوك، وقوانين وأنظمة مطبقة في المجتمع.. ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

فالعلم الظاهر، والقانون المكتوب، وعبارات الأخلاق التي تزين بها الجدران، ليس مكانها في القلب، والله لا يحاسب عليها، بل يحاسب على القلب والنية. فالنية الصادقة هي التي تفرز السلوك الصالح، والقانون الملتزم به، والعلم النافع، والعكس صحيح.

ونحن نستوحي من مجموع هذه الآيات أن من فضائل المؤمن تفاعل العلم مع ذاته، فإذا اعتبرنا أن العلم هو مجرد تجميع للمعلومات وتخزينها في دائرة العقل، فإننا يمكننا بذلك اعتبار الكومبيوتر أعلم الموجودات، في حين أنّه لا يستطيع أن يبدع إختراعا واحدًا، بل إن ذهن الإنسان هو الذي يخترع وهو الذي يستنتج المعلومات المختلفة.

فنحن ندرس السياسة، وندرس الفقه، ونقرأ القرآن، ونستمع إلى المحاضرات المتنوعة، وعلينا أن نجعل من أدمغتنا مصهرًا يذيب ما نتعلمه ونستوحيه من القرآن وما نتلقاه في السياسة في قالب واحد متكامل يتحول إلى إختراع جديد وفكرة حديثة. أما أن أحفظ آية قرآنية، وأراجع تفسيرًا ما من التفاسير المشهورة، وأحفظ حديثًا، فإن ذلك لا ينفعني كثيرًا.

ولقد كان من الميزات الرئيسية في الحوزات العلمية السابقة، وما تزال، ممّا نأمل أن نوجده في أنفسنا الآن على وجه العموم، أن الطالب في الحوزة العلمية يحاول أن يفقه ويفهم لا أن يحفظ فحسب، ذلك لأن مقياس علم الإنسان هو مدى تفقهه، كما يشير إلى ذلك ربنا تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، وليس المقياس هو ذلك العلم الذي يطلق مصطلحه على مجموعة المعلومات المتراكمة لدى الإنسان.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

العلم في المفهوم القرآني

فالعلم في تعابير القرآن ليس مجرد المعلومات، بل إن العلم في مفهوم القرآن هو الحكمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

والعلم هو ما يتفاعل معك، كما يؤكد ذلك الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لَيْسَ الْعِلْمُ بِكثرةِ التَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقْذفهُ اللهُ تَعَالَى فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُهْديهُ**»[٢].

فهناك الكثير ممّن يحفظون المعلومات، ولكن حفظهم للمعلومات دون تطبيقها لا يعني أنهم بلغوا من العلم مبلغًا عظيمًا، فمثل هؤلاء كمثل الرجل الذي حفظ مائة وعشرين ألف حديثًا ولكنه لم يطبق حديثًا واحدًا منها في حياته.

من هنا نؤكد على طلبة العلوم أن يجدّوا في طلب العلم، لا في طلب المعلومات.

كيف نحصل على الرؤية السليمة؟

وعلى هذا يجب على طلاب العلوم أن يبحثوا عن العلم لا المعلومات، وأن يبحثوا عما ينمي شخصيتهم الداخلية، وعما يجعلهم أثقل وزنًا وأكثر رصانة في الشخصية.. إذ لا يمكن إيجاد رؤية واضحة في البحث عن المعلومات والمصطلحات التي قد يستوعب مخ الإنسان العديد منها، ذلك لأن هدفنا الأساسي هو تكوين رؤية متكاملة.

فعندما ندرس السياسة أو الفقه أو القرآن نحتاج إلى هذه الرؤية التي لا يمكن أن نحصل عليها إلاّ بالبحث عن العلم، وتتأتى لنا هذه القدرة على إستحصال الرؤية من خلال:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

(٢) منية المريد، ص١٦٧.

١- الهمة العالية الجدّية.

٢- التركيز.

٣- وجود خيال علمي عند الانسان؛ أي أن لا ينظر إلى ما يقرأ من النصوص كنصوص جافّة، بل أن يستشف معانيها المخبّأة بين السطور وما وراء الكلمات، ويتوصل إلى ما ترمي إليه.

فالعالِم بما يتمتع به من همّة عالية، وتركيز، وخيال علمي خصب، يكون ملهمًا، وبهذا فهو يفيض بما لديه من علوم وأفكار لا تنضب على من حوله. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**اعْرِفُوا مَنَازِلَ شِيعَتِنَا بِقَدْرِ مَا يُحْسِنُونَ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ عَنَّا، فَإِنَّا لَا نَعُدُّ الْفَقِيهَ مِنْهُمْ فَقِيهًا حَتَّى يَكُونَ مُحَدَّثاً**. فَقِيلَ لَهُ: أَوَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُحَدَّثًا؟. قَالَ عليه السلام: **يَكُونُ مُفْهَماً، وَالْمُفْهَمُ الْمُحَدَّثُ**»[١]. وقال عليه السلام في حديث آخر: «.. **وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فَقِيهًا حَتَّى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ كَلَامِنَا**»[٢].

التعمق وسيلتنا إلى طلب العلم

فالحديث الشريف يريد أن يوضح لنا أن الفقيه هو ذلك الشخص الذي يبحث في أبعاد ومساحات كلام المعصومين عليهم السلام، وليس الفقيه من يجمد على النص. فعندما ندرس الفقه -مثلًا- علينا أن نحلِّل المسألة الفقهية، ونتخيل تطبيقها الخارجي، ونتأكد من مدى صحّة ذلك التطبيق، ومن ثمّ نحوّل هذه المسألة إلى جزء من حياتنا وبرامجنا. أما إذا أردنا أن نقرأ المسألة الشرعية قراءة سطحية، فسرعان ما ننساها، وحينئذ لا يمكن أن نصبح فقهاء.

ولذلك فإننا قد نجد بعض طلاب العلوم الدينية لا يراجعون الكتب ولا يعودون إلى أذهانهم عندما يحتاجون إلى مسائلهم الشرعية، وإنما يسألون الآخرين، وهذا

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٤٩.

(٢) معاني الأخبار، ص٢.

يعود بالتأكيد إلى القراءة السطحية فلا يستطيع أن يربط بين ما يقرأ من المسائل وبين الحياة، في حين أن الإسلام هو دين حياة، فعلينا أن نقرأ الفقه والسياسة والأخلاق للحياة، لأنها هي المحور الذي يعني التطبيق الخارجي المتمثل في العمل.

وقد نجد البعض ممن يقرأ قليلًا ولكنه يتمتع بعقلية واسعة، وعلى العكس فهناك من هم مكثرون في المطالعة ولكنهم قليلوا القدرة على التحليل، وعلى فهم الحياة والتفاعل معها وتفسير الأحداث.

إن من شروط العلم الأساسية: الملاحظة والإستيعاب. والإهتمام بنوع وموضوع ما يتلقاه الإنسان من علم، لا أن يقرأ آلاف الكتب في شتّى العلوم وخلال فترة قصيرة دون أن يحيط خبرًا بعلم واحد على الأقل.

فعلينا أن نقرأ وندوّن ما قرأناه وما سنقرأه في دفتر الملاحظات، ونقارنه بما لدينا من معلومات وما نتوصل إليه ونستنتجه من أفكار.

فالمطالعات والدراسات ومعرفة الأخبار بصورة سطحية، كلّ ذلك لا يغني ولا يجدي نفعًا، لأنه لا يمتّ بصلة إلى الحياة؛ وهذه هي الميزة الرئيسية الأولى التي يجب أن نوفرها في أنفسنا.

والسيرة العطرة للقدوات التاريخية الخالدة تشهد لنا بذلك، لتكرس فينا مفهومًا جليًا وهو حتمية الإقبال على نوعية العمل لا كثرته، كما يفعل معظم الناس.

وكذلك الحال بالنسبة إلى العلم. فهناك من طلاب العلم من يستفيد من رسالة العلم ولكن بصورة شخصية؛ أي يحوله إلى عمقه كما تمتص الأرض مطر السماء فتحوله إلى مواد مفيدة للناس. والقسم الآخر من طلاب العلم هو من يحتوي العلم بشكل سطحي، أي لا يفهمه بعمق، فهو يفيد الآخرين عندما يعطي علمه، ولكنه لا يستفيد منه شخصيًا. أما القسم الثالث من طلاب العلم فيتمثل في أولئك الذين لا يستفيدون ولا يفيدون الآخرين. ونحن ينبغي علينا أن نكون من القسم الأول،

وذلك لا يتمّ لنا إلا عن طريق إتّباع أسلوب المباحثة والتدريس؛ فهذان الأسلوبان لهما فوائد عظيمة.

المنهجية في طلب العلم

إن التفكر في الدروس هو صيغة ضرورية ثالثة إلى جانب صيغتي المباحثة والتدريس. فالتفكر هو تجسيد لإرادة الإنسان، وهذا يعني أن نطرد جميع الأفكار الأخرى من أذهاننا عندما ندرس ونتفرغ للتفكر في الدرس.

فالمنهجية في التفكر قضية هامّة؛ فلكي أستطيع أن أتفكر في درس أو مسألة ما، وأتفرغ لها، على أن أرسم خطّة صحيحة ومنهجية سليمة لاسلوبي في التفكر، فعليّ -مثلًا- أن أسجل جميع ما قد يعترض فكري من أسئلة وملاحظات وأفكار مستقبلية، ثمّ أرجىء التفكير فيها لوقت آخر يكون ذهني فيه صافيًا لا تكدّره أدنى شائبة. وإذا إستطاع الفرد المؤمن أن يطبّق اليوم هذه المنهجية في التفكر، ويمسك بزمام إرادته صغائر الأمور، تمكن غدًا من ضبط الأمّة الإسلامية والأخذ بقيادتها.

العملية في طلب العلم

وأما الميزة الرئيسية الثالثة فهي توافر صفة (العملية) فينا؛ أي أن نكون عمليين. فالإنسان حينما يدخل ساحة العمل يزداد وعيًا وحكمة وقدرة على القيادة وفهمًا للمشاكل، ولقد كان المؤمنون يختارون أشق وأصعب الأعمال على أنفسهم لكي يربّوا في أنفسهم الحكمة والوعي والتعمّق في فهم الحياة. وعلى المؤمن الرسالي اليوم أن يتفاعل مع الساحة، ويخوض معترك الحياة ليكتسب المزيد من التجارب القّيمة التي تدعوه إلى تطوير عمله الجهادي في المستقبل.

وإنا لنرى اليوم الكثير من الحوزات العلمية المتفاعلة مع الساحة، فالطالب فيها يدرس وفي نفس الوقت يتحرّك بين صفوف المجتمع. وهذا هو الجهاد الذي

تعنيه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١].

فلكي ينضم المؤمن إلى سلك الجهاد، ينبغي عليه أن يكون واعيًا متغلغلًا في عمق الحياة الجهادية، ومفكّرًا مبدعًا حتّى تنطبق عليه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

فعلينا جميعًا أن نحمل همّ قضايا الأمّة بعمق، ونشعر بأننا مسؤولون عن دعوتها إلى الخير والصلاح.. وعلينا أن نقدّم يد المساعدة لأمّتنا، كلٌّ من موقعه وعمله وقدرته، وأن لا ندع الزمن يمضي دون تقديم أيّة خدمة لهذه الأمّة. أمّا من يكتفي بأن يكون طالب علم، فيجعل وقته وقفًا على الدراسة فقط، فليعلم أن عمله هذا سلبي، وأنه سيترك في المستقبل أسوء الأثر على أمّته.

الإصرار والمتابعة

إن الإصرار والمتابعة في العمل عاملان أساسيان لتقدم طالب العلم. فعدم الإلمام والإحاطة بعمل التبليغ، وعدم إكتساب الكفاءة، يعدّان عائقًا في طريق العمل؛ فعلينا تخطي جميع هذه الأمور، والدخول في شتى المجالات لاكتساب المزيد من الخبرات والقدرات، ويجب أن لا نجعل أجسادنا ترفل في الترف والدّعة والنعيم.. لأن الابدان التي اعتادت الترف والراحة هي أولى بالنار من غيرها.

وهذا ما يدعونا إلى تربية الهمم العالية والعزائم الراسخة في نفوسنا، وذلك بواسطة التدرب على إلقاء الخطابات والإنكباب على التأليف، وتعلّم اللغات، وخاصة اللغة العربية، لأن الإحاطة بقواعدها يعتبر من الشروط الرئيسية للخطيب أو الكاتب الجيد.

إن مجالات الحياة مفتوحة أمام الجميع، فلا ينبغي أن نضيعها بالتردد وضعف الإرادة وقلّة الهمّة. والمهم أن ندرك أن الدراسة للحياة، والعمل والسياسة

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

للحياة، بل إن الحياة هي محور العمل؛ أي محور تلك الأعمال الواقعية الخارجية، لا التّجريديّة والذهنية فقط.

منهاج التغيير

عمل الإنسان هو الذي يحدد مصيره، فإما إلى الفلاح أو إلى الخسران. ولكن العمل بدوره هو نتيجة لرؤية الإنسان وطبيعة فهمه للحياة؛ فمن كانت معرفته بالحياة معرفة صحيحة، ورؤيته رؤية واضحة، فإن عمله سيكون سليمًا. أما من كانت رؤيته منكوسة، فإن عمله سيكون باطلًا.

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا الترابط، وتلك العلاقة الوثيقة بين رؤية الإنسان وعمله عبر آيات عديدة، منها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[(١)].

منهج التفكير هو الذي يحدد الرؤية والسلوك

فحينما تكون الرؤية معكوسة فمن الطبيعي أن تكون حركة الإنسان باطلة تبعًا لذلك، بل إن جميع أعماله وسلوكياته ستصبح خاطئة ومنحرفة. ولو تعمقنا أكثر فسوف نكتشف أن رؤية الإنسان بدورها هي نتيجة لعامل آخر وليست هي نهاية الخط، وهذا العامل هو منهج التفكير عند الانسان؛ فمن كان منهجه سليمًا فإن رؤيته ستكون سليمة أيضًا، ومن كان منهجه في التفكير خاطئًا فإن رؤيته ستكون خاطئة هي الأخرى.

والمنهج يعني القواعد التي يتَّبعها الإنسان لكي يحصل على المعرفة، فقد يتبع الإنسان من أجل الحصول على المعرفة شخصًا أو منهجًا لا يصلحان للإتباع، فبدلًا من أن يطيع الله نراه يطيع الشيطان.

فعندما يقلد الإنسان شخصًا ما، سواء كان مهتديًا أو ضالًا، فإن منهجه سيكون

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٤.

خاطئًا، وبذلك فإن معارفه ورؤاه وبصائره وبالتالي سلوكه سيغدو خاطئًا. وكذلك الحال عندما يتبع الإنسان مجتمعه الذي يعيش فيه، ويكون منهجه في المعرفة هو الإستماع إلى الناس والخوض معهم حيث خاضوا، فإن رؤيته وسلوكه منحرفان. وكذلك الأمر لو اتبع الإنسان الأساطير والخرافات، ولم يميز بين الظن والعلم، وبين الوهم والمعرفة، فإن رؤاه هي الأخرى ستكون باطلة. ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١).

فبدلًا من إتّباعه العقل يتّبع الأمية، وعوضًا عن اهتدائه بنور العلم نراه يضل بسبب اتّباعه للظن، ولن يغني الظن عن الحق شيئًا.

المؤسسات الثقافية ودورها في صياغة المناهج

إن هدى المجتمع وصلاحه يكونان نتيجة لصلاح بصائره ورؤاه التي تتبع منهج هذا المجتمع في المعرفة وأسلوبه في الفهم. والسؤال المطروح هو: من أين يتكوَّن منهج المعرفة لدى المجتمع، وهو لا يضم فردًا واحدًا وإنما مجموعة كبيرة ومتفاعلة من الأفراد؟ وكيف تتكون رؤيتهم ومنهج تفكيرهم؟.

إنّ ذلك المنهج يتكون في المؤسسات الثقافية للمجتمع، فإذا انحرفت المؤسسة الثقافية فإن المجتمع سينحرف أيضًا في رؤاه وسلوكه، ويهوي إلى الحضيض. أما إذا صلحت هذه المؤسسة فإن مسار المجتمع سيكون مسارًا صالحًا وصحيحًا. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**زَلَّةُ الْعَالِمِ تُفْسِدُ عَوَالِمَ**»(٢).

فالعالِم -باعتباره رائد المؤسسات الثقافية- هو الذي يرسم مسار الثقافة والفكر في المجتمع؛ فإذا زلَّ هذا العالم، فإن الثقافة والفكر ومن ثمّ الرؤية ستفسد، لأنها ستنحرف عن مسارها الصحيح، وبالتالي ستنتهي إلى تحطيم المجتمع ودماره.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٧٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ٢٣٢.

من أسباب تخلفنا

إنّ الحوزات العلمية هي مراكز الإشعاع في العالم الإسلامي، واستنادًا إلى هذه الحقيقة يمكننا أن نتهم هذه الحوزات بالتقصير، ونعزو إليها تخلف العالَم الإسلامي وانحطاطه، إذ بمقدار زلل هذه الحوزات عن النهج القويم، يفسد المجتمع الإسلامي. فقد كان الفرد في السابق يدخل الحوزة دون أن يفكر في الخروج منها؛ فكان يدرس لذات الدراسة، لا من أجل التبليغ، حيث كان حرامًا على العالِم أن يترك الحوزة من أجل التبليغ، فكان يمكث فيها حتى يصبح جزءًا من مجتمعها.

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك المناهج الخاطئة التي تسرّبت إلى الحوزات العلمية، لدراسة الفلسفة الاغريقية واليونانية التي كانت سببًا في انحراف الكثير من الأشخاص في تلك المراكز العلمية.

إنّ إنفصام المجتمع عن الحوزات العلمية يعتبر هو الآخر رد فعل للإنحراف الذي أصاب هذه الحوزات التي لم تكن ترسل طلابها للتبليغ والدعوة بين أوساط المجتمع، مما أظهرها بمظهر الضعف والانعزال.. ولولا ذلك الجمود والإنطواء اللذان كانت تعاني منهما، لما استطاعت السلطات الجاهلية أن تفرض نفوذها على الأمّة الإسلامية. والأدهى من ذلك أنّ هذه الحوزات كانت تحارب الأفكار اليقظة والواعية، ولولا هذا الموقف المتخلف منها، والجمود القائم فيها، لما تمكن الطغاة أن يعبثوا بمصير الأمّة كيفما شاؤوا.

ضرورة تغيير منهج الحوزات

ونحن إذا وضعنا أيدينا على هذا العامل الهام وهو جمود الحوزات، فإننا نكون قد اقتربنا من معرفة الداء، وبالتالي من تحديد الدواء. فالداء هو المنهج الموجود في الحوزات، والدواء هو ضرورة تغييره بما يتناسب مع متطلبات العصر، وبما ينسجم مع حاجات العالَم الإسلامي المتزايدة.

فقد نرى إفتقار بعض البلدان الإسلامية إلى من يؤم المسلمين في الصلاة، أو من يقوم بدورغسل الميت أو إجراء عقد الزواج.. وقد نرى في بلدان أخرى مجاميع كبيرة من الناس لا يعرفون عن الإسلام شيئًا، ولكنهم مع ذلك لا يأكلون- مثلًا- لحم الخنزير، ولا يشربون الخمر، ويقومون بختن أولادهم طبق الطريقة الإسلامية، ويمارسون مجموعة من المراسيم الاسلامية.. مما يدل على أنهم كانوا مسلمين في يوم من الأيام ثم انفصلوا عن الإسلام شيئًا فشيئًا، وانقطعوا عن الثقافة الإسلامية حتى ارتدّوا إلى سابق دياناتهم، لتبقى فيهم بعض الممارسات الإسلامية مجرد عادات وسلوكيات قديمة.

إنّ الكثير من الناس في العالَم اليوم تتجه أنظارهم إلى الإسلام كدين منقذ للبشرية مما هي عليه من تيه وضلال وإنحراف، وهؤلاء الناس بحاجة ماسة إلى كوادر مؤمنة، وطلائع مخلصة، تأخذ بيدها نحو مرافىء هذا الدين الحنيف، بل إن هناك كثيرًا من المسلمين بحاجة ماسة إلى مبلّغين واعين يطلعونهم على كثير من معالم دينهم التي خفيت عليهم، ويعلمونهم ما لا يعلمون من أحكام هذا الدين المبارك.

لقد حمل المسلمون الأوائل رسالة الإسلام إلى آفاق العالَم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحابه الذين بلَّغوا البشرية رسالة الإسلام العظيمة: «**عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ، كَادُوا أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْبِيَاءَ**»[١].

أما اليوم فإننا نجد أنفسنا مبتعدين عن روح الإسلام، ولذلك نرى أن طالب العلم لا يتخرج من الحوزة إلا بعد أن يشتعل رأسه شيبًا. وهذه النتيجة طبيعية لبعض المناهج السقيمة الموجودة في الحوزات، ولا يمكننا إصلاح هذا الوضع إلا بإصلاح المناهج وفق منهج الإسلام ذي الشريعة السمحاء، إسلام العقل والفطرة والوجدان، إسلام الواقع والحقائق.. الأمر الذي يحمِّلنا مسؤولية مضاعفة ومركّزة

(١) الكافي، ج٢، ص٥٣.

لابدّ أن نتحملها بوعي وإصرار وقوة وعزيمة راسخة.

وهذه المسؤولية تتمثل في أن يسعى كل طالب علم لإتمام مناهجه الدراسية في أقرب فرصة ممكنة، وأن ينطلق إلى مراكز العمل، ويضع أمامه المسؤوليات التي تنتظره يوم تخرجه، وكيف يجب أن يربي ويهييء نفسه لها منذ الآن، وبذلك سوف يثبت سلامة المنهج الذي يتلقاه في حوزته.

المنهاج الأمثل للحوزات

إنّ المنهج السليم هو الذي يشكل دافعًا للشباب للإقبال على طلب العلم، وبالتالي يؤدي إلى تخريج المزيد من طلبة العلوم الدينية إلى المجتمعات بروح جديدة، وإيمان عميق، ليكون هدفهم تغيير المجتمع نحو الأفضل.

ولكن كيف يجب أن يكون هذا المنهاج الذي نعتمد عليه في بناء الطلائع الواعية والمؤمنة في الأمّة؟.

إنّ هذا المنهاج -بالإضافة إلى دراسة العلوم ومعرفة الأحكام الشرعية وما شاكل ذلك- ينبغي أن يكون كالتالي:

١- العالم الديني مركز إشعاع

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الشمس سراجًا منيرًا ينعم به البشر، كما خلق غيرها من الآيات الواضحة تذكرة وبيانًا للناس وهدى، ومسؤولية العالِم الرباني هي تبصير الناس بهذه الآيات، ولولا ذلك لما نفع العالِم ما يحمله من علم.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: من أين يقتبس العالِم نور الإيمان الذي يدفعه إلى نشر الحقائق، وتبصير الناس بأسرار الكون والخلق؟.

وللجواب على ذلك نقول: إن العالِم إنما يقتبس نور الإيمان هذا من الله تعالى مباشرة. فحينما يدخل العالِم مجتمعًا فاسدًا وملحدًا وغافلًا عن آيات الله،

فإنه يحاول أن يبث روح الإيمان في ذلك المجتمع، أما هو بدوره فيستقبل نور الإيمان بما يؤديه من المستحبات.

فعندما يريد العالِم -مثلًا- دفع الناس إلى الصيام في شهر رمضان، فعليه أن يبدأ بالصيام منذ شهر رجب وحتى شهر رمضان؛ وعندما يريد أن يدفعهم للمواظبة على صلاة الصبح، فعليه أن يتهجد منذ الليل حتى صلاة الصبح؛ وحينما يريد أن يأمرهم بتلاوة بضع آيات من القرآن كل يوم، فعليه أن يتلو جزءًا من القرآن يوميًا على الأقل. وعليه فإن العالِم عندما يريد أن يدعو الناس إلى عمل صالح، ينبغي عليه أن يسبقهم إليه بمراحل قبل أن يأمرهم به.

وعلى هذا فإن إستلهام نور الإيمان من الله عز وجل يكون عبر المستحبات كالتهجّد في الليل، والذكر الدائم لله.. وعندما يختلط نور الإيمان بأجزاء العالِم وكيانه، فإن الناس سوف يتوجهون إليه، لأنه يذكِّرهم بالله تعالى.

أما العالِم الذي لا يكون منظره وسلوكه مذكِّرَيْن بالله، بل على العكس من ذلك، فإنما هو قاطع لطريق الناس إلى ربّهم بدلًا من أن يصلهم إليه.

ولذلك ينبغي أن يصل العالِم إلى درجة يستطيع فيها أن يهدي الناس ويرشدهم، حتى بمجرد نظرهم إليه.

٢- التفكر رأسمال العقل

كل واحد منا يتعلم ممن هو أعلم منه، ويستقي علمه ممن هو أعلى منه مستوى في الفهم والإدراك. أمّا إذا بلغ الإنسان أعلى المستويات وأرفعها، بحيث لا يوجد من هو أعلم منه كي يأخذ منه ما يحتاجه من علم، فحينئذ عليه أن يأخذ العلم ويستنبطه من التفكُّر. وقد قال الإمام عليّ عليه السلام: «**الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ**»[١].

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٦٥.

والعلم الذي يأتي من التفكر إنما يتحصل بالنظر إلى الكون نظرة إعتبار وتذكر، وتأمل وتعمق، وبذلك يكتسب العلم.

والفكر والعقل يعدان أعظم رأسمال للإنسان، فعليه أن يستثمره ويستفيد منه؛ فبإستثماره يزداد عطاء ونشاطًا وحيوية. ومثله في ذلك كمثل مولِّ الطاقة الذي إذا لم يشغّل علاه الصدأ، وعطل عن العمل، أما اذا حُرِّك فإنه سيولد طاقة مفيدة. فالعالِم يجب أن يكون دائم التفكير، حيث إنّ هذا التفكير سيحدو به إلى التوغّل في العلم والأخذ بناصيته بقوة.

٣- تنمية الأخلاق الفاضلة

إنّ الخلق الفاضل هو كأية ظاهرة أخرى في حياة الإنسان قابل للتنمية والتزكية، كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(١).

فليس من الصحيح أن يستمر الإنسان على خلقه السيء، ويصر على عدم تغييره. فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(٢).

فلكي تكون النفس الإنسانية راضية عن المجتمع، مرضية فيه، يجب أن تكون نفسًا مطمئنة تاركة للعصبية المقيتة والتكبر والغرور، متحلية بالصبر والحلم. فالإنسان المؤمن عليه التدرج في مدارج الكمال النفسي حتى يصل إلى القمة، وإنّ أفضل مكان لخوض غمار مثل هذه التجارب والصراعات بهدف تزكية النفس هو الحوزات العلمية باعتبارها نموذجًا مصغرًا للمجتمع الكبير، حيث يتسنى للإنسان فيه أن يربي نفسه على الأخلاق الرفيعة والحميدة.

---

(١) سورة الشمس، آية: ٧-١٠.

(٢) سورة الفجر، آية: ٢٧-٢٨.

ففي المجتمع الكبير هناك الفساد والإنحراف اللذان قد يؤثران على الفرد بمجرد دخوله هذا المجتمع، ولذلك كان من الضروري على الإنسان أن يصلح نفسه خطوة فخطوة، فيعوّد نفسه هذه على عدم الإغتياب وعدم إرتياد مجالس اللهو والبطالة وما شاكل ذلك من ممارسات منحرفة، جاعلًا من النبي الأعظم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام قمته السامقة، وقدوته التي يسير على هداها، ويمضي على خطاها، ويستعين في ذلك كله بالله عز وجل.

٤- الصحة من أجل العطاء والعمل

إنّ أمام الفرد المؤمن دربًا طويلًا وشاقًا، عليه أن يقطعه حتى يحقق أهدافه السامية، ويصل إلى ما فيه رضا الله ورسوله؛ ولكي يتسنّى له تحقيق هذه الأهداف، ينبغي أن يكون متمتعًا بجسد قوي سليم. فالرجل الضعيف والمريض لا يمكنه أداء مهامه الرسالية، كما لا يمكنه الثبات عند المشاكل والصعاب التي تواجهه.

وعلى هذا فعلى المؤمن أن يعتني بما يتناوله من طعام دون أن يستعبده هذا الطعام، بل أن يكون له برنامج في الطعام. فالمطلوب أن يأكل من أجل فائدة جسمه، والحفاظ على صحته، لا أن يملأ معدته. وبالإضافة إلى ذلك، عليه أن يمارس الرياضة لرفع الكسل والخمول عن جسمه، وعليه أن يتمتع بروح التعاون مع الآخرين، فلا ينتظر أن يقوم مَنْ حوله بخدمته، بل عليه أن يبادر إلى مساعدتهم في إنجاز جميع الأعمال حتى يتدرب جسده على النشاط والحركة، فيغدو قادرًا على ممارسة مختلف الفعاليات بعد أن يزود جسده وروحه بكل ما ذكرناه من صحة جيدة، وأخلاق سليمة، وفكر متحرك، وإيمان عميق؛ الأمر الذي يعجل في تقدّم الأمّة الإسلامية وتطورها ونموها.

ضـرورة الإدارة

إن المشكلة الأساسية التي تعاني منها الأمة الإسلامية هي مشكلة القيادة، ولهذه المشكلة بُعدان:

- **البُعد الأول**؛ يتصل بالجماهير، لأنها لم تؤمن الإيمان الكافي، ولم تسلِّم التسليم المطلوب لقياداتها الرسالية، ففقدت بذلك القلب النابض، والمحور الذي يجتمعون حوله.

- **البُعد الثاني** -وهو مدار حديثنا- يتمثل في القيادات، فهي بدورها مسؤولة عمومًا عن تردي الأوضاع، وعن عدم إستجابة الجماهير لها، ونحن نستوحي هذه الظاهرة من حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إذ قال: «**لَأَحْمِلَنَّ ذُنُوبَ سُفَهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ**»[1]، وكذلك قوله عليه السلام: «**يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْباً، قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ**»[2].

الكفاءة الإدارية شرط المرجعية

صحيح أن هناك أحاديث أخرى تصرح بأن: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ**

---

(1) الكافي، ج٨، ص١٦٢.

(2) الكافي، ج١، ص٤٧.

الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[١]، ولكن صحيح أيضًا أن المحاسبة تكون بقدر المسؤولية، وبحجم الصلاحية يكون الواجب. وهكذا نرى أن العلماء القادة يمكن أن يكونوا مسؤولين بدورهم عن تخلف الأوضاع، رغم تفوقهم العلمي.

فيا ترى أين تكمن المشكلة؟.

المشكلة الحقيقية تتمثل في الإدارة. فلقد كنا نمتلك علماء جيدين، ولكنا لم نكن نتمتع عمومًا بمدراء كفوئين، ومع ذلك فقد كانت لدينا قيادات مثالية من الناحية العلمية والأخلاقية ومن نواح عديدة أخرى.

وإذا ما انتقلنا إلى القيادات الوسطى رأينا مشكلة الإدارة أكثر وضوحًا. ونقصد بالقيادات الوسطى، الوكلاء والخطباء والكتّاب وغيرهم ممن يعتبر حلقة الوصل بين القيادة والجماهير.

ونحن نستوحي أهمية الإدارة كصفة أساسية من صفات القيادة، من حديث رسول الله ﷺ، إذ يقول: «**أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ**»[٢].

فهذه المداراة تعني أن تكون قادرًا على أن تدير الجماهير، وتتعرف على شخصياتهم، وتعرف كيف تحركهم في الاتجاه المناسب وفي الوقت المناسب.. ولذلك استطاع الرسول الأعظم ﷺ أن يبني أمة، ويؤسس مجتمعًا وحضارة ممتدة في فترة قياسية.

شروط المدير الناجح

والسؤال المهم المطروح هنا هو: كيف يمكن للإنسان أن يكون مديرًا ناجحًا؟.

هناك شروط ثلاثة، هي في نفس الوقت تشكل مراحل ثلاثة:

---

(١) بصائر الدرجات، ص٢٣.

(٢) الكافي، ج٢، ص١١٧.

المرحلة الأولى: السيطرة النفسية

وهذه النقطة ترتبط بنفسية الإنسان، فينبغي عند قيادتك للجماهير أن تكون مسيطرًا على المواقف المختلفة من الناحية النفسية. فالإنسان المنهار -في داخله- لا يستطيع أن يقوم بعملية الإدارة، فلابد أن تعلم أن الآخرين ينتظرون موقفك، وأن موقفك هذا سيحدد موقف المجتمع، فلابد أن تكون جريئًا في اتخاذ الموقف، وأن لا تتهيب من ذلك، لأن التهيب هو من أهم عوامل الفشل في حياة الإنسان، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ..**»(١).

فالإنسان الذي يتهيب لا يمكنه أن يفعل شيئًا، في حين أنه يجب أن لا يستحي من الحق؛ فما دمتَ على حق، وما دمتَ صاحب فكرة ورسالة، فاعرف شخصيتك بالنسبة إلى جميع القضايا قبل أن تبدأ أي عمل في حياتك، واستحضر عظمة الله في نفسك قبل أن تقدم على أية قضية كبيرة.. فلا تجعل عظمتها تستبد بنفسك، وتوكل على الله، وحينئذ ستصبح أنت بدورك أكبر من هذه القضية.

فبقدر كبر وسعة نفس الإنسان، ينزل الله من رحمته عليها؛ فهناك من النفوس ما هي محدودة ضيقة، وهناك ما هي كبيرة واسعة قد تسع الدنيا كلها، والله تعالى يتعامل مع هذه النفوس بقدر ضيقها وسعتها.

وهكذا نرى أن رحمة الله تعالى تنزل بقدر شخصياتنا، وبقدر إستيعابنا لمسؤولياتنا تجاه الناس، فإذا وثق الإنسان بالله استطاع أن يحقق ما يريده؛ أي إن نفسيته تمتد وتتسع لرحمة الله تعالى. وللأسف فإن أكثر الناس لا يمتلكون قدرة الإستيعاب هذه، ولذلك لم يستطيعوا تحقيق شيء مهم.

إن الحياة التي يواجهها الإنسان المؤمن صغيرة إزاء إرادته، وإزاء سعة شخصيته، لأن هذ الإنسان المؤمن متكل على الله سبحانه وتعالى، ولأن الطمأنينة

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢١.

النفسية والروحية قد غمرت نفسه فهو لا يتهيب المواقف الصعبة ولا ينهار نفسيًّا إزاءها. وعلى هذا فإن (السيطرة النفسية) تمثل الشرط الأول من شروط الإدارة الناجحة.

المرحلة الثانية: الحزم

ويعني أن يكون إهتمامك منصبًا على الهدف، فلا يصرفك شيء عن هذا الهدف، ولا تعدل به شيئًا آخر، وإن تطلَّب منك ذلك بذل التضحيات ومواجهة الصعوبات، لأن الأهداف الكبيرة تحتاج إلى زمن طويل لتحقيقها، وتتطلب من الإنسان أن يتعب نفسه في سبيلها، لا أن ينهار في منتصف الطريق، وينصرف عن تحقيق هذا الهدف.

وللأسف فإن هناك الكثيرمن الناس ينهارون قبل الوصول إلى الهدف رغم أنهم قد قطعوا مسافة طويلة في طريق تحقيقه، ولم يبق للوصول إليه سوى مسافة قصيرة، في حين أن الله سبحانه يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١]، وفي هذا الخصوص يقول الإمام علي عليه السلام: «**عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفُرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ**»[٢]. ويقول عليه السلام: «**مَا اشْتَدَّ ضِيقٌ إِلاَّ قَرَّبَ اللهُ فَرَجَهُ**»[٣].

المرحلة الثالثة: اللين

وهي مرحلة مهمة وخطيرة أيضًا، وتعني أن لا نساوم على الهدف نفسه، بل على الأسلوب الذي يوصلنا إليه، فنعمد إلى تغيير الأسلوب عند الحاجة، وأن لا نُبتلى بداء الجمود على أساليب معينة؛ فهناك الكثير من الناس فشلوا في حياتهم، لأن الأسلوب تحول عندهم إلى هدف، فلم يتعاملوا معه بمرونة.

---

(١) سورة الشرح، آية: ٥.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٥١.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ١٧٧١.

فعلينا -إذن- أن نجعل الهدف نصب أعيننا، وأن نغيِّر الوسائل المؤدية إليه إذا رأينا أن الأسلوب الذي نتبعه غير مجد، فلا نعبد الوسائل، فالذين يعبدونها لا يحققون أهدافهم، والذين يقدسون الأهداف لا يمكن أن يقدسوا الوسائل.

فعلى كل واحد منا أن يتأمل الأعمال الفاشلة في حياته الماضية، أو الأعمال التي من الممكن أن تكون فاشلة في المستقبل، وأن يبحث عن سبب فشله في العوامل الثلاثة التي ذكرناها؛ اليأس أو الإنهيار النفسي، وإنعدام الحزم، وعدم المرونة في الوسيلة التي نختارها للوصول إلى الهدف.

القيادة الناجحة

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾[1].

في هذه الآية الكريمة يعالج القرآن الكريم قضية القيادة من جانبها الداخلي؛ أي من جانب القائد كما يشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾، كما ونستدل من هذه الآية على أنّ في الحياة مداخل صادقة وأخرى كاذبة؛ أي إنّ للحياة أبوابًا وطرقًا مستقيمة وأخرى منحرفة، فعلينا أن نسلك الأولى وأن نسعى لاكتشافها، ونتنكب عن الثانية لأنها تمثّل طرقًا غير طبيعية.

القرآن كتاب حياة

إنّ تعاليم الحياة في القرآن الكريم تكتسب ضرورتها اليوم أكثر من أي وقت آخر، وتتمخّض عن نتائج أعظم، ولقد تلقينا حتى الآن الدين من مصادرنا التأريخية؛ فتلقينا بذلك الجانب العبادي والأخلاقي المحدود من الدين، بينما لم نتلق الجوانب الحياتية منه، السبب في ذلك لا يعود إلى افتقار الدين في هذه

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٠.

الجوانب، بل لأننا لم نكن نهتم بها ولم نكن نفطن إلى أنها هي الجوانب الأساسية في الدين.. والدليل على ذلك أنا لا نجد في وقتنا الحاضر كتابًا في الإدارة موضوعًا على أساس التعاليم القرآنية، ولا نعرف كتابًا في التنمية الإقتصادية يتحدث عن الطرق الناجحة في التجارة والإقتصاد ويستند في حديثه هذا إلى القرآن الكريم.. فكلّ ما نعرفه عن القرآن هو مجرد قصص تأريخية، ومجموعة ممارسات عبادية مجردة من المحتوى، وقد نبحث طويلًا دون أن نعثر على تفسير مقنع لآيات القرآن، أو على تدبّر عميق لسائر الأعمال العبادية التي أمرنا بها الله عز وجل.

والمتدبر في الممارسات العبادية التي نقوم بها يوميًا أو بين الحين والآخر ليستشف أعمق المعاني الكامنة وراءها، بحيث لا يحتاج إلى البحث والرجوع إلى مصدر من المصادر؛ ففي الصلاة يمثل التسليم الترجمة الصادقة لمفهوم الولاية والولاء، حيث نقرّ فيها بالولاء لرسول الله وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين، ونكرّس إنتماءنا لخطّهم الإلهي، ثمّ نعلن عن ولائنا للفئة الصالحة، ومن ثمّ للمجتمع بصورة عامة. وهذا التمعّن في المسائل العبادية يدعونا لأن نستوحي الكثير من الأمور المرتبطة بجوهرها وأهدافها ومعانيها السامية، لا البعيدة والمنفصلة عنها.

وكلّ ما يستمدّه المسلمون من القرآن من عبادات وأحكام وتشريعات إنما يستمدونه بعيدًا عن جوهره؛ ولأننا في هذا العصر بصدد تعريف الإسلام إلى العالَم، فيجدر بنا أن نكون على إحاطة تامة ومعرفة كاملة بمنابع ثقافة الأمة الإسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة، لكي نستنبط من صميمها جميع العلوم والمعارف.

نحن نريد الآن أن نقدّم للعالَم إسلامًا يتحدث عن السياسة والإجتماع والإقتصاد.. نريد أن نظهر الإسلام الذي يغطّي جميع حقول حياة الشعوب وحضارتهم ومشاكلهم، ذلك لأنّ هذا الدين الحنيف هو في حدّ ذاته دين شامل لجميع العصور، وهو الوحيد الذي يحمل بين طيّاته علاج مشاكل العالَم بأجمعه.

ولأننا نبتغي تبشير هذا الدين إلى العالَم، بات لزامًا علينا أن نفهم هذا الدين أولًا قبل أن نعرضه على الآخرين. فالذي يريد أن يتسلم زمام القيادة، سواء كان فردًا أم تجمّعًا، عليه أن يقود ويحكم إنطلاقًا ممّا يحمله من معرفة ترتبط بمعتقداته وأفكاره، لا أن يكون قائدًا أجوف لا يحمل إلى الآخرين سوى الخراب والدّمار.

المداخل الصادقة والكاذبة في الحياة

وعندما نعود إلى الآية التي ذكرناها في بداية البحث، وهي: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[1]، نفهم منها أن للقيادة طريقين:

- طريق الصدق والاستقامة.
- طريق النفاق والخداع.

وعلى القيادة النموذجية أن تجدّ في طلب الطريق الأول، والسبب في ذلك تذكره الآية نفسها فتقول: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، فعندما تسلك القيادة الطريق الأوّل، وهو طريق الصدق، فإنّها ستكون قيادة مباركة قوية وحكيمة.

فالذي يسعى لبلوغ هدف أو غاية معيّنة من خلال سلوك طريقها السليم والصحيح، فإنّه لن يواجه عقبات ومشاكل مصيرية في حياته. أما الذي يريد تحقيق أهدافه من خلال طرق وأساليب ملتوية، فإنّه بالتأكيد سيبتلى بعواقب وخيمة، ذلك لأنه ولج لتحقيق مطامحه مداخل كذب، ولذا فإن مخارجها ستتربّص به الدوائر لتورطه وتوقع به.

فالذي يتعجّل الوصول إلى الهدف، يقع في مطبّات قد لا يمكنه التخلّص منها مدى العمر، كالذي يقود سيارته بسرعة جنونيّة ليصل إلى المكان الذي يريد فتصطدم سيارته ويُنقل إلى المستشفى بدلًا من ذلك المكان الذي يريد الوصول إليه.

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٠.

إن المداخل الكاذبة والملتوية موجودة في كثير من المجالات، كما أنّ المداخل الصادقة ممكنة فيها أيضًا حسب اختيار الإنسان للمسلك الذي يريده؛ ففي السياسة ـ مثلًا ـ يوجد هذان الخياران، فإذا أراد الشخص أن يمتهن السياسة ليصل إلى أهدافه بطرق متعرّجة ملتوية فإنّه سيبادر إلى فرض أنواع الضرائب على الشعب، فيسلط عليهم مرتزقته من رجال المباحث والمخابرات ليطاردوا المتمردين منهم، ويعذبوهم، ويسفكوا دماءهم، ويمتصّوا خيراتهم، ويدنّسوا عفتهم، ويلغوا دينهم ومعتقداتهم.. أما إذا أراد الفرد أن يحقّق أهدافه من خلال الطريق الصحيح، فإنّه سيقسم الأموال بين الناس بالعدل، ويمنحهم الحرية، وغير ذلك من الحقوق، وبذلك يصل إلى ما يصبو إليه.

الأسلوب الأفضل في الإدارة والعمل

وفي حياة كلّ أمّة توجد إتجاهات مختلفة، وهذه الإتجاهات قد تدلّ على ضعف هذه الأمّة وتخلفها، وقد تشير إلى التقدم المضطرد فيها. وهذا الإختلاف ليس مهمًّا، وإنّما المهم كيفية توجيه هذه الإتجاهات المختلفة، وأسلوب رسم خطّة تعاملها مع بعضها البعض. وهذا ما نكتشفه عندما نعرف الأسلوب الأفضل في العمل الرسالي أولًا، وفي الإدارة ثانيًا.

وهناك أسلوبان للتعامل مع الآخرين، أسلوب يمثل محاولة إستيلاء وسيطرة إحدى الجماعات على مواقع الجماعة الأخرى بشتى الوسائل والطرق، وكأنّ مواقع العمل في العالَم قد انعدمت. والأسلوب الثاني يتجلّى في جماعة تبحث عن مواقع جديدة، لتركّز جهدها وعملها في هذه المواقع دون مزاحمة للآخرين.

إن الأسلوب الأول غير طبيعي وكاذب، والثاني طبيعي صادق. فالأول ناجح في الظاهر لكن الفشل يترصّده، والثاني هو الناجح والصحيح في الحياة، فهو ما ينبغي اتّباعه والأخذ به ولو كان على حساب مصالحنا، لأنه بالتالي سيحقق الخير

والفائدة للمصلحة العامّة.

ونحن نرى هذا الأسلوب جليًّا في حياة الإمام عليّ عليه السلام، وخصوصًا عندما سُلبت منه الخلافة، وسُلِب من زوجته الزهراء عليها السلام إرثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فحينما اشتكت فاطمة الزهراء عليها السلام لعلي بن أبي طالب عليه السلام ممن غصب حقها، قالت له: «**يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ؛ -عَلَيْكَ السَّلَامُ- اشْتَمَلْتَ شَمْلَةَ الْجَنِينِ، وَقَعَدْتَ حُجْرَةَ الظَّنِينِ، نَقَضْتَ قَادِمَةَ الْأَجْدَلِ، فَخَانَكَ رِيشُ الْأَعْزَلِ**..

فأجابها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **نَهْنِهِي عَنْ وَجْدِكِ يَا ابْنَةَ الصَّفْوَةِ، وَبَقِيَّةَ النُّبُوَّةِ، فَمَا وَنَيْتُ عَنْ دِينِي، وَلَا أَخْطَأْتُ مَقْدُورِي، فَإِنْ كُنْتِ تُرِيدِينَ الْبُلْغَةَ، فَرِزْقُكِ مَضْمُونٌ، وَكَفِيلُكِ مَأْمُونٌ، وَمَا أُعِدَّ لَكِ أَفْضَلُ مِمَّا قُطِعَ عَنْكِ، فَاحْتَسِبِي اللهَ. فَقَالَتْ** عليها السلام: **حَسْبِيَ اللهُ**...»[١].

فالإمام علي عليه السلام كان يدرك جيدًا أنه لو طالب بحقه وحق زوجته، والإسلام لمّا يشتدّ عوده، ولمّا يدخل الإيمان في قلوب كثير من الناس، لكان في ذلك أثر سلبي قد يؤول إلى ردّة عن الدين، تحول دون تنامي خطّ الإسلام. ولهذا السبب آثر عليه السلام الجلوس والسكوت على مضض، وهو يقول: «**فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى، وَفِي الْحَلْقِ شَجًا**»[٢].

وهكذا صبر بمرارة، مؤثرًا بقاء كلمة الإسلام على ما سواها.

فليس من الصحيح إذن أن نتقدّم على حساب تخلّف الآخرين، وربما إرتدادهم وكفرهم. فالمطلوب أن نتقدّم بمواهبنا وإمكانياتنا، سالكين السبيل الصحيح. فإذا أردت -مثلًا- أن أصبح خطيبًا ناجحًا، فلا يجدر بي أن أطعن في الخطباء الآخرين، وأمتدح مواهبي أمام الناس، وأتسلّق على أكتاف غيري لأحلّ

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٩، ص٢٣٤.

(٢) نهج البلاغة، (٣) من خطبة له عليه السلام، المعروفة بالشقشقية.

محلّهم، بل عليّ أن أثبت للناس قدراتي ومهاراتي لكي ينتخبوني دون أن أمس شخصيّة الآخرين بسوء.

على القائد أن يعرف مداخل الصدق ومخارجه

وعندما يطوي الإنسان مسيرته إلى الهدف، سالكًا الصراط الطبيعي الذي يرتضيه الله عز وجل، فإنّه سيكون بذلك قدوة مشعّة ومنيرة لمن سواه، وسيلتف حينئذ حوله الناس ويستلهمون المثل الصحيحة من سلوكه وأخلاقه وأعماله.

ونجد مصداق ذلك واضحًا في حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة الأطهار عليهم السلام وأصحابهم رضي الله عنه . فنحن -مثلًا- نجد أن الشيعة في عهد الإمام جعفر الصادق عليه السلام كانوا قدوة للآخرين، حتى لمن كانوا على خلاف مذهبهم، إلى حدّ أنّهم كانوا يوصفون بأنهم أورع الناس وأتقاهم. وهذا يعود إلى اختيارهم للأسلوب الأفضل، وهو الأسلوب (مدخل الصدق، ومخرج الصدق) الذي تجسده الآية الكريمة التي أشرنا إليها.

وعلى هذا فإنّ الذي يريد أن يصبح قائدًا تتمحور حوله الجماهيرفي الساحة، عليه أن يتّخذ من الآن قراره الحاسم في الأساليب التي سيتّبعها، والطرق التي سيسلكها.

فعلى القائد الرسالي أن يأتي البيوت من أبوابها؛ أي أن يدخل الحياة من مداخلها الصادقة وإن كلّفه ذلك الكثير، لأنه يريد أن يقود الجماهير نحو الخير والفضيلة، لا الفرقة والإنحلال والفساد. فالعمل الدائب المستمر أفضل من الدخول في الصراعات الإجتماعية ومواجهة النكسات والنكبات، وبعد ذلك قد نصل إلى الهدف أو لا نصل.

والدخول في الصراعات الفارغة يؤدي إلى تضييع الجهود، وبعثرة الطاقات والإمكانيات، وتوجيهها توجيهًا سلبيًّا. ولكي يتقي القائد الرسالي هذه الصراعات

عليه أن يكرّس ويوجه طاقاته في طريق تربية نفسه وتزكيتها، لأن المجتمع بجميع أفراده بحاجة إلى الإنسان المؤمن الصادق الذي يتمتع بالكفاءة والخلق الحسن والتعامل الطيب مع الآخرين.

وبهذا الأسلوب الرفيع يمكن للإنسان أن يرتفع ويسمو، لأنه يعمل من أجل الله تعالى. أمّا إذا كان عمله طلبًا للشهرة والسمعة، واستجداء لمديح الناس، فإنه سيتردّى إلى الحضيض، وسيكون عمله هذا خيانة للمجتمع والمبادئ والقيم التي يحملها.

الأسلوب الأمثل للقيادة

والطالب المؤمن يستطيع ترويض نفسه على الصعاب في أجواء الحوزة التي يتلقى العلم فيها، فعن طريق الاحتكاك بمجتمع الحوزة يمكنه أن يصعّد من عملية تزكية النفس وتربية الأخلاق الحسنة في داخله، فيقضي بهذا الأسلوب على نفسه الأمّارة بالسوء، ويجمع بين المنطق الصائب وبين الخلق الرفيع. وهذا هو الأسلوب الأفضل والأمثل للقيادة؛ فردية كانت، أم جماعية، كما يشير الى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

ونرى هذا الأسلوب يتجلّى -أيضًا- في سلوك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام: «أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام صَاحَبَ رَجُلًا ذِمِّيًّا، فَقَالَ لَهُ الذِّمِّيُّ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا عَبْدَالله؟. فَقَالَ: أُرِيدُ الْكُوفَةَ.

فَلَمَّا عَدَلَ الطَّرِيقُ بِالذِّمِّيِّ عَدَلَ مَعَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ لَهُ الذِّمِّيُّ: أَلَسْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ تُرِيدُ الْكُوفَةَ؟!. فَقَالَ لَهُ: بَلَى. فَقَالَ لَهُ الذِّمِّيُّ: فَقَدْ تَرَكْتَ الطَّرِيقَ!. فَقَالَ

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٣.

لَهُ: **قَدْ عَلِمْتُ**. قَالَ: فَلِمَ عَدَلْتَ مَعِي وَقَدْ عَلِمْتَ ذَلِكَ؟.

فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **هَذَا مِنْ تَمَامِ حُسْنِ الصُّحْبَةِ، أَنْ يُشَيِّعَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ هُنَيْئَةً إِذَا فَارَقَهُ، وَكَذَلِكَ أَمَرَنَا نَبِيُّنَا** صلى الله عليه وآله وسلم.

فَقَالَ لَهُ الذِّمِّيُّ: هَكَذَا قَالَ!. قَالَ: **نَعَمْ**. قَالَ الذِّمِّيُّ: لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَبِعَهُ مَنْ تَبِعَهُ لِأَفْعَالِهِ الْكَرِيمَةِ، فَأَنَا أُشْهِدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِكَ.

وَرَجَعَ الذِّمِّيُّ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَلَمَّا عَرَفَهُ أَسْلَمَ»[١].

وبهذا الأسلوب الطيّب استطاع الإمام عليّ عليه السلام أن يكسب إسلام هذا الشخص الذمي، ونحن أيضًا نستطيع كسب إلتفاف الجميع حول راية التوحيد والإيمان إذا أخلصنا نيتنا لله تعالى، وإذا اتّبعنا الأسلوب الامثل، ودخلنا أبواب الحياة من مداخل صدقها.

(١) الكافي، ج٢، ص٦٧٠.

ثبت المصادر

١. **الأحسائي** (أبي جمهور)، الشيخ المحقق محمد بن علي بن إبراهيم، **عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية**، الناشر: دار سيد الشهداء عليه السلام للنشر، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، الطبعة: الأولى.

٢. **إبن طاوس**، السيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر، **الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة**، الناشر: دارالكتب الإسلامية، إيران – طهران، سنة النشر: ١٣٦٧هـ.ق.، الطبعة الثانية (حجرية).

٣. **الصَّفَّار**، الشيخ المحدث محمد بن الحسن بن فروخ، **بصائر الدرجات في فضائل آل محمد** صلى الله عليه وآله وسلم، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية.

٤. **الكليني**، المحدث الشيخ محمد بن يعقوب، **الكافي** (الأصول والفروع والروضة)، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران – طهران، سنة النشر: ١٣٦٥هـ.ش. الطبعة الأولى.

٥. **الحراني**، الشيخ الثقة الحسن بن علي بن الحسين، **تحف العقول عن آل الرسول** صلى الله عليه وآله وسلم، صححه وعلق عليه: الشيخ علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في

قم، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية.

٦. **الحر العاملي**، المحدث الكبير والعلامة المحقق الشيخ محمد بن الحسن، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٧. **العاملي (الشهيد الأول)**، الشيخ محمد بن مكي، **المزار**، تحقيق: محمود البدري، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى.

٨. **العاملي** (الشهيد الثاني)، الشيخ زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي، **منية المريد في آداب المفيد والمستفيد**، تقديم وتحقيق: رضا المختاري، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي – الحوزة العلمية بقم، إيران – قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٩. **المدرسي**، آية الله العظمى السيد محمد تقي، **المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه**، الناشر: دار البيان العربي، لبنان، بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، الطبعة: الثانية.

١٠. **المدرسي**، آية الله العظمى السيد محمد تقي، **التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده**، الناشر: دار نشر المدرسي، إيران ، طهران، سنة النشر: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، الطبعة: الثانية.

١١. **الهاشمي**، الإمام علي بن أبي طالب القرشي، **نهج البلاغة**، جمع وترتيب: السيد محمد بن الحسين الموسوي (السيد الرضي)، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور: صبحي الصالح، الناشر: دار الهجرة للنشر، إيران – قم المقدسة، لم تذكر سنة النشر.

١٢. **المجلسي**، العلامة المولى الشيخ محمد باقر، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، الناشر: مؤسسة الوفاء، لبنان – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الرابعة.

١٣. **النيسابوري**، الشيخ العلامة زين المحدثين محمد بن الفتال، **روضة الواعظين وبصيرة المتعظين**، تقديم العلامة الجليل السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، الناشر: منشورات الرضي للنشر، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٨٦هـ. الطبعة الأولى.

١٤. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **من لايحضره الفقيه**، صححه وعلق عليه: الشيخ علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، إيران - بقم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٣هـ، الطبعة الثالثة.

١٥. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **الخصال**، تصحيح وتحقيق وتعليق: الشيخ علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية.

١٦. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **معاني الأخبار**، تصحيح وتحقيق وتعليق: الشيخ علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

١٧. **الصدوق**، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **الأمالي**، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الرابعة.

١٨. **الطبرسي**، خاتمة المحدثين الشيخ الميرزا حسين النوري، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٨هـ. الطبعة الأولى.

١٩. **الطبرسي**، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب، **الإحتجاج**، تحقيق: السيد

محمد باقر الموسوي الخرسان، الناشر: نشر المرتضى - مشهد المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

٢٠. **البرقي**، الشيخ الثقة المحدث أحمد بن محمد بن خالد، **المحاسن**، الناشر: دار الكتب الإسلامية - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٧١هـ، الطبعة الثانية.

٢١. **الطوسي** (شيخ الطائفة)، الشيخ محمد بن الحسن، **الأمالي**، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، الناشر: دار الثقافة للنشر، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

٢٢. **الطوسي** (شيخ الطائفة)، الشيخ محمد بن الحسن، **الاستبصار فيما أختلف من الأخبار**، الناشر: دارالكتب الإسلامية، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٩٠هـ، الطبعة الثالثة.

٢٣. **المازندراني**، رشيد الدين محمد بن شهر آشوب، **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق وتصحيح وتعليق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر: مؤسسة العلامة للنشر، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٧٩هـ، الطبعة الأولى.

٢٤. **الآمدي**، عبد الواحد بن محمد التميمي، **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي - الحوزة العلمية بقم، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٦٦هـ. ق. الطبعة الأولى.

المحتويات

كلمة الناشر ٧

المقدمة ١٩

المـدخـل ٢١

تمهيد ٢٣

لكي تكون بيوت الفقه مهبط الملائكة ٢٧

١- الإجتهاد ٢٨

٢- الجهاد ٣٠

٣- الروح الاجتماعية ٣١

٤- التقيّد بالنظام ٣٢

٥- التفكّر والتدبر ٣٣

٦- الانفتاح والإنبساط ٣٦

٧- التطلعات السامية ٨٣

٨- السلامة في البدن ٣٩

تفصيل البرامج ٤١

كلمات في البدء ٤١

الدروس الأصلية ٤٢

ألف: اللغة العربية ٤٢

باء: قواعد اللغة ٤٢
جيم: المنطق ٤٣
دال: الأصول ٤٣
هاء: الفقه ٤٣
الدروس الرسالية ٤٦
ألف: بصائر الرسالة ٤٦
القرآن الكريم ٦٤
السنة الشريفة ٧٤
باء: الفكر الرسالي ٤٨
أولًا: الفكر الإسلامي ٤٨
ثانيًا: المنطق الإسلامي ٤٨
ثالثًا: العرفان الإسلامي ٤٩
جيم: الثقافة الرسالية ٤٩
أولًا: برنامج الثقافة ٠٥
ثانيًا: التأريخ ٥٠
ثالثًا: السياسة ٥٠
رابعًا: فقه الحركة ٥٠
التخصص للمستقبل الأفضل ٥٠
أولًا: القائد الرباني ٥١
ثانيًا: المفكِّر المنظِّر ٥١
ثالثًا: المبلِّغ الصالح ٥١
كلمات الختام ٥٣
أولًا: القدوات الصالحة ٥٣
ثانيًا: التقوى والإلتزام ٥٥
الفصل الأول: مُنطلقات المعهد الإسلامي ٥٧
المعهد الإسلامي منطلق الحضارة ٥٩
أبرز خصائص الحضارة الإسلامية ٥٩

في مواجهة التيارات المنحرفة........ ٦٠

صمود رغم التحديات ٦٣

الحوزات العلمية نظام خاص ٤٦

لا للقومية في الحوزات العلمية ٦٦

الزهد أساس استقلال الحوزات العلمية ٦٦

المفهوم الصحيح للزهد ٧٦

دور العلم في البناء الحضاري ٦٩

المفلح من وقاه اللّـه ٦٩

العلم سبيل تحرير النفس ٠٧

عدم الإهتمام بالعلم أساس التخلف........ ٧١

آفات طلب العلم........ ٧٢

علينا أن نقدس الوقت........ ٧٢

نحن المكلفون بإنقاذ العالم ٤٧

تكاملية العلم والدين ٧٥

خطورة الفصل بين العلم والإيمان ٥٧

ضرورة أن نكون علميين........ ٧٨

الهدى في طلب العلم ٨١

خطأ العالِم ليس ككلّ خــطأ........ ٨١

أهمية العلماء في الإسلام ٢٨

طالب العلم بحاجة إلى منهج خاص ٨٣

على طالب العلم أن يكون حذرًا ٣٨

مسيرة العلم لا يمكن أن تتوقف ٨٤

الدفع الذاتي لمواصلة طلب العلم ٥٨

علماء الدين رُسل الحضارة........ ٨٧

المفهوم الحقيقي للدين ٨٧

علماء الدين فريقان ٨٩

من أجل تجسيد الولاية ١٩

العلماء ورثة الأنبياء ٩٥
الدرجة الرفيعة في الدنيا والآخرة ٥٩
صفات العلماء في القرآن الكريم ٦٩
النعيم الأبديّ في انتظار العلماء ٩٩
سرّ إلتفاف الجماهير حول العلماء ٠٠١
إنهم أنصار الله ١٠١
رؤية القرآن التكاملية نحو التأريخ ٢٠١
حزب الله في الحوزات العلمية ٤٠١
غرس الروح الإيمانية في الحوزة ١٠٦
المرحلة الأولى ٨٠١
المرحلة الثانية ٩٠١
الولاء يزيد الإيمان ١١٠
الفصل الثاني: أهداف المعهد الإسلامي ١١٣
الهدفية ١١٥
النية نقطة إنطلاقة التعلم ١١٥
أصناف طلبة العلم ١١٦
الإجتهاد في طلب العلم ١١٩
الدعاة إلى الله ١٢١
توفير عوامل النصر ١٢٢
١- التواضع ١٢٣
٢- التعطش إلى العلم ١٢٤
٣- عدم الإقتصار على العلوم الدينية ١٢٦
الإصلاح في الأرض ١٣١
لا جدوى من الحياة بدون هدف ١٣١
الإستقامة هدف الإنسان الرسالي ٣٣١
الإصلاح وظيفة الإنسان الرسالي ١٣٣
منهجية العلم في إنقاذ البشرية ١٣٤

لابدّ للعلم من هدف ١٣٥
بناء المجتمع ١٣٧
إختيار الرسل ١٣٧
العلماء خلفاء الأنبياء.. ١٣٨
١- الهدفية والتزكية ١٤٠
٢- معرفة حاجة الناس من العلم.. ١٤٣
مجتعمنا بحاجة إلى ثقافة رسالية ١٤٤
الأسباب الحقيقية لتخلفنا.. ١٤٤
فضح الزيف ١٤٥
ميثاق اللـّه مع العلماء ٦٤١
مرتزقة القلم بين الماضي والحاضر ١٤٧
مواصفات العالِم حسب المفهوم القرآني ٨٤١
السبب الحقيقي لمآسينا.. ١٤٩
البـــلاغ.. ١٥١
ضرورة تعيين الهدف من الدراسة ١٥٢
شروط العلم النافع.. ١٥٢
المنبر مسؤوليّة خطيرة ٣٥١
الأسلوب الصحيح للإستفادة من الدروس ١٥٤
الفصل الثالث: قيم المعهد الإسلامي ١٥٧
بين العلم والتقوى ١٥٩
للعلم والتقوى درجات.. ١٥٩
التقوى حصن ضد المغريات.. ١٦٠
العلماء أولى الناس بتحصيل التقوى ١٦١
التقوى وأهوال يوم القيامة.. ١٦٢
بين العلم والتوكل ١٦٣
بين تنمية العقل وتراكم المعلومات ١٧١
بين العقل والعلم علاقة مصيرية ١٧١

الإبتعاد عن العقل سبب المآسي ١٧٣
زيادة العقل هدف الأنبياء ١٧٣
بين العلم والمعلومات ١٧٤
مشكلة تضخيم المعلومات ١٧٤
كيف نستفيد من المطالعة؟ ١٧٦
بين العلم والمال ١٧٧
العلم هو المقياس المتفوق ٧٧١
بالعلم نكبح جوامحنا ١٧٨
العلم بدون التقوى ٠٨١
العلماء الأبرار وعلماء السوء ٠٨١
خطورة علماء السوء ٢٨١
العلماء الأبرار قدوة المجتمع ١٨٢
صفات القائد في القرآن ٣٨١
بين العلم والعمل ١٨٥
مسؤوليتنا في هذا المرحلة ٦٨١
سبيلنا إلى التكامل ٧٨١
بين التجزئة والشمولية ١٨٩
مظاهر التجزئة في العلم الحديث ١٨٩
مخاطر منهج التجزئة ١٩٠
المنهج الإسلامي شامل ومتكامل ١٩١
الفرائض الإسلاميّة غير قابلة للتجزئة ١٩٢
الحوزات العلميّة علم وعمل ٣٩١
الفصل الرابع: سمات المعهد الإسلامي **١٩٥**
حقيقة العلم ١٩٧
العلم والعلماء في الإسلام ١٩٨
القيم معيار ١٩٩
دور علماء السوء في تكريس التخلّف ٢٠٠

مقاطعة وسائل التضليل الإعلامي ٢٠١
أساس العلم يجب أن يكون سليمًا ١٠٢
كيف نقتلع جذور الفساد؟ ٢٠٢
استقلال العلم ٢٠٣
لابد من إستقلالية العلم ٢٠٣
ضمانات الإسلام لاستقلال العلم ٤٠٢
١- قيمة العلم الذاتية ٢٠٤
٢- تزكية دوافع طلب العلم ٢٠٨
٣- إقصاء علماء السوء من المجتمع ٢٠٩
الزهد من أهم صفات العلماء ٢١٢
طبقات العلماء ٢١٣
العلماء النموذجيون ٢١٤
استقامة المعهد ٢١٥
كيف يحصن عالم الدين نفسه؟ ٢١٥
إصلاح النفس منطلق التغيير ٢١٧
الخطوط الرئيسية للحياة ٢١٨
بين طلب العلم وممارسة الأنشطة الأخرى ٩١٢
هـدفيـة المنـهـج ٢٢١
حقيقة الإخلاص في العمل ٢٢٢
الإخلاص واقع سلوكي أم نية مجردة؟ ٢٢٤
الإخلاص منطلق عمل الحوزات العلمية ٤٢٢
أهداف الدراسة على ضوء الإخلاص ٥٢٢
المدرس الناجح ٢٢٩
المباحثة منهج علمي متطور ٢٢٩
التدريس مناعة ضد النسيان ٠٣٢
مشاكل التدريس ٠٣٢
واجبات المدرس في الصف ٢٣١

الأسلوب الصحيح في التدريس ٢٣٢
خلق الجو الحيوي من شروط المدرس الناجح ٢٣٣
المدِّرس وكسب القلوب ٢٣٣
المنهـج الأمثـل ٢٣٥
آفاق المعرفة الواسعة ٢٣٥
أفضل طرق المعرفة ٦٣٢
الطريقة القرآنية في الوصول إلى الحقائق ٧٣٢
استنفار الطاقات في طلب العلم ٢٣٨
المبادرة إلى طلب العلم ٢٣٩
القلوب أوعية للعلم ٠٤٢
التدبر والتأمل سبيلا الدراسة الواعية ٠٤٢
الفصل الخامس: تطور المعهد الإسلامي **٢٤٣**
آفـاق التـطوير ٢٤٥
١ - عظمة دور الحوزات ٢٤٥
٢ - استقلال العلم ٢٤٦
٣- تنظيم الجوانب الجذرية ٢٤٧
ألف: قتل الأنانيات في الحوزة ٢٤٧
باء: تعميق الصلة بالنصوص الشرعية ٨٤٢
جيم: معرفة اللغة العربية ٩٤٢
دال: الإرتباط بين النظرية والتطبيق ٢٤٩
هاء: الإهتمام بالبحوث والدراسات العليا ٢٤٩
واو: الإهتمام بروح المبادرة ٠٥٢
ضروريات التطوير ٢٥٣
ماذا يعني التجديد؟ ٢٥٣
المراحل التي تمرّ بها الأمّة ٤٥٢
ضرورة مواكبة العصر ٥٥٢
١ - الحقّ بحاجة إلى أداة تنفيذ ٢٥٧

٢- ضرورة التنازل عن المهمّ في سبيل الأهمّ ٢٥٨
٣- الجمود يعني الموت ٢٦٠
التركيز والفاعلية........................ ٢٦١
شر الدواب عند اللـّه........................ ٢٦١
القرآن دعوة إلى تغيير السلوك ٢٦٢
العلم في المفهوم القرآني ٤٦٢
كيف نحصل على الرؤية السليمة؟ ٢٦٤
التعمق وسيلتنا إلى طلب العلم........................ ٢٦٥
المنهجية في طلب العلم ٢٦٧
العملية في طلب العلم ٢٦٧
الإصرار والمتابعة........................ ٢٦٨
منهاج التغيير........................ ٢٦٩
منهج التفكير هو الذي يحدد الرؤية والسلوك........................ ٢٦٩
المؤسسات الثقافية ودورها في صياغة المناهج ٢٧٠
من أسباب تخلفنا ٢٧١
ضرورة تغيير منهج الحوزات ١٧٢
المنهاج الأمثل للحوزات ٢٧٣
١- العالم الديني مركز إشعاع........................ ٢٧٣
٢- التفكر رأسمال العقل........................ ٢٧٤
٣- تنمية الأخلاق الفاضلة ٢٧٥
٤- الصحة من أجل العطاء والعمل........................ ٢٧٦
ضـرورة الإدارة........................ ٢٧٧
الكفاءة الإدارية شرط المرجعية ٧٧٢
شروط المدير الناجح ٨٧٢
المرحلة الأولى: السيطرة النفسية ٢٧٩
المرحلة الثانية: الحزم ٢٨٠
المرحلة الثالثة: اللين ٢٨٠

القيادة الناجحة ٢٨٣
القرآن كتاب حياة ٢٨٣
المداخل الصادقة والكاذبة في الحياة.. ٢٨٥
الأسلوب الأفضل في الإدارة والعمل ٦٨٢
على القائد أن يعرف مداخل الصدق ومخارجه ٢٨٨
الأسلوب الأمثل للقيادة.. ٢٨٩
ثبت المصادر ٢٩١
المحتويات ٢٩٥

المعهد الإسلامي

بين الأصالة والتطوير

لماذا الحديث عن المعاهد الإسلامية؟.

تأتي ضرورة ذلك من تعاظم تأثير هذه المعاهد في الحياة بعد أن تفاعلت أكثر من أي يوم مضى مع الظروف، وتصدت لقيادة الأمة في أكثر من بقعة.

وقد تميزت المعاهد الإسلامية التي تُسمى أيضًا بـ (الحوزات الدينية)، تميزت بالأصالة حيث تخصصت في فقه الشريعة الإسلامية والعلوم التي تتصل به.

وفي الظروف الصعبة التي مرت على الأمة بعد تعرضها لهجوم غربي شامل، وقف العلماء ومن ورائهم المعاهد الإسلامية يذودون عن حرمات الدين كالطود الشامخ، حتى إنحسر الهجوم وعادت الأمة إلى وعيها وشخصيتها.

وفي ذلك اليوم كانت الحاجة إلى الأصالة أكثر من الحاجة إلى الإنفتاح والتطوير، ولكن اليوم حيث قررت الأمة النهوض من سباتها ودخلت معركة التيار الحضاري، فإن على المعاهد الإسلامية أن تقوم بدورها الريادي في وضع البرنامج الرسالي الذي يواكب العصر واعطاء الزخم الحضاري الكافي لتنفيذ ذلك البرنامج.

وهكذا فإن الحاجة إلى التطوير والإنفتاح على مكاسب العصر تزداد للقيام بهذا الدور. وهكذا كان على المعاهد الإسلامية أن تقوم بدورين متكاملين: دور المحافظة على حدود الشريعة وأصالة الأمة، ودور تطوير الحياة وتنمية المجتمع.

ومعروف مدى صعوبة الجمع بين هذين الدورين المختلفين ظاهرًا، إلا أن عظمة الإسلام المتجلية في عظمة كتاب الله والسنة الشريفة التي تفسره.. وأن ثراء تراث الأمة ومرونة برامج المعاهد الإسلامية، كل ذلك كفيل بتجاوز هذه الصعوبة بعد التوكل على الله سبحانه.